

تفسير الفاسي
المسكت

مخازن التلاويك

تأليف علامه الشكام

محمد جمال الدين الفاسي

ونف على طبعه وتصحيحه ، ورقه وخرج آياته وأحاديثه ، وعلق عليه

(تادم الكتاب والسنة)

بمجددنا عبد الباقا

كُتِبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكًا لِّدَّبَرُواْ آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُواْ الْأَلْبَابِ
[٣٨ / س / ٢٩]

تفسير الفاسمي المسكبي

محاسن التاويل

تأليف علامته الشام

محمد جمال الدين الفاسمي

١٢٨٣ - ١٣٣٢ هـ ١٨٦٦ - ١٩١٤ م

الجزء الثالث عشر

وفيه تفسير : (من ٢٦ - سورة الشعراء إلى ٣٣ - سورة الأحزاب)

وقف على طبعه وتصحيحه ، ورقمه وخرج آياته وأحاديثه ، وعلق عليه

محمد زكي عبد الباق

عيسى الباني الحلبي وشركاه

كلمة

كاتب الشرق الأكبر ، عطوفة أمير البيان

الأبير شكيب أرسلان

في مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف ، رضى الله عنه

« وإنى لأوصى جميع الناشئة
الإسلامية ، التى تريد أن تفهم الشرع
فهماً ترتاح إليه ضمائرهما ، وتنعقد عليه
خناصرها ، ألا تقدم شيئاً على قراءة
تصانيف المرحوم الشيخ جمال القاسمى »
جنيف . رجب الفرد ١٣٥٣

كلمة

مصلح العصر الإمام

السيد محمد رشيد رضا

في مجلد المنار السابع عشر ، صفحة ٥٥٨

« هو علامة الشام ، ونادرة الأيام ،
والمجدد لعلوم الإسلام ، محيى السنة
بالعلم والعمل والتعليم ، والتهذيب
والتأليف ، وأحد حلقات الاتصال
بين هدى السلف ، والارتقاء المدنى
الذى يقتضيه الزمن »

كلمة

حضرة صاحب الفضيلة ، عالم الشام الأواحد

الشيخ محمد بهجة البيطار

في مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »
للمؤلف رضى الله عنه

« إن مما يقضى بالعجب من أمر أستاذنا المؤلف رحمه الله تعالى ، هو كونه خلف زهاء
مائة مصنف أو أكثر ، ولم يبلغ الخمسين من عمره . وندر جداً أن ترى كتاباً ، فى خزائنه
الواسعة ، مخطوطاً كان أو مطبوعاً ، خالياً من التعليقات الكثيرة ، والتصحيح على الأصول
الخطية الصحيحة .

ولقد كان ، رحمه الله ، آية فى المحافظة على الوقت ، والمواظبة على العمل .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٦ - سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

هي مكية، لإفوله تعالى ^(١) «وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ» إلى آخرها. وقوله ^(٢) «أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُوْا عُلَمَآؤُهُمْ» فقد روى أنهما نزلتا بالمدينة، وكان شعراؤه صلى الله عليه وسلم بالمدينة، حسان وكعب بن مالك وابن رواحة، رضى الله عنهم. وقال الداني: روى بسند صحيح أنها نزلت في شاعرين تهاجيا في الجاهلية، مع كل واحد منهم جماعة. فالسورة على هذا كلها مكية. انتهى.

وقال المهايى: سميت هذه السورة بها، لاختصاصها بتمييز الرسل عن الشعراء، لأن الشاعر، إن كان كاذبا فهو رئيس الغواة لا يتصور منه الهداية، وإن كان صادقا لا يتصور منه الافتراء على الله تعالى، وهذا من أعظم مقاصد القرآن، انتهى.

يشير إلى أن ذكر الشعراء فيها، لبيان أنهم في معزل عن الرسالة وتبرئة مقام الرسول صلوات الله عليه، عما افتروا عليه من أنه شاعر؛ فالسورة على هذا كلها مكية، ردًا لفريتهم. ولما كان لفظ (الشعراء) عامًا، جاز حمله على ما حكوه، لشموله له، لأنه نزل فيه خاصة دون غيره. وسيأتى، إن شاء الله تعالى، إيضاح ذلك. وهي مائتان وسبع وعشرون آية. قال ابن كثير: وقع في تفسير مالك المروى عنه، تسميتها (الجامعة).

(١) [٢٦ / الشعراء / ٢٢٤ - ٢٢٧]. (٢) [٢٦ / الشعراء / ١٩٧]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (طَسَمَ)

« طَسَمَ » سبق في سورة البقرة الأقوال في هذه الفواتح ، وأن الأكثر على أنها اسم للسورة ، فحله الرفع على أنه خبر لمحذوف ، وهو أظهر من رفعه على الابتداء . أو النصب بتقدير : اقرأ ونحوه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ)

« تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ » الإشارة إلى السورة ، وما فيها من معنى البعد للتعظيم ، ومحل الرفع على الابتداء ، خبره ما بعده أو بدل مما قبله . والمراد (الكتاب) القرآن . و(المبين) الظاهر إعجازه وآيته وبرهانه . من (أبان) بمعنى بان - أو المبين للحق من الباطل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (لَعَلَّكَ بَخِيعٌ نَفْسِكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)

« لَعَلَّكَ بَخِيعٌ » أى قاتل « نَفْسِكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ » أى لعدم إيمانهم . و(لعل) للإشفاق . أى أشفق على نفسك أن تقتلها حسرة على عدم إيمانهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (إِنْ نَشَأْ نُنزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ)

« إِنْ نَشَأْ نُنزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً » أى ماجة لهم إلى الإيمان ، قاسرة عليه « فَظَلَّتْ »

أَعَنَّفُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ « أى متقادين، والجملة مستأنفة لتعليل ما يفهم من الكلام من النهى عن التحسر المذكور، ببيان أن إيمانهم ليس مما تعلقت به مشيئة الله تعالى حتماً، فلا وجه للطمع فيه، والتألم من فواته. قاله أبو السعود.

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٥] (وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ) «وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ» أى مكذبين، استهزاء وإصراراً على ما كانوا عليه من الكفر. وتقدم نظير الآية فى أول سورة الأنبياء، وتحقيق معنى قوله تعالى (محدث) فتذكر.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ) «فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ» أى أحواله الباهرة وشؤونه القاهرة، وظهور أعلامه، وبقاء أيامه. وفيه وعيد لهم بحول الذل بهم، ونزول الصغار وقتئذ بدارهم.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ) «أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ» أى صنف مرضى كثير المنافع.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ)

« إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ » لصرفهم اختيارهم إلى جانب الكفر ، وعدم تدبرهم في هذه الآيات .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

« وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ » أى فهو القادر على الانتقام منهم بلا ممانع ، والرحيم بإمهاله وحلمه عنهم ، فلينتبهوا قبل أن يحل بهم ما حلّ بفرعون وقومه ، ولذا استأنف نبأ موسى عليه السلام معه ، بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

[١١] (قَوْمَ فِرْعَوْنَ ، أَلَا يَتَّقُونَ)

[١٢] (قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ)

[١٣] (وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ)

« وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ ، أَلَا يَتَّقُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي » أى فى أداء الرسالة ، فى بسطة من المقال « فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ » أى ليوازرنى ويشدّ به عضدى . والمفعول محذوف ، أى ملكا أو جبريل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (وَلَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ)

[١٥] (قَالَ كَلَّا فَإِذْهَبَا بِأَيَّتِنَا ، إِنَّآ مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ)

« وَلَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ » وهو قتل القبطى ، المبسوط فى غير هذه السورة « فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ * قَالَ كَلَّا » أى لا تخف إنك من الآمنين « فَأَذْهَبَا بِأَيَّتِنَا إِنَّمَا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ »
مزيد تسليية لهما ، بكال الحفظ والنصرة .

قال أبو السعود: مثل حاله تعالى بحال ذى شوكة قد حضر مجادلة قوم يستمع ما يجرى بينهم ،
ليمد أوليائه ، ويظهرهم على أعدائهم ، مبالغة فى الوعيد بالإعانة . انتهى .
ولو قيل هو كناية عن ذلك ، كان أولى . لجواز بقاء المعنى الحقيقى معها ، وهو هنا كذلك .
فهو تعالى مستمع لهما وحافظ وناصر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (فَأَتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[١٧] (أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ)

« فَأَتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ »
ليتحرروا من عبوديتك وعذابك المهيين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ مُمَرِّكِ سِنِينَ)

[١٩] (وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ)

« قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ مُمَرِّكِ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ »
يعنى قتل القبطى . « وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ » أى بنعمتى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (قَالَ فَعَلْتُمَهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ)

« قَالَ فَعَلْتُهُمَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ » أى الجاهلين بكون الوكزة مفضية إلى القتل .
أو الداهيين عن صواب الحليم والعفو والدفع بالأحسن .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ)

« فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ » أى تقتلونى على القتل الخطأ، فنجانى الله منكم، وزادنى إنعاماً « فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا » أى حكمة أو نبوة « وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ » أى لإبطال دعواك الربوبية، واستئصال شبهة ما عليه قومك من الوثنية. وطلب إرسال قومى إلى مواطنهم الأصلية ، وقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَءِيلَ)

« وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَءِيلَ » إبطال لمنته عليه فى التربية ، ببيان أنها فى الحقيقة نعمة . لأنه كان اتخذ بنى إسرائيل ؛ عبداً مسخرين فى شئونه ، مذللين لأمواره ، مقهورين لعسفه . وموسى عليه السلام ، وإن لم ينله من ذلك ماناهم ، إلا أنه لما كان منهم ، فكأنه وصل إليه ، وحلَّ به ، كما قيل (وظلم الجار إذ لال المجير) أى لا يبق إحسانك إلى رجل منهم بما أسأت إلى مجموعهم ، وما أنا إلا عضو منهم . وفى فخواها تقريره بالكبرياء المتناهية ، والقسوة البالغة ، والسلطة العالية التى من ورائها الفرج القريب ، والمخرج العجيب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ)

[٢٤] (قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ)

[٢٥] (قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ - أَلَا تَسْتَمِعُونَ)

« قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ - أَلَا تَسْتَمِعُونَ » أى لهذا النبأ العجيب ، وهو توحيد المعبود . وإنما عدمه جديراً بأن يتعجبوا منه ، لأنهم ، على ما حققه المؤرخون ، غلوا في عبادة الأصنام وتعميد الآلهة غلواً أربوا على كل من سواهم في الضلال . فكانوا يسجدون للشمس والقمر ، والنجوم ، والأشخاص البشرية ، والحيوانات ، حتى الهوام ، وأدنى حشرات الأرض .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ)

[٢٧] (قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ)

[٢٨] (قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ)

« قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ » أى لكونه يدعو إلى خلاف ما عقل عن الآباء .

« قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ » أى شيئاً ما ، أو إن كنتم من أهل العقل علمتم أن الأمر كما قلته . وفيه إيذان بغاية وضوح الأمر ، بحيث لا يشبهه على من له عقل في الجلّة ، وتلويح بأنهم بمعزل من دائرة العقل ، وإنهم المتصفون بما رموه عليه السلام به من الجنون .

تنبيه :

ذهب بعض المفسرين إلى أن فرعون كان من المعطلة ، لا يقر بخالق ، ولا يعترف بمعبود .

لظاهر قوله ^(١) (مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ آلِهٍ غَيْرِي) وأن قومه كانوا لا يؤلهون سواه .
قال ابن كثير : ومن زعم من أهل المنطق أن هذا سؤال عن الماهية فقد غلط . فإنه لم يكن مقراً بالصانع ، حتى يسأل عن الماهية ، بل كان جاحداً له بالسكينة فيما يظهر . انتهى .
وقد منا أنه حقق الاكتشاف الصحيح والتاريخ الوثيق ، أنه كان من الوثنيين الغالين .
وأن له ولقومه عدة معبودين علويين وسفليين .

وعليه فمعنى قوله (مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ آلِهٍ غَيْرِي) أى مطاع عظيم ، وكانوا لا يتحاشون من إطلاق الإله على الجبار المسيطر . فبقى سؤاله بما يحتمل أن يكون على نهج القاعدة المنطقية ، من طلب الاكتناه ، وتعجبه من جوابه ، ثم رمية بالجنون ، ثانياً ، لعدوله عن الكنه إلى الأثر . ويحتمل أن يكون لتعرفه من جهة وحدته فى ربوبيته التى ادعاها موسى ، وأن تعجبه لما شاهد من الجد فى الدعوة والثبات عليها ، والصدع بما يؤلم عظمتة ، ويفهم جبروته ؛ وهذا هو الذى أذهب إليه ، فإن القوم بمنزل عن أن يعجبوا لكون الجواب كان بالرسم لا بالحد ، إذ هو اصطلاح لفئة خاصة ، ومع هذا فالنظم يحتمله ولا ياباه . وقد عول عليه كثير من أهل النظر ، ولا بأس بأن نأثر شيئاً من لطائفهم فيه .

قال الرازى : السؤال بـ (ما) طلب لتعريف حقيقة الشيء . وتعريف حقيقة الشيء إما أن يكون بنفس تلك الحقيقة ، أو بشئ من أجزائها ، أو بأمر خارج عنها ، أو بما يتربى من الداخل والخارج . أما تعريفها بنفسها فمحال ؛ لأن المعرفة معلوم قبل المعرفة . فلو عرف الشيء بنفسه لزم أن يكون معلوماً قبل أن يكون معلوماً ، وهو محال . وأما تعريفها بالأمر الداخلى فيها ، فهنا فى حق واجب الوجود محال ، لأن التعريف بالأمر الداخلة ، لا يمكن إلا إذا كان المعرفة مركباً ، وواجب الوجود يستحيل أن يكون مركباً ؛ لأن كل مركب ، فهو محتاج إلى كل واحد من أجزائه . وكل واحد من أجزائه فهو غيره ؛ فكل مركب محتاج إلى غيره . وكل ما احتاج إلى غيره فهو ممكن لذاته . وكل مركب فهو ممكن ، فليس بممكن يستحيل أن

(١) [٢٨ / القصص / ٣٨] .

يكون مركباً . فواجب الوجود ليس بمركب ، وإذا لم يكن مركباً استحال تعريفه بأجزائه . ولما بطل هذان القسمان ، ثبت أنه لا يمكن تعريف ماهية واجب الوجود ، إلا بلوازمه وآثاره .

ثم إن اللوازم قد تكون خفية ، وقد تكون جلية . ولا يجوز تعريف الماهية باللوازم الخفية ، بل لابد من تعريفها باللوازم الجلية . وأظهر آثار ذات واجب الوجود ، هو هذا العالم المحسوس ، وهو السموات والأرض وما بينهما .

فقد ثبت أنه لا جواب البتة لقول فرعون (وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ) إلا ما قاله موسى عليه السلام ، وهو أنه رب السموات والأرض وما بينهما . فأما قوله (إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ) فعنايه إن كنتم موقنين باستناد هذه المحسوسات إلى موجود واجب الوجود ، فاعرفوا أنه لا يمكن تعريفه إلا بما ذكرته . لأنكم لما سلمتم انتهاء هذه المحسوسات إلى الواجب لذاته ، وثبت أن الواجب لذاته فرد مطلق ، وثبت أن الفرد المطلق لا يمكن تعريفه إلا بآثاره . وثبت أن تلك الآثار لابد وأن تكون أظهر آثاره وأبعدها عن الخفاء ، وما ذاك إلا السموات والأرض وما بينهما . فإن أيقنتم بذلك لزمكم أن تقطعوا بأنه لا جواب عن ذلك السؤال ، إلا هذا الجواب ولما ذكر موسى عليه السلام هذا الجواب الحق ، قال فرعون لمن حوله (أَلَا نَسْتَمْعُونَ) وإنما ذكر ذلك على سبيل التعجب من جواب موسى ، يعنى أنا أطلب منه الماهية ، وخصوصية الحقيقة ، وهو يجيبني بالفاعلية والمؤثرية .

وتمام الإشكال أن تعريف الماهية بلوازمها ، لا يفيد الوقوف على نفس تلك الماهية ، وذلك لأننا إذا قلنا في الشيء أنه الذى يلزمه اللازم الفلانى ، فهذا المذكور ، إما أن يكون معرّفاً لمجرد كونه أمراً ما يلزمه ذلك اللازم . أو لخصوصية تلك الماهية التى عرضت لها هذه اللزومية والأول محال . لأن كونه أمراً يلزمه ذلك اللازم جعلناه كاشفاً . فلو كان المكشوف هو هذا القدر لزم كون الشيء معرّفاً لنفسه ، وهو محال . والثانى محال ، لأن العلم بأنه أمر ما ، يلزمه اللازم الفلانى ، لا يفيد العلم بخصوصية تلك الماهية اللزومة ، لأنه لا يمتنع فى العقل اشتراك

الماهيات المختلفة في لوازم متساوية. فثبت أن التعريف بالوصف الخارجى ، لا يفيد معرفة نفس الحقيقة، فلم يكن كونه رباً للسموات والأرض وما بينهما جواباً عن قوله (وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ) فأجاب موسى عليه السلام بأن قال (رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ) وكأنه عدل عن التعريف بخالقية السماء والأرض ، إلى التعريف بكونه تعالى خالقاً لنا ولآبائنا . وذلك لأنه لا يمتنع أن يعتقد أحد أن السموات والأرضين واجبة لذواتها، فهي غنية عن الخالق والمؤثر. ولكن لا يمكن أن يعتقد العاقل في نفسه وأبيه وأجداده ، كونهم واجبين لذواتهم . لما أن المشاهدة دلت على أنهم وجدوا بعد العدم ، ثم عدموا بعد الوجود ، وما كان كذلك استحالة أن يكون واجباً لذاته . وما لم يكن واجباً لذاته ، استحالة وجوده إلا لمؤثر . فكان التعريف بهذا الأثر أظهر ، فلهذا عدل موسى عليه السلام من الكلام الأول ، إليه . فقال فرعون (إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ) يعنى المقصود من سؤال (ما) طلب الماهية ، وخصوصية الحقيقة . والتعريف بهذه الآثار الخارجية لا يفيد البتة تلك الخصوصية ، فهذا الذى يدعى الرسالة مجنون ، لا يفهم السؤال فضلاً عن أن يجيب عنه .

فقال موسى عليه السلام (رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ) فعدل إلى طريق ثالث أوضح من الثانى ، وذلك لأنه أراد بالمشرق طلوع الشمس وظهور النهار ، وأراد بالمغرب غروب الشمس وزوال النهار، والأمر ظاهر فى أن هذا التدبير المستمر على الوجه العجيب ، لا يتم إلا بتدبير مدبر ، وأما قوله (إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ) فكأنه عليه السلام قال : إن كنت من العقلاء ، عرفت أنه لا جواب عن سؤالك إلا ما ذكرت ، لأنك طلبت منى تعريف حقيقته بنفس حقيقته، وقد ثبت أنه لا يمكن تعريف حقيقته بنفس حقيقته ولا بأجزاء حقيقته. فلم يبق إلا أن أعرف حقيقته بآثار حقيقته . وأنا قد عرفت حقيقته بآثار حقيقته ، فقد ثبت أن كل من كان عاقلاً ، يقطع بأنه لا جواب عن هذا السؤال إلا ما ذكرته. ثم قال الرازى : وقد بينا فى سورة الأنعام فى تفسير قوله تعالى (١) : (وَهُوَ الْقَاهِرُ

فَوْقَ عِبَادِهِ) أن حقيقة الإله سبحانه من حيث هي ، هي غير معقولة للبشر . انتهى .
وقال الإمام ابن حزم في (المِلَل والنَحَل) في الكلام في المائئة : ذهب طوائف من المعتزلة إلى أن الله تعالى لا مائية له . وذهب أهل السنة وضرار بن عمرو ، إلى أن الله تعالى مائية . قال ضرار : لا يعلمها غيره . قال ابن حزم : والذي نقول به ، وبالله تعالى التوفيق ، أن له مائية هي إنيتة نفسها ، وإنه لا جواب لمن سأل : ما هو الباري ، إلا ما أجاب به موسى عليه السلام ؛ إذ سألته فرعون (وما رب العالمين) ؟ ونقول أنه لا جواب ههنا لا في علم الله تعالى ولا عندنا ، إلا ما أجاب به موسى عليه السلام . لأن الله تعالى حمد ذلك منه وصدق فيه . ولو لم يكن جواباً صحيحاً تاماً لانقص فيه ، لما حمده الله تعالى .

ثم قال : ههنا نقف ولا نعلم أكثر . ولا ههنا أيضاً شيء غير هذا ، إلا ما علمنا ربنا تعالى ، من سائر أسمائه ، كالعليم والقدير والمؤمن والمهيمن وسائر أسمائه .
قال تعالى ^(١) : (وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ) عِلْماً) إذ كل ما أحاط به العلم فهو متناه محدود وهذا منفي عن الله عز وجل ، وواجب في غيره ، لوقوع العدد المحاط به في أعراض كل مادونه تعالى ، ولا يحاط بما لا حدود له ولا عدد له . فصح يقيناً أننا نعلم الله عز وجل حقاً ، ولا نحيط به علماً . انتهى ملخصاً .

ولما سمع فرعون تلك المقالات المبنية على أساس الحكم البالغة ، وشاهد شدة حزم موسى عليه السلام وقوة عزمه على دعوته ، عدل عن خطة الإنصاف إلى الاعتساف ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (قَالَ لِنِي أُتَّخَذَتِ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَ لَكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ)

[٣٠] (قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ)

[٣١] (قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ)

(١) [٢٠ / طه / ١١٠] .

- [٣٢] (فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ)
 [٣٣] (وَنَزَعَ يَدَهُ وَفَازَ هِيَ بَيْضَاءَ لِلنَّظِيرِينَ)
 [٣٤] (قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ)
 [٣٥] (يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ)
 [٣٦] (قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ)
 [٣٧] (يَا تَوَكُّبُ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ)
 [٣٨] (فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ)
 [٣٩] (وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ)

« قَالَ لِمَنْ اتَّخَذَتْ إِلَهًا غَيْرِي لَا جَعَلَنكَ مِنَ الْمُسْجُونِينَ * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ * قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ وَفَازَ هِيَ بَيْضَاءَ لِلنَّظِيرِينَ * قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ » قَرَأَ بِهِمْ وَبَدُونَهُ ، وَهَذَا لِقَتَانِ . يُقَالُ أَرْجَاهُ وَأَرْجِيَّتُهُ إِذَا أَخْرَجَهُ . وَالْمَعْنَى آخِرُهَا وَمَنَظَرُهَا لَوْ قَامَ اجْتِمَاعُ السَّحَرَةِ « وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ » أَيْ شُرَطًا يَحْشُرُونَ السَّحَرَةَ ، أَيْ يَجْمَعُونَهُمْ عِنْدَكَ « يَا تَوَكُّبُ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ * فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ » أَيْ لَرُؤْيَا مَا يَعَارِضُ مُعْجَزَةَ مُوسَى . وَكَانَ خَامِرًا فَوَادَهُمْ عَجَبٌ مِنْهَا وَانْدَهِاشٌ . وَالِاسْتِفْهَامُ مَجَازٌ عَنِ الْحَثِّ وَالِاسْتَعْجَالِ .

القول في تأويل قوله تعالى :

- [٤٠] (لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ)
 [٤١] (فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّا لَنَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ)
 [٤٢] (قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ)
 [٤٣] (قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ)
 [٤٤] (فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ)
 [٤٥] (فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ)
 [٤٦] (فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجْدِينَ)

« لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ * فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّا لَنَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ * فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ * فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ » أى تبتلع ما موهوا به إفسكا وزورا « فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجْدِينَ » أى على وجوههم منقادين له بالإيمان ، لعلمهم بأن مثله لا يتأتى بالسحر . وفيه دليل على أن منتهى السحر تمويه وتزويق يخيل شيئا لاحقيقة له ، وأن التبخر في كل فن نافع وإن لم يكن من العلوم الشرعية ، فإن هؤلاء السحرة ، لتبخرهم في علم السحر ، علموا حقيقة ما أتى به موسى عليه السلام ، وأنه معجزة . فانتفعوا بزيادة علمهم لأنه أداهم إلى الاعتراف بالحق والإيمان ، لفرقهم بين المعجزة والسحر . قاله القاضي والشهاب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

[٤٨] (رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ)

[٤٩] (قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ وَ قَبْلَ أَنْ أَدْنَا لَكُمْ ، إِنَّهُ وَ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ، لَا قُطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ وَلَا صَلْبَيْكُمْ أَجْمَعِينَ)

[٥٠] (قَالُوا لَا ضَيْرَ ، إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ)

[٥١] (إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ)

« قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ * قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ وَ قَبْلَ أَنْ أَدْنَا لَكُمْ إِنَّهُ وَ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ » أى فعلكم شيئاً دون شئ ، ولذلك غلبكم . أو فواعدكم ذلك وتواطأتم عليه . أراد به التلبس على قومه ؛ كي لا يعتقدوا أنهم آمنوا على بصيرة وظهور حق .

« فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ، لَا قُطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ » أى جانبين متخالفين . « وَلَا صَلْبَيْكُمْ أَجْمَعِينَ * قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ » أى لا ضرر علينا فى ذلك ، بل لنا فيه أعظم النفع ، لأننا بفعلك هذا وصبرنا عليه ، شهادة على حقيقته ، إلى ثوابه ورحمته راجعون ، فننقلب خيراً منقلب ، شهداء سعداء « إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا » أى لأن « كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ » أى من أظهر الإيمان كفاحاً ، مجاهرة بالحق بلا تقيّة . ثم أشار تعالى إلى خروج موسى بقومه من مصر بإيجائه إليه . وكان إذن فرعون له بذلك بعد ما أراه الآيات البينات ثم ندم عليه ، فأتاه الإذن الإلهى به ، كما قال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٰ إِلَيْكُمْ مُّتَّبِعُونَ)

«وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٰ إِلَيْكُمْ مُّتَّبِعُونَ» أى سِرْ بِهِمْ لَيْلًا، فإنه إذا وصل خبر سيركم إلى فرعون، لابد أن يتبعكم بجنوده لإرجاعكم، إلا أنكم تتقدمونه ولا يدرى بكم.

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (فَأَرْسَلَٰ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ)

«فَأَرْسَلَٰ فِرْعَوْنُ» أى حين أخبر بسراهم «فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ» أى جامعين لمسكره، قائلين ما يقلل به الأعداء في أعين الجنود :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ)

[٥٥] (وَأِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ)

[٥٦] (وَأِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ)

[٥٧] (فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)

[٥٨] (وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ)

«إِنَّ هَٰؤُلَاءِ» أى بنى إسرائيل الخارجين «لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ» * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ «أى يفعلون أفعالاً تغيظنا وتضيق صدورنا من مخالفة أمرنا والخروج بغير إذن منا» * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ «أى من مكرهم وسعيهم بالفساد فى الأرض» * فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ «يعنى : المنازل الحسنة والمجالس البهية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ)

« كَذَلِكَ » إشارة إلى مصدر ، أى مثل ذلك الإخراج أخرجناهم ، فهو فى محل نصب صفة لمصدر مقدر ، أو هو خبر لمحذوف ، أى الأمر كذلك .

قال الشهاب : وإذا قدر (الأمر كذلك) فالمراد تقريره وتحقيقه ، والجملة معترضة حينئذ كالتي بعدها . « وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ » . قال الشهاب : هو استعارة ؛ أى ملكناها لهم تملك الإث بعد زمان . وكأن العاقبة ، لما كانت لهم ، صاروا كأنهم ملكوها من حين خروج أربابها منها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (فَاتَّبِعُوهُمْ مَشْرِيقِينَ)

« فَاتَّبِعُوهُمْ مَشْرِيقِينَ » أى لحقوهم وقت شروق الشمس .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦١] (فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَبُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ)

[٦٢] (قَالَ كَلَّا ، إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)

[٦٣] (فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ، فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ)

« فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ » أى تقاربا بحيث رأى كل واحد منهما الآخر « قَالَ أَصْحَبُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ » أى للمحقون « قَالَ كَلَّا » أى لن يدركوكم فإن الله وعدهم بالخلاص منهم « إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ » أى لطريق النجاة منهم . « فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ

أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَأَنْفَلَقَ «أى فضر به فانفلق» فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَأَطْوَدٍ عَظِيمٍ «
أى كل جزء متفرق منه كالجبل الكبير .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (وَأَزَلَفْنَا ثُمَّ الْآخِرِينَ)

[٦٥] (وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ وَأَجْمَعِينَ)

[٦٦] (ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ)

[٦٧] (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ)

[٦٨] (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

« وَأَزَلَفْنَا » أى قربنا « ثم » أى حيث انفلق البحر « الْآخِرِينَ » يعنى قوم فرعون ،
أى قدمناهم إلى البحر حتى دخلوا على أثر بنى إسرائيل « وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ وَأَجْمَعِينَ »
أى بحفظ البحر على تلك الهيئة إلى أن عبروا . « ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ » أى بإطباقه
عليهم « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً » أى لعبرة « وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ » أى مع مشاهدة
هذه الآية العظمى التى توجب تصديقه بعدها فى كل ما جاء به . منهم من بقى على كفره كبقية
القبط . ومنهم من عصاه واقترح عليه ما اقتراح كبعض بنى إسرائيل . وفيه تسلية للنبي
صلوات الله عليه . ووعد له ووعيد لمن عصاه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ)

[٧٠] (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ)

[٧١] (قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُ لَهَا عَكِفِينَ)

[٧٢] (قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ)

[٧٣] (أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ)

[٧٤] (قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ)

« وَأَنْتُمْ عَلَيْهِمْ » أى على مشركى العرب « نَبَأُ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ » أى ما الذى تدعونه وتلجئون إليه . وكان عليه السلام يعلم أنهم عبدة أصنام ، ولكنه سألهم ليريههم ، أن ما يعبدونه ليس من استحقاق العباداة فى شىء « قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُّ لَهَا عَافِيَةً » أى مقيمين على عبادتها لا نتخطاها إلى غيرها . « قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ » أى مثل عبادتنا يعبدون ، فقلدناهم .

قال أبو السعود: اعترفوا بأنها بمنزل مما ذكر من السمع والمنفعة والمضرة بالمرء . واضطروا إلى إظهار أن لا سند لهم سوى التقليد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ)

[٧٦] (أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ)

[٧٧] (فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ)

[٧٨] (الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ)

[٧٩] (وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ)

[٨٠] (وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ)

[٨١] (وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ)

« قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيَ »
 أى أفأبصرتم ، أو أتأملتم فعلتم ما كنتم تعبدونه أنتم وسلفكم . فإنهم بغضائى « الإِلهَ الْعَلَمِينَ » أى لكن رب العالمين ليس كذلك ، فإنه ولي فى الدنيا والآخرة ، لا أعبد غيره .
 ثم برهن على موجب قصر عبادته عليه تعالى بقوله « الَّذِى خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ » أى إلى كل ما يهمنى من أمور الدين والدنيا ، فإنه تعالى وحده يهدى كلأ لما خلق له .
 والموصول صفة (رب) وجعله مبتدأ وما بعده خبراً - غير حقيقى بجزالة التنزيل . قاله أبو السعود .

« وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ » أى يرزقنى بما سخر ويسر من الأسباب السماوية والأرضية ، فساق الزن ، وأنزل الماء وأحيى به الأرض وأخرج به من كل الثمرات رزقاً للعباد ، وأنزل الماء عذباً زلالاً يسقيه مما خلق أنعاماً وأناسى كثيراً .

« وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ » أى إذا وقعت فى مرض فإنه لا يقدر على شفاى أحد غيره بما قدره من الأسباب الموصلة إليه . وإنما نسب المرض إلى نفسه والشفاء إلى الله تعالى ، مع أنهما منه ، لمراعاة حسن الأدب معه تعالى . بتخصيصه بنسبة الشفاء الذى هو نعمة ظاهرة إليه تعالى كما قال الخضر ^(١) « فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا » وقال ^(٢) « فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا » وكقول الجن فى آية ^(٣) « أَشَرُّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا » ولأن كثيراً من أسباب المرض يحدث بتفريط من الإنسان فى مطاعمه ومشاربه وغير ذلك . ومن ثم قالت الحكماء : لو قيل لأكثر الموتى : ما سبب آجالكم ؟ لقالوا : التخم .

« وَالَّذِى يُمَيِّتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ » فإنه هو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ، لا يقدر على ذلك أحد سواه . فإن قيل إن الموت قد يكون بتفريط الإنسان ، وقد أضافه تعالى إلى نفسه ، فما الفرق بين نسبة الموت ونسبة المرض فى مقتضى الأدب ؟ أجيب كما فى (الانتصاف) : بأن الموت

[١٨ / الكهف / ٧٩] . (٢) [١٨ / الكهف / ٨٢] . (٣) [٧٢ / الجن / ١٠] .

قد علم به بأنه قضاء محتوم من الله تعالى على سائر البشر ، وحكم عام لا يخص ، ولا كذلك المرض فكلم من معافى منه قد بغته الموت ؛ فالتأبى بعموم الموت لعله يسقط أثر كونه بلاء ، فيسوغ في الأدب نسبته إلى الله تعالى . وأما المرض ، فلما كان مما يخص به بعض البشر دون بعض ، كان بلاء محققاً . فاقترضى العلو في الأدب مع الله تعالى ، أن ينسبه الإنسان إلى نفسه ، باعتبار ذلك السبب الذي لا يخلو منه . ويؤيد ذلك أن كل ما ذكره مع المرض ، أخبر عن وقوعه بتأً وجزماً ، لأنه أمر لا بد منه . وأما المرض ، فلما كان قد يتفق وقد لا ، أوردته مقروناً بشرط إذا فقال (وَإِذَا مَرِضْتُ) وكان ممكناً أن يقول والذي يمرضني فيشفييني ، كما في غيره . فما عدل عن المطابقة المجانسة الماثورة ، إلا لذلك . انتهى .

قال أبو السعود : وأما الإمامة ، خيث كانت من معظم خصائصه تعالى كالإحياء ، بدءاً وإعادة ، وقد نيّطت أمور الآخرة جميعاً بها وبما بعدها من البعث نظمهما في سمط واحد في قوله تعالى (وَالَّذِي يُمَيِّنُنِي ثُمَّ يُحْيِيَنِي) على أن الموت ، لكونه ذريعة إلى نيله عليه الصلاة والسلام للحياة الأبدية ، بمعزل من أن يكون غير مطموع عنده عليه الصلاة والسلام .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ)

« وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ » أي الجزاء . وخطيئته ما كان يراها هو صلوات الله عليه ويعدّها بالنسبة لمقامه الكريم .

قال أبو السعود : ذكره عليه الصلاة والسلام هضماً لنفسه وتعلماً للأمة أن يجتنبوا المعاصي ويكونوا على حذر وطلب مغفرة لما يفرط منهم وتلافياً لما عسى ينذر منه عليه السلام من الصغار ، وتنبيهاً لأبيه ووقومه على أن يتأملوا في أمرهم فيقفوا على أنهم من سوء الحال في درجة لا يقادر قدرها ، فإن حاله عليه السلام ، مع كونه في طاعة الله تعالى وعبادته ، في الغاية القاصية ، حيث كانت بتلك المثابة . فما ظنك بحال أولئك الغمورين في الكفر ، وفنون المعاصي والخطايا ؟

وتعليق مغفرة الخطيئة بيوم الدين، مع أنها إنما تغفر في الدنيا، لأن أثرها يومئذ يتبين ، ولأن في ذلك تهويلاً له وإشارة إلى وقوع الجزاء فيه ، إن لم تغفر . وبعد أن ذكر عنايته تعالى به من مبدأ خلقه إلى بعثه ، حمّله ذلك على مناجاته ، فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ)

[٨٤] (وَأَجْعَلْ لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ)

« رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا » أى حكمة ، أو حكماً بين الناس بالحق ، أو نبوة ، لأن النبيّ ذو حكم وحكمة . « وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ » أى وفقني لأنتظم في سلوكهم ، لأكون من الذين جعلتهم سبباً لصلاح العالم وكل الخلق . « وَأَجْعَلْ لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ » أى ذكراً جليلاً بعدى ، أذكر به ويقتدى بي في الخير كما قال تعالى ^(١) : (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ . كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) .

قال القتيبيّ : وضع اللسان موضع القول على الاستعارة ، لأن القول يكون به ، وقد تسكنى العرب به عن الكلمة . وعليها حمل قول الأعشى ^(٢) :

إِنِّي أَتَتَّنِي لِسَانٌ لَا أُسَرُّ بِهَا مِنْ عُلُوٍّ ، لَا عَجَبٌ مِنْهَا وَلَا سَخَرُ

وجوز أن يكون المعنى : واجعل لي صادقاً من ذريتي ، يحدّد أصل ديني ويدعو الناس إلى ما كنت أدعوهم إليه من التوحيد . وهو النبيّ ﷺ . ولذا قال صلى الله عليه وسلم ^(٣) (أنا دعوة

(١) [٣٧ / الصفات / ١٠٨ - ١١٠] .

(٢) هو أعشى باهلة . والبيت مطلع قصيدته ، يرثي بها أخاه لأمه ، المنتشر .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ١٢٧ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي)

عن العرياض بن سارية ، بهذا النص : قال رسول الله ﷺ : إني عبد الله لخاتم النبيين ، وإن آدم عليه السلام لمنجدل في طينته ، وسأنبئكم بأول ذلك . دعوة أبي إبراهيم ، وبشارة عيسى بي ورؤيا أمي التي رأت ، وكذلك أمهات النبيين يرين .

أبي إبراهيم) ، فالسلام بتقدير مضاف . أى صاحب لسان صدق . أو مجاز بإطلاق الجزء على الكل ، لأن الدعوة باللسان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ)

[٨٦] (وَأُغْفِرْ لِي يَا إِلَهِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ)

« وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ * وَأُغْفِرْ لِي يَا إِلَهِي » أى بهدايته وتوفيقه للإيمان . كما

يلوح به تعليله بقوله « إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ » أى طريق الحق .

قال الحافظ ابن كثير . قوله (وَأُغْفِرْ لِي يَا إِلَهِي) الخ .. كقوله^(١) : (رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ)

وهذا مما رجع عنه إبراهيم عليه السلام كما قال تعالى^(٢) (وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ

إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ) إلى قوله (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ) وقد قطع تعالى الإلحاق

فى استغفاره لأبيه ، فقال تعالى^(٣) (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ

مَعَهُ) إلى قوله (وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ)

[٨٨] (يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ)

[٨٩] (إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

« وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ » أى لا تلحق بى ذلًا وهوانًا يومئذ « يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ

وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » أى لا يبق المرء من عذاب الله ماله ، ولو افتدى

بملاء الأرض ذهبًا . ولا بنوه ، وإن كانوا غاية فى القوة . فإن الأمر ثمة ليس كما يعمدون

(١) [١٤ / إبراهيم / ٤١] . (٢) [٩ / التوبة / ١١٤] . (٣) [المتحنة / ٥] .

في الدنيا ، بل لا ينفع إلا الموافقة بقلب سليم من مرض الكفر والنفاق والحصل المذمومة والملكات المشؤمة .

قال الزمخشري :

وما أحسن ما رتب إبراهيم عليه السلام كلامه مع المشركين حين سألهم أولاً عما يعبدون سؤال مقرر لا مستفهم . ثم أحى على آلتهم فأبطل أمرها بأنها لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع . وعلى تقليد آباءهم الأقدمين ، فكسره وأخرجه من أن يكون شبهة ، فضلاً أن يكون حجة . ثم صور المسألة في نفسه ^(١) دونهم حتى تخلص منها إلى ذكر الله عز وعلا ، فمعظم شأنه وعدد نعمته من لدن خلقه وإنشائه ، إلى حين وفاته ، مع ما يرجى في الآخرة من رحمته . ثم أتبع ذلك أن دعاه بدعوات المخلصين ، وابتهل إليه ابتهاج الأولياء . ثم وصله بذكر يوم القيامة ، وثواب الله وعقابه ، وما يدفع إليه المشركون يومئذ من الندم والحسرة على ما كانوا فيه من الضلال ، وتمنى الكفرة إلى الدنيا ليؤمنوا ويطيعوا .

ثم بين سبحانه أن الجنة تكون قريبة من موقف السعداء ، ينظرون إليها ويعتبطون

(١) أى بقوله (فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي) على معنى أنى فكرت فى أمرى فرأيت عبادتى لهعبادة للعدو وهو الشيطان . فاجتنبتها وآثرت عبادة من الخير كله فى يده . وأراهم بذلك أنها نصيحة ينصح بها نفسه لينظروا فيقولوا : ما نصحننا إبراهيم إلا بما نصح به نفسه . فيكون ذلك أدعى لهم إلى القبول لقوله . وأبعث على الاستماع منه . ولو قال (فإنهم عدو لكم) لم يكن بتلك المثابة ، فتخلص عند تصويره المسألة فى نفسه إلى ذكر الله تعالى ، وبهذه الآيات الكريمة وأمثالها رد على أبى العلاء محمد بن غانم المعروف بالغانمى فى زعمه أن القرآن خال من التخلص ، وهو زعم فاسد . لأن حقيقة التخلص إنما هى الخروج من كلام إلى كلام آخر غيره ، بلطفية تلائم بين الكلام الذى أخرج منه والكلام الذى خرج إليه . وفى القرآن مواضع كثيرة من ذلك ، كما بسطه ابن الأثير فى (المثل السائر) فراجع . اهـ مؤلفه .

بأنهم المحشورون إليها . والنار تكون بارزة مشكوفة للأشقياء بمرأى منهم ، يتحسرون على أنهم المسوقون إليها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ)

[٩١] (وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ)

[٩٢] (وَقِيلَ لَهُمْ أَئِنَّ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ)

[٩٣] (مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ)

[٩٤] (فَكُفُّوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ)

« وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ » أى الضالين عن طريق الحق الذى هو الإيمان والتقوى . وإيثار صيغة الماضى للدلالة على تحقق الوقوع وتقرره . « وَقِيلَ لَهُمْ » توبيخاً على شركهم « أَئِنَّ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ » أى يدفعون العذاب عنكم ، أو يدفعونه عن أنفسهم ، لأنهم وآلهتهم وقود النار . وهو قوله تعالى « فَكُفُّوا فِيهَا هُمْ » أى الآلهة « وَالْغَاوُونَ » أى وعبدتهم الذين برزت لهم الجحيم .

قال الزمخشري : والكبكية تكرير الكب - وهو الإلقاء على الوجه - جعل التكرير فى اللفظ دليلاً على التكرير فى المعنى ، كأنه إذا ألقى فى جهنم ينكب مرة بعد مرة حتى يستقر فى قعرها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (وَجُنُودُ إبْلِيسَ أَجْمَعُونَ)

[٩٦] (قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ)

[٩٧] (تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

[٩٨] (إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

« وَجُنُودُ إبْلِيسَ » أى متبعوه من العصاة « أَجْمَعُونَ * قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ * تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ » أى فى العبادۃ، مع أنكم أعجز مخلوقاته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٩] (وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ)

« وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ » أى رؤسائهم، كما فى آية ^(١) (رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا)

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] (فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ)

[١٠١] (وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ)

« فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ » أى من الذين كنا نعدهم شفعاء وأصدقاء . لأنهم كانوا يعتقدون فى أصنامهم أنهم شفعاؤهم عند الله . وكان لهم الأصدقاء من شياطين الإنس . فما أغنوا عنهم شيئاً . كما قال تعالى ^(٢) (الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ) قال الزخشرى : و (الحميم) من الاحتمام وهو الاهتمام، وهو الذى يهتم به ما يهتمك . أو من (الحامة) بمعنى الخاصة . وهو الصديق الخاص . وفيه معنى الحدة والسخونة . كأنه يحتد

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٦٧] . (٢) [٤٣ / الزخرف / ٦٧] .

ويحمي ، لحماية خليله ورعايته ، والقيام بمهامه . وهذا هو الذى قيل (إنه أعز من بيض الأنوق) وإنه اسم بلا مسمى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] (فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

[١٠٣] (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ)

[١٠٤] (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

« فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً » أى رجعة إلى رجعة إلى الدنيا « فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * » إِنَّ فِي ذَلِكَ » أى فيما ذكر من نبأ إبراهيم « لَآيَةً » أى لحجة وعظة أراد أن يستبصر بها ويعتبر . وتقدم ماقاله الزخشرى فى بديع سياقها « وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ » أى أكثر قوم إبراهيم « مُؤْمِنِينَ * » وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ » أى بإزالة الكتب وإرسال الرسل ، لدعوة خلقه إلى ما فيه صلاحهم وفلاحهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] (كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ)

[١٠٦] (إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ)

[١٠٧] (إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)

[١٠٨] (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا)

[١٠٩] (وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[١١٠] (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا)

[١١١] (قَالُوا أَنْتُمْ مِنْ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذُلُونَ)

« كَذَبْتَ قَوْمُ نُوحٍ الْأُمُوسِلِينَ » لأن تكذيب واحد كتكذيب الكل ، لاتفاقهم في أصول الشرائع . وهو نفي الشريك وإثبات الباري وتوحيده . أو لأن المراد بالجمع الواحد « إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا قَالُوا أَنْتُمْ مِنْ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذُلُونَ » يعنون من كان وضع النسب قليل النصيب من الدنيا . فإن الشرف لديهم بالمال والنسب . والحسب والنسب ، لا بالأخلاق الفاضلة . والملكات السكاملة . التي تحمل على تعرف الحق والتوجه إليه . ثم اعتناقه والمحافظة عليه . وأكثر ما تكون الأخلاق في مثل المستضعفين . إذا قام عليهم ناصح أمين . إذ لا مال يطفئهم . ولا جاء يلهمهم . وذلك من العناية الربانية فيهم .

قال الزمخشري : وهكذا كانت قريش تقول في أصحاب رسول الله ﷺ . وما زالت أتباع الأنبياء كذلك ، حتى صارت من سماتهم وأماراتهم . ألا ترى إلى هرقل حين سأل أباسفيان عن أتباع رسول الله ﷺ فلما قال (ضعفاء الناس) قال (ما زالت أتباع الأنبياء كذلك) وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٢] (قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » جواب عما أشير إليه من قولهم إنهم لم يؤمنوا عن نظر وبصيرة . أي وما على إلا الظاهر والله يتولى السرائر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٣] (إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ)

[١١٤] (وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ)

[١١٥] (إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ)

[١١٦] (قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ)

[١١٧] (قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ)

[١١٨] (فَأَفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

« إِن حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي » أى محاسبهم على أعمالهم ، إلا على ربى المطلع على ضمائرهم
 « لَوْ تَشْعُرُونَ * وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ * إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * » قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ
 يَنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ « أى المشتمين أو المرميين بالحجارة » قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي
 كَذَّبُونِ * فَأَفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا » أى احكم بيننا بما يستحقه كل واحد منا .

قال الزمخشري : الفتاحة : الحكومة . والفتاح : الحاكم . لأنه يفتح المستغلق . كماسمى
 فيصلاً لأنه يفصل بين الخصومات . وفى (التهذيب) : الفتح أن تحكم بين قوم يختصمون
 إليك . قال الأشعر الجعفي (١) .

أَلَا مَنْ مُّبْلَغٌ عَمْرًا رَسُولًا فَإِنِّي عَنْ فُتَاخَتِكُمْ غَنِيٌّ
 « وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٩] (فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ)

[١٢٠] (ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ)

[١٢١] (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ)

(١) استشهد به فى اللسان بالصفحة رقم ٥٣٨ من المجلد الثانى (طبعة بيروت)

[١٢٢] (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

[١٢٣] (كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ)

[١٢٤] (إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ)

[١٢٥] (إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)

[١٢٦] (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا)

[١٢٧] (وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[١٢٨] (أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ)

« فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ وَفِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ * إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ »

أى فيما فعلنا بهم لعبرة وعظة لمن بعدهم « وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * كَذَّبَتْ عَادٌ » وهم قوم هود عليه السلام « الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ » أى مكان مرتفع ، بكسر الراء وفتحها « آيَةً » أى علامة « تَعْبَثُونَ » أى يبنائها لا للحاجة إليها . بل لمجرد اللعب واللهو وإظهار القوة . ولهذا أنكر عليهم ذلك . لأنه تضييع للزمان ، وإتعاث للأبدان فى غير فائدة . واشتغال بما هم فى غنى عنه . وبما فى الشغف به انصراف عن الجد فى العمل ، وصرف الأموال فى غير ما خلقت له ، من النظر للنفس والأهل والدين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٩] (وَتَتَخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ)

« وَتَتَخِذُونَ مَصَانِعَ » أى منازل وقصورا « لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ » أى راجين الخلود

فى الدنيا إشارة إلى أن عملهم ذلك، لقصر نظرهم على الدنيا والإعجاب بالآثار، والتباهى بالمشيدات والغفلة عن أعمال المجدِّين البصيرين بالعواقب ، الصالحين المصلحين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٠] (وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ)

«وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ» أى تأخذون بالعنف والشدة ، كبرا وعتوًّا . يقال (بطش به) أى أخذه بالعنف والسطوة ، وتناوله بشدة عند الصولة ، يصفهم عليه السلام بالقسوة وعدم الرحمة والشفقة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣١] (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا)

[١٣٢] (وَأَتَّقُوا الَّذِى أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ)

[١٣٣] (أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَمٍ وَبَنِينَ)

[١٣٤] (وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)

«فَاتَّقُوا اللَّهَ» أى فيما أمركم به من التوبة والإيمان «وَأَطِيعُوا * وَأَتَّقُوا الَّذِى أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَمٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ» أى فاشكروا نعماءه ، وارعدوا بتقواه آلاءه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٥] (إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

«إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ» أى إن لم تقوموا بواجب شكرها «عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ» أى فى الدنيا والآخرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٦] (قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ)

« قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ » أى : فإننا لن نزعوى عما نحن عليه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٧] (إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ)

« إِنْ هَذَا » أى ما هذا الذى نحن عليه « إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ » أى عادتهم . كانوا يدينون به ويعتقدونه . فنحن بهم مقتدون . أو ما هذا الذى جئنا به لإعادة الأولين . كانوا يلقفون مثله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٨] (وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ)

[١٣٩] (فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ

مُؤْمِنِينَ)

[١٤٠] (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

[١٤١] (كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ)

[١٤٢] (إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ)

[١٤٣] (إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)

[١٤٤] (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا)

[١٤٥] (وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ)
[١٤٦] (أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ)

« وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ » أى على مانحن عليه من الأعمال « فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكَنَّهُمْ »
أى بريح صرصر « إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ
الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ *
إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ
أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ » أى من الموت والزوال
والعذاب .

قال الزمخشري: يجوز أن يكون إنكاراً لأن يتركوا يخلدون في نعيمهم لا يزولون عنه. وأن
يكون تذكيراً بالنعمة في تخلية الله إياهم وما يتنعمون فيه من الجنات وغير ذلك ، مع الأمن
والدعة. وقوله تعالى (فِي مَا هَاهُنَا) أى فى الذى استقر فى هذا المكان من النعيم . ثم فسره
بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٧] (فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)
[١٤٨] (وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ)
[١٤٩] (وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ)
[١٥٠] (فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا)
[١٥١] (وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ)
[١٥٢] (الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ)

[١٥٣] (قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ)

« فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ » أى لطيف لين « وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَزَاهِيْنَ » أى بطرين . وقرئ (فرهين) وهو أبلغ . وقيل : فاره من (فره) بالضم ، بمعنى حندق . وفرة صفة من (فره) كفرح ، بمعنى أشرب واطر . « فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ * قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ » أى الذين سُحِرُوا حتى غلب على عقولهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٤] (مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بَآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

[١٥٥] (قَالَ هَذِهِ نَافَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ)

[١٥٦] (وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

[١٥٧] (فَمَقَرُّوْهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ)

[١٥٨] (فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ)

[١٥٩] (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

[١٦٠] (كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ)

[١٦١] (إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ)

[١٦٢] (إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)

[١٦٣] (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا)

[١٦٤] (وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[١٦٥] (أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ)

[١٦٦] (وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ ، بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ)

« مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بَيِّنَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ » قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ لَهَا شَرْبٌ « أَى نصيب من الماء » وَلَكُمْ شَرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ « أَى فاقتموهوا بشربكم ولا تراحموها على شربها » وَلَا تَمْسُوهَا بِسَوْءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ « أَى لعظم ما تسيئون . قال الزمخشري : عظم اليوم لحوال العذاب فيه ، ووصف اليوم به أبلغ من وصف العذاب . لأن الوقت إذا عظم بسببه ، كان موقعه من العظم أشد » فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَدِمِينَ * فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ « أَى الموعود ، وهو أن أرضهم زلزلت زلزلاً شديداً ، وجاءتهم صيحة عظيمة » إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ « أَى مجاوزون حد الحكمة في ترك محل الحرث ، الحافظ للنسل ، الذى به حفظ النوع البشرى ، وإيثار ما لم يخلق لذلك ، شرهاً في الشهوة الحيوانية ، ومكافحة لتغيير الأوضاع الربانية .

ونقل السيوطى فى (الإكليل) عن محمد بن كعب القرظى ، أن معنى الآية : تذرون مثله من المباح . فاستدل بذلك على إباحة وطء الزوجة فى دبرها . انتهى .

وخالفه غيره . فاستدل بها على حظره . وبيانه كما فى (الكشف) و (حواشيه) أن (من) إمّا تبين لما خلق ، أو للتبعيض . ويراد به العضو المباح منهم ، تعريضاً بأنهم كانوا يفعلون ذلك بنسائهم . ومن الوجه الثانى يستدل على حظر إتيان المرأة فى غير المأتى . وتقريره فى (الانتصاف) أن (من) لو كانت بياناً لكان المعنى حينئذ على ذمهم بترك الأزواج . ولا شك أن ترك الأزواج

مضموم إلى إتيان الذكران. وحينئذ يكون المنكر عليهم الجمع بين ترك الأزواج وإتيان الذكران، لا أن ترك الأزواج وحده منكر. ولو كان الأمر كذلك، لكان النصب في الثاني متوجهاً على الجمع. وكان إما الأفصح أو المتعين. وقد اجتمعت العامة - عامة القراء - على القراءة به مرفوعاً ولا يتفقون على ترك الأفصح إلى ما لا مدخل له في الفصاحة، أو في الجواز أصلاً. فلما وضع ذلك تبين أن هذا المعنى غير مراد. فتعين حمل (من) على البعضية. فيكون المنكر عليهم أمرين. كل واحد منهما مستقل بالإنكار: أحدهما إتيان الذكران. والثاني مجانبه إتيان النساء في المآثي، رغبة في إتيانهن في غيره. وحينئذ يتوجه الرفع لفوات الجمع اللازم على الوجه الأول، واستقلال كل واحد من هاتين العظيمتين بالنكير. انتهى.

ومثله من دقيق الاستنباط الذي يوسع المدارك ويفتح للفتهم أبواباً، وإن أمكن أن يقال إن سياق الآية في الملام لهم، أعم مما ذكره ومن غيره. والله أعلم.

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٧] (قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ)

« قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَلُوطُ » أى عن تقبيح أمرنا « لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ » أى من قريتنا عنفاً، إذ لا تجانسنا.

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٨] (قَالَ إِنِّي لَعَمَلِكُم مِّنَ الْفَالِينَ)

[١٦٩] (رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ)

« قَالَ إِنِّي لَعَمَلِكُم مِّنَ الْفَالِينَ » أى المبعضين غاية البغض. أى فأنا أُرغب في الخروج عن دياركم، والراحة من مجاورتكم، لبغضى لعملكم، الآيل بكم إلى الدمار وخراب الديار. ولذا أتبعه بقوله « رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ » أى من شؤمه وغائلته.

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧٠] (فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ وَأَجْمَعِينَ)

[١٧١] (إِلَّا مَجْجُوزًا فِي الْغَيْرِينَ)

[١٧٢] (ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ)

« فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ وَأَجْمَعِينَ * إِلَّا مَجْجُوزًا » وهي امرأته . كما بينت في آيات « فِي الْغَيْرِينَ » أى مقدرًا كونها من الباقيين في العذاب . لأنها كانت راضية بعمل قومها .

لطيفة :

قال الناصر في (الانتصاف) : كثيراً ماورد في القرآن، خصوصاً في هذه السورة ، العدول عن التعبير بالفعل إلى التعبير بالصفة المشتقة . ثم جعل الموصوف بها واحداً من جمع . كقول فرعون ^(١) (لَأَجْعَلََنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ) وقولهم ^(٢) (سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ) وقولهم ^(٣) (لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ) وقوله ^(٤) (إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَائِلِينَ) وقوله تعالى ^(٥) في غيرها (رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ) وكذلك ^(٦) (ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ) وأمثاله كثيرة . والسر في ذلك ، والله أعلم ، أن التعبير بالفعل ، إنما يفهم وقوعه خاصة . وأما التعبير بالصفة ، ثم جعل الموصوف بها واحداً من جمع ، فإنه يفهم أمراً زائداً على وقوعه . وهو أن الصفة المذكورة ، كالسمة للموصوف ثابتة العلق به . كأنها لقب . وكأنه من طائفة صارت كالنوع المخصوص المشهور ببعض السمات الرديئة . واعتبر ذلك لو قلت (رضوا بأن يتخلفوا) لما كان في ذلك مزيد على الإخبار بوقوع التخلف منهم لا غير .

(١) [٢٦ / الشعراء / ٢٩] . (٢) [٢٦ / الشعراء / ١٣٦] .

(٣) [٢٦ / الشعراء / ١١٦] . (٤) [٢٦ / الشعراء / ١٦٨] .

(٥) [٩ / التوبة / ٨٧] . (٦) [٩ / التوبة / ٨٦] .

وانظر إلى المساق وهو قوله (رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ) كيف ألحقهم لقباً رديئاً ، وصيرهم من نوع رذل مشهور بسمة التخلف ، حتى صارت له لقباً لاحقاً به . وهذا الجواب عام في جميع ما يرد عليك من أمثال ذلك . فتأمله واقدره قدره « ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ » أى أهلكناهم أشد إهلاك وأفظمه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧٣] (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ، فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ)

[١٧٤] (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ)

[١٧٥] (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

[١٧٦] (كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ)

« وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا » أى عظيم غير معهود ، هلكوا به « فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ » *
 إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ *
 كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ « وهم أهل مدين . ووهم من زعم أنهما أمتان أرسل إليهما شعيب عليه السلام : فإنهم أمة واحدة كانوا يقطنون (مدين) أضيفوا إليها تارة وأخرى إلى ما حوتها من الأيكة ، وهى الأشجار الكثيرة الملتفة المجتمعة فى مكان واحد . قال الحافظ ابن كثير : والصحيح أنهم أمة واحدة . وصفوا فى كل مقام بشىء . ولهذا وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء المسكيال والميزان ، كما فى قصة مدين سواء بسواء . فدل ذلك على أنهما أمة واحدة .

تنبيه :

قال أبو عمرو : وكتب فى جميع المصاحف (لَيْكَةِ) فى الشعراء و (ص) ، بلام من غير ألف قبلها . وفى الحجر وق (الأيكة) ولذا قرأ نافع وابن كثير وابن عامر بلام مفتوحة ، من غير همز قبلها ولا بعدها . ونصب التاء غير منصرف . والباقيون (الأيكة) بإسكان اللام وهمز

وصل قبله ، وهمزة قطع مفتوحة بعده ، وجر التاء . وهمزة وصلًا ووقفًا على أصله . وقراءة الأولين استشكلها أبو علي الفارسي وغيره ، بأنه لا وجه للفتح . لأن نقل حركة الهمزة لا يقتضي تغيير الإعراب من الكسر إلى الفتح . أى فإن العرب تقول فى الأجر (الجر والجر) وإثبات الألف واللام فى (الأية) فى سائر القرآن يدل - كما قال الزجاج - على أن حذف الهمزة منها التى هى ألف الوصل ، بمنزلة قولهم (الجر) وقرئ (ليكة) بالجر على الإضافة فى غير السبع . لكن قال الزمخشري : هو الوجه . ومن قرأ بالنصب ، وزعم أن ليكة ، بوزن ليلة ، اسم بلد ، فتوهم قاد إليه خط المصحف حيث وجدت مكتوبة فى هذه السورة وفى سورة (ص) بغير ألف . وفى المصحف أشياء كتبت على خلاف قياس الخط المصطلح عليه . وإنما كتبت فى هاتين السورتين على حكم لفظ الالفاظ . كما يكتب أصحاب النحو - لأن ولوى - على هذه الصورة ، لبيان لفظ المخفف . وقد كتبت فى سائر القرآن على الأصل . والقصة واحدة . على أن (ليكة) اسم لا يعرف . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٧] (إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ)

[١٧٨] (إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)

[١٧٩] (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا)

[١٨٠] (وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ، إِنِّى أَجْرِى إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[١٨١] (أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ)

«إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا
وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنِّى أَجْرِى إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَوْفُوا الْكَيْلَ» أى
أتموه «وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ» أى حقوق الناس بإعطائهم ناقصاً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨٢] (وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ)

[١٨٣] (وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)

« وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ » أى بالميزان السوى « وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ »

أى لا تنقصوهم حقوقهم . قال الزمخشري : وهو عام في كل حق ثبت لأحد ، أن لا يهضم . وفى كل ملك أن لا يغصب عليه ماله ، ولا يتحيف منه ، ولا يتصرف فيه ، إلا بإذنه تصرفاً شرعياً . « وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ » أى بالقتل والغارة وقطع الطريق والجور والظلم وأكل أموال الناس بالباطل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨٤] (وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّ الْأُولِينَ)

[١٨٥] (قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ)

[١٨٦] (وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ)

« وَاتَّقُوا » الله « الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّ الْأُولِينَ » أى : وذوى الجبلّة الأولين ،

وهم من تقدمهم من الخلائق « قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ » أى فيما تدّعيه من النبوة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨٧] (فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

[١٨٨] (قَالَ رَبِّیْ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ)

« فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ » قطعاً منها . قرئ (كِسْفًا) بسكون السين

وتحريكها . وكلاهما جمع (كسفة) « إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ رَبِّىْ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ » أى من الكفر والمعاصى ، وبما تستوجبون عليها من العذاب ، بإسقاط كسف أو غيره مما يشاؤه إذا جاء أجلكم ، فإليه الحكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٩] (فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظَّلَّةِ ، إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)
« فَكَذَّبُوهُ » أى فاستمروا على تكذيبه ولم يتوبوا « فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظَّلَّةِ »
إِنَّهُ وَكَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ » أى لخلول العقاب فيهم ، من جنس ما سألوه من إسقاط السماء قطعاً عليهم . فقد أظلمت سحابة أطبقت عليهم ، وأظلمت الجوف فوقهم ، وغشيم العذاب وأحاط بهم . و (الظلة) بالضم لغة ، الغاشية ، وما أظبق وستر من فوق .

قال الحافظ ابن كثير : ذكر تعالى صفة إهلاكهم فى ثلاثة مواطن . كل موطن بصفة تناسب ذلك السياق . فى (الأعراف) ذكر أنهم ^(١) (فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ) وذلك لأنهم قالوا ^(٢) (لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعْمَدُنَّ فِي مِلَّتِنَا) فأرجفوا نبي الله ومن اتبعه (فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ) وفى سورة هود قال ^(٣) (وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ) ذلك لأنهم استهزؤوا بنبي الله فى قولهم ^(٤) (أَصَلَاؤُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَكِيمُ الرَّشِيدُ) قالوا ذلك على سبيل التمسك والازدراء . فناسب أن تأتيهم صيحة تسكتهم فقال (وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ) وههنا قالوا (فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ) الآية ، على وجه التعنت والعناد . فناسب أن يحقق عليهم ما استبعدوا وقوعه (فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظَّلَّةِ) . انتهى

(١) [٧ / الأعراف / ٩١] . (٢) [٧ / الأعراف / ٨٨] .

(٣) [١١ / هود / ٩٤] . (٤) [١١ / هود / ٨٧] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩٠] (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ)

[١٩١] (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

«إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً» أى على أخذه العصاة بمقتضى أعمالهم «وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ» وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ «أى الغالب على تعذيب من شاء بما شاء ، الرحيم ، بإرسال الرسل وإنزال الكتب ، لئلا يكون للناس على الله حجة .

قال الزمخشريّ : فإن قلت : كيف كرر في هذه السورة ، في أول كل قصة وآخرها ، ما كرر؟ قلت : كل قصة منها كتزليل برأسه . وفيها من الاعتبار مثل ما في غيرها . فكانت كل واحدة منها تدلى بحق في أن تفتتح بما افتتحت به صاحبها ، وأن تختتم بما اختتمت به . ولأن في التكرير تقريراً للمعاني في الأنفس ، وتثبيتاً لها في الصدور . ألا ترى أنه لا طريق إلى تحفظ العلوم إلا ترديد ما يراد تحفظه منها ؟ وكلما زاد ترديده كان أمكن له في القلب ، وأرسخ في الفهم ، وأثبت للذكر ، وأبعد من النسيان . ولأن هذه القصص ارتقت بها أذان وُقِرُّ عن الإنصات للحق ، وقلوب غُفِّ عن تدبره ، فكوثر بالوعظ والتذكير ، وروجعت بالترديد والتكرير . لعل ذلك يفتح أذنا ، أو يفقق ذهنًا ، أو يصقل عقلاً طال عهده بالصقل أو يجلو فهما قد غطى عليه تراكم الصدأ . اهـ . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩٢] (وَإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[١٩٣] (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ)

[١٩٤] (عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ)

[١٩٥] (بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ)

« وَإِنَّهُ » أى ما ذكر من الآيات الناطقة بالقصص المحكية ، أو القرآن المتضمن لها
 « لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ » أى منزل منه حقاً « نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ » أى جبريل عليه
 السلام « عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ » أى منتظماً فى سلك أولئك المشهورين بتلك
 المزية الجليلة ، والمنقبة الفاضلة . وهى الرسالة الإلهية بالإنذار ، إزالة للأعذار « بِلِسَانٍ
 عَرَبِيٍّ مُبِينٍ » أى واضح المعنى جلى المفهوم ، ليكون قاطعاً للعذر ، مقياً للحجة ، دليلاً إلى
 المحجة . والجار متعلق بـ (نزل) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٦] (وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ)

[١٩٧] (أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُوْا عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَءِيلَ)

« وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ » أى فى كتبهم . مع أنه صلوات الله عليه لم يصحب أهلها
 ولم يدرسها . فكفى بذلك شهيداً على صدقه « أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ » أى علامة على نزله
 الحق « أَنْ يَعْلَمَهُوْا عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَءِيلَ » أى فيجدون مصداقه فى زبرهم التى يدرسونها ،
 كما قال تعالى ^(١) (وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَأَمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا
 مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٨] (وَلَوْ تَرَزَّنَهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ)

[١٩٩] (فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ)

[٢٠٠] (كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ)

[٢٠١] (لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ)

(١) [٢٨ / القصص / ٥٣] .

[٢٠٢] (فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

[٢٠٣] (فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ)

[٢٠٤] (أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ)

[٢٠٥] (أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ)

[٢٠٦] (ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ)

[٢٠٧] (مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ)

[٢٠٨] (وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ)

[٢٠٩] (ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ)

« وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ وَعَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ »
 أى ولو نزلناه بنظمه البديع على بعض الأعجم الذى لا يحسن العربية ، فقرأه
 عليهم قراءة فصيحة ، انفق لسانه بها ، خرقا للعادة ، لكفروا به كما كفروا .
 ولتمحتلوا لجحودهم عذرا . ولسموه سحرا ، لفرط عنادهم « كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ
 الْمُجْرِمِينَ » أى مكنا هذا العناد والإباء عن الإيمان به ، فى قلوبهم وأنفسهم . وقررناه فيها
 « لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ * فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ *
 فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ * أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ » أى وهو ماهو ، عياذا به منه
 « أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا
 يُمْتَعُونَ » أى من طوال الأعمار وطيب المعاش « وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيَةٍ إِلَّا لَهَا
 مُنْذِرُونَ * ذِكْرَىٰ » أى رسل ينذرونهم لأجل الموعظة والتذكيرة « وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ »
 أى فنبغتهم بالعذاب قبل الإنذار ، فإن ذلك محال فى حكمة الحكم العدل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١٠] (وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ)

[٢١١] (وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ)

[٢١٢] (إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعَزُوُونَ)

[٢١٣] (فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

« وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ » ردّ لما زعمه المشركون من أن التنزيل الكريم من قبيل ما تلقّيه الشياطين على الكهنة ، بعد تحقيق الحق ببيان أنه نزل به الروح الأمين . وقوله تعالى « إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ » أى الاستماع عن الملائكة « لَمَعَزُوُونَ » لا انتفاء الاستعداد لقبول فيضان أنوار الحق عليهم ، لخباثة نفوسهم بالذات ، فهم مرجومون مبعدون عن الأنوار القدسية والبراهين السبوحية « فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ » فى الدارين ، عذاب تعديد الوجهة ، واضطراب الفكر ، وضعف الشبهة ، وتوهين العقل فى الدنيا . ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١٤] (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)

[٢١٥] (وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

[٢١٦] (فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ)

[٢١٧] (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ)

[٢١٨] (الَّذِى يَرِّكَ حِينَ تَقُومُ)

[٢١٩] (وَتَقْلُبَكَ فِى السَّجْدِينَ)

« وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ » أى الأدين . وإنه لا يخلص أحدا منهم إلا إيمانه بربه عز وجل . وقد قال عليه الصلاة والسلام^(١) لما نزلت عليه : (يا فاطمة ابنة محمد ! يا صفية ابنة عبد المطلب ! يا بنى عبد المطلب ! لا أملك لكم من الله شيئا . أنقذوا أنفسكم من النار) وقد بسط الأحاديث الواردة فى ذلك ، ابن كثير . فراجع . وقوله تعالى « وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » أى لئن جانبك لهم . مستعار من حال الطائر . فإنه إذا أراد أن ينحط خفض جناحه « فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٌّ مِمَّا تَعْمَلُونَ * وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِي يَرَنَّا حِينَ تَقُومُ » أى من النوم إلى التهجد « وَتَقَلُّبِكَ فِي السَّجْدِينَ » أى المصلين . أى تصرفك فيما بينهم بالقيام والركوع والسجود ، إذا أمتمهم . يعنى : يراك وحدك ويراك فى الجمع . والتوصيف بذلك للتذكير بالعناية بالصلاة ليلاً وجما وفردى . أو معنى الآية : لا يخفى عليه حالك ، كلما تم وتقلبت مع الساجدين ، فى كفاية أمور الدين . أو هى كناية عن رعايته صلوات الله عليه ، والعناية به . كقوله تعالى^(٢) (وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا) .
القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢٠] (إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

[٢٢١] (هَلْ أَنْبَيْتُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ)

[٢٢٢] (تَنْزَلُ عَلَىٰ كُلِّ آفَاكٍ أَثِيمٍ)

« إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » أى لما تقوله وبما تنويه « هَلْ أَنْبَيْتُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ » أى (تنزل) وهو استئناف مسوق لبيان استحالة نزل الشياطين على رسول الله ﷺ بعد امتناع نزولهم بالقرآن « تَنْزَلُ عَلَىٰ كُلِّ آفَاكٍ أَثِيمٍ » أى كذاب فى قوله ، يصرف الكلام من وجه إلى آخر ، ولا يبالى بذلك . لأنه أثيم كثير الإثم والفجور فى فعله .

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٢٦ - سورة الشعراء ، ٢ - باب

وأنذر عشيرتك الأقربين ، حديث رقم ١٣٢٠ ، عن أبى هريرة (٢) [٥٢ / الطور / ٤٨] .

وحيث كان المقام النبوي منزها عن ذلك ، اتضح استحالة تنزيلهم عليه .
قال القاشاني : لأن تنزيلهم لا يكون إلا عند استعداد قبول النفوس لنزولها ، بالمناسبة في الخبث والسكيد والمكر والغدر والخيانة وسائر الرذائل . فن تجرد عن صفات النفس ، وترقى إلى جناب القدس ، وتمورت نفسه بالأنوار الروحية ومصابيح الشهب السبحية ، وأشرق عقله بالاتصال بالعالم الأعلى ، فلا يمكن للشياطين أن يتنزلوا عليه ، ولا أن يتلقفوا المعارف والحقائق والشرائع . فإنهم معزولون عن استماع كلام الملكوت الأعلى ، مرجومون بشهب الأنوار القدسية . وقوله تعالى (قُلْ هَلْ أَنْبِئُكُمْ) تقرير لقوله تعالى (وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ) لأن الإفك والإثم من لوازم النفوس السكدة الخبيثة المظلمة السفلية ، المستمدة من الشياطين بالمناسبة ، المستدعية لإلقائهم وتنزلهم بحسب الجنسية . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢٣] (يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ)

[٢٢٤] (وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ)

[٢٢٥] (أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ)

[٢٢٦] (وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ)

« يُلْقُونَ » أى الأفا كون « السَّمْعَ » أى إلى الشياطين وأوهامهم ووساوسهم « وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ » أى فيما يتكهنون به ، وفيما يحكونه عن الشياطين . وقوله تعالى « وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ » استئناف مسوق لإبطال ما قالوا في حق القرآن الكريم ، من أنه من قبيل الشعر ، وأن رسول الله ﷺ من الشعراء ، ببيان حال الشعراء المنافية لحاله عليه الصلاة والسلام . بعد إبطال ما قالوا إنه من قبيل ما يلقى الشياطين على الكهنة من الأباطيل ، بما مر من بيان أحوالهم المضادة لأحواله عليه الصلاة والسلام . والمعنى أن الشعراء

الذين يركبون الخيالات والمزخرفات من القياسات الشعرية والأكاذيب الباطلة ، سواء كانت موزونة أم لا ، فإنهم يتبعهم (أى يجاريهم ويسلك مسلكهم ، ويكون من جملتهم) الغاؤون الضالون عن السنن ، لاغيرهم من أهل الرشد ، المهتدين إلى طريق الحق ، الداعين إليه .
قاله أبو السعود .

وقوله تعالى « أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ » استشهاد على أن الشعراء إنما يتبعهم الغاؤون ، وتقدير له . أى ألم تر أنهم فى كل وادٍ من أودية الخيال يهيمون على وجوههم ، لايقفون عند حدٍّ معيّن ، بل يركبون للباطل والكذب وفضول القول كل مركب . ديدنهم الهجاء ، وتمزيق الأعراض ، والقدح فى الأنساب ، والنسيب^(١) بالحرم والغزل والابتهاار . ومدح من لا يستحق المدح ، والغلو فى الثناء والهجاء .

لطيفة :

فى ذكر الوادى والهيام ، تمثيل لذهابهم فى شعب القول وفنونه وطرقه وشجونه . قال ابن الأثير : استعمار الأودية للفنون والأعراض من المعانى الشعرية التى يقصدونها . وإنما خص الأودية بالاستعارة ، ولم يستعر الطرق والمسالك ، أو ما جرى مجراها - لأن معانى الشعر تستخرج بالفكرة والروية ، والفكرة والروية فيهما خفاء وغموض . فكان استعارة الأودية لها أشبه وأليق .

« وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ » أى مما يتبجحون به من أقوال وأفعال لم تصدر منهم ولا عنهم ، كناية عن أنهم يكذبون غير مباين بما يستتبعه من اللوائم . أى فكيف يتوهم أن يتبعهم فى مسلكهم ذلك ، ويلتحق بهم وينتظم فى سلكهم ، من تنزهت ساحته عن أن يحوم حولها شائبة الاتصاف بشيء من الأمور المذكورة ، واتصف بمحاسن الصفات

(١) النسيب : ذكر محاسن الحسان ، وإظهار التعشق والهيام بها . والغزل : التغزل وذكر صفات النساء ، وذكر الميل لهن . والابتهاار : الكذب بادعاء الوصول إلى محبوبته . اهـ . خفاجى .

الجليلة ، وتخلق بمكارم الأخلاق الجميلة ، وحاز جميع الكالات القدسية ، وفاز بجملته المملكات الأنسية ، مستقرّاً على المهاج القويم ، مستمرّاً على الصراط المستقيم ، ناطقاً بكل أمر رشيد ، داعياً إلى صراط العزيز الحميد ، مؤيداً بمعجزات قاهرة ، وآيات ظاهرة ، مشحونة بفنون الحكم الباهرة ، وصنوف المعارف الزاهرة ، مستقلة بنظم رائق ، أعجز كل منطق ماهر ، وبكت كل مفلق ساحر ! قاله أبو السعود .

تنبيه :

قال الحافظ ابن كثير : اختلف العلماء فيما إذا اعترف الشاعر في شعره بما يوجب حداً . هل يقام عليه بهذا الاعتراف أم لا ؟ لأنهم يقولون ما لا يفعلون - على قولين : وقد ذكر محمد بن إسحق ومحمد بن سعد^(١) في (الطبقات) والزيبر بن بكار في كتاب (الفـكاهة) أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه استعمل النعمان بن عدى بن نضلة على ميسان ، من أرض البصرة . وكان يقول الشعر ، فقال :

أَلَا هَلْ أَتَى الْحَسَنَاءُ أَنَّ خَلِيلَهَا بِمَيْسَانَ يُسْقَى فِي زُجَاجٍ وَحَنَتَهُ
إِذَا شَتَّتْ غَنَّتْنِي دَهَاقِينَ قَرِيَّةٍ وَرَقَاصَةً تَحْثُو عَلَى كُلِّ مَبْسَمٍ
فَإِنْ كُنْتُ نَدَمَانِي فَبِأَلَّا كَبَّرَ اسْقِنِي وَلَا تَسْقِنِي بِأَلَّا صَغِيرِ الْمُتَمَلِّمِ
لَعَلَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَسُوؤُهُ تَنَادُمُنَا بِالْجَوْسَقِ الْمُتَهَدِّمِ

فلما بلغ ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قال : إى والله ! إنه ليسوؤنى ذلك . ومن لقيه فليخبره أنى قد عزلته . وكتب إليه عمر (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . حمّ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ) . أما بعد فقد بلغنى قولك :

لَعَلَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَسُوؤُهُ تَنَادُمُنَا بِالْجَوْسَقِ الْمُتَهَدِّمِ

(١) أخرجه ابن سعد فى الطبقات، بالصفحة رقم ١٤٠ من الجزء الرابع (طبعة بيروت)

فى ترجمة عدى بن نضلة .

وايم الله ! إنه ليسوؤنى ذلك . وقد عزلتك) .

فلما قدم على عمر . بكّته بهذا الشعر . وقال : والله ! يا أمير المؤمنين ! ما شربتها قط . وما ذاك الشعر إلا شئ طفح على لسانى . فقال عمر : أظن ذلك . ولكن ، والله ! لا تعمل لى عملاً أبداً ، وقد قلت ما قلت .

فلم يذكر أنه حده على الشراب ، وقد ضمنه شعره . لأنهم يقولون ما لا يفعلون . ولكن ذمه عمر ولامه على ذلك وعزله به .

وحكى الزمخشري عن الفرزدق^(١) أن سليمان بن عبد الملك سمع قوله :

فَمَيْتَنَ بِجَارِ نَبِيٍّ مُصَرَّعَاتٍ وَبِتُ أَفْضُ أَعْلَاقَ الْخِتَامِ

فقال : قد وجب عليك الحد . فقال : يا أمير المؤمنين ! قد درأ الله عنى الحد بقوله (وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ) .

ثم استثنى تعالى الشعراء المؤمنين الصالحين ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢٧] (إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا ، وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ، وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ)

« إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا » أى فى شعرهم ، بأن كان غالبه فى توحيد الله والثناء عليه والحكمة والموعظة والآداب الحسنة « وَانْتَصَرُوا » أى بشعرهم على عدوهم بأن هجوه « مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا » أى فكان هجاءهم على سبيل

(١) انظر فى ديوانه الصفحة ٨٣٥ قصيدته فى مدح هشام بن عبد الملك ، ومطاميرها :

أَلَسْتُمْ عَائِجِينَ بِنَا لَعْنًا نَرَى الْعَرَصَاتِ أَوْ أَثَرَ الْخِيَامِ

الانتصار ممن يهجومهم ، جزاءً وفاً . قال الله ^(١) (لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ) وقال تعالى ^(٢) (فَمَنْ أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَأُعْتَدُوا عَلَيْهِمْ عِثْلَ مَا أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ) قال ابن كثير : وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لحسان ^(٣) : (اهجم ، أو قال هاجهم ، وجبريل معك) وروى الإمام أحمد ^(٤) عن كعب بن مالك أنه قال للنبي ﷺ : إن الله عز وجل قد أنزل في الشعر ما قد علمت ، وكيف ترى فيه ؟ فقال النبي ﷺ : إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه . والذي نفسى بيده ! لكان ماتر مونهم به نضح النبل .

تنبيهات :

الأول - قال في (الإكليل) : في قوله تعالى (وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ) الآية ، ذم الشعراء ، والمبالغة في المدح والهجو وغيرهما من فنونه ، وجوازه في الزهد والأدب ومكارم الأخلاق وجواز الهجو لمن ظلم ، انتصاراً . انتهى .

وحكى الزمخشري عن عمرو بن عبيد ، أن رجلاً من العلوية قال له : إن صدرى ليجيش بالشعر . فقال : فإيتمك منه فيما لا بأس به ؟ والقول فيه : أن الشعر باب من الكلام ، محسنه كحسن الكلام وقبيحة كقبح الكلام .

الثاني - ذكر ابن إسحاق أنه لما نزلت (وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ) جاء حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك إلى رسول الله ﷺ ليكون . قالوا : قد علم الله حين أنزل

(١) [٤ / النساء / ١٤٨] . (٢) [٢ / البقرة / ١٩٤] .

(٣) أخرجه البخاري في : ٥٩ - كتاب بدء الخلق ، ٦ - باب ذكر الملائكة ، حديث

رقم ١٥١٧ ، عن البراء .

وأخرجه مسلم في : ٤٤ - كتاب فضائل الصحابة ، حديث رقم ١٥٣ (طبعنا) .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ٤٥٦ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي)

هذه الآية أنا شعراء . فتلا النبي ﷺ (إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) قال : أنتم . قال ابن كثير : لكن هذه السورة مكية ، فكيف يكون سبب نزول هذه الآيات في شعراء الأنصار ؟ وفي ذلك نظر . ولم يرو فيه إلا مراسلات لا يعتمد عليها . والله أعلم . ولكن الاستثناء دخل فيه شعراء الأنصار وغيرهم ، حتى يدخل فيه من كان متلبسا من شعراء الجاهلية بدم الإسلام وأهله ، ثم تاب وأناب ورجع وأقنع ، وعمل صالحا ، وذكر الله كثيرا ، في مقابلة ما تقدم من الكلام السيئ . فإن الحسنات يذهبن السيئات . وامتدح الإسلام وأهله في مقابلة ما كان يذمه . كما قال ^(١) عبد الله ابن الزبير ع ، لما أسلم :

يارسولَ الملِكِ إنَّ لسانِي رَاتِقٌ مَفْتَقٌ ، إِذْ أَنَا بُورُ
إِذَا جَارَى الشَّيْطَانُ فِي سَنَنِ الْعَيِّ وَمَنْ مَالَ مَيْلُهُ مَثْبُورُ

وكذلك أبو سفيان بن الحرث بن عبد المطلب ، كان من أشد الناس عداوة للنبي ﷺ فهو ابن عمه وأكثرهم له هجوا . فلما أسلم لم يكن أحد أحب إليه من رسول الله ﷺ . وكان يمدح رسول الله ﷺ . انتهى . وقوله تعالى « وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ » تهديد شديد ووعد أكيد ، لما في (سيعلم) من تهويل متعلقه . وفي (الذين ظلموا) من إطلاقه وتعميمه . وفي (أى منقلب ينقلبون) من إبهامه وتهويله . كأنه لا يمكن معرفته ، وقد رأوا ما حاق بهم في الدنيا . ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .

(١) انظر سيرة ابن هشام ، الصفحة رقم ٦١ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٧ - سُورَةُ النَّمْلِ

قال المهايي : سميت بها ، لاشتمالها على مقالاتها ، الدالة على علم الحيوان بزاخرة الأنبياء
وأتباعهم ، عن ارتكاب المكاره عمداً . وهو مما يوجب الثقة بهم . وهو من أعظم مقاصد
القرآن . وهي مكية وآياتها ثلاث وتسعون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (طس ، تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ)

[٢] (هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ)

[٣] (الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ)

« طس ، تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ » الإشارة إلى نفس السورة. والقرآن عبارة عن الكل أو عن الجميع المنزل. أى تلك السورة آيات القرآن الذى عرف بعلو الشأن. وآيات كتاب عظيم المقدار ، مبين لما تضمنه من الحكم والأحكام والمواعظ والاعتبار . « هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ » أى هو هدى من الضلالة، وبشرى برحمة الله ورضوانه، لمن آمن وعمل صالحاً من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وأيقن بالآخرة ، والجزاء على الأعمال خيراً وشراً .

لطيفة :

تكرير الضمير لإفادة الحصر والاختصاص على ما فى (الكشاف) .

ولصاحب (الانتصاف) وجه آخر قال : لما كان أصل الكلام (وهم يوقنون بالآخرة) ثم قدم المجرور على عامله ، عناية به ، فوقع فاصلاً بين المبتدأ والخبر ، فأريد أن يلى المبتدأ خبره ، وقد حال المجرور بينهما ، فطرى ذكره ليليه الخبر ، ولم يفت مقصود العناية بالمجرور حيث بقى على حاله مقدماً : ولا يستفكر أن تعاد الكلمة مفصولة له وحدها ، بعد ما يوجب التطرية . فأقرب منها أن الشاعر قال :

سَلْ ذُو وَعَجَلْ ذَاوَالْحِقْنَ بَذَا ۖ الشَّحْمِ ، إِنَّا قَدْ مَلَلْنَاهُ بِخَلِّ

والأصل (وألحقنا هذا الشحم) فوقع منتصف الرجز أو منتهاه (على القول بأن مشطور الرجز بيت كامل) عند اللام . وبني الشاعر على أنه لا بد ، عند المنتصف أو المفتى ، من وقفة ما . فقدر بتلك الوقفة بُعداً بين المعرف وآلة التعريف . فطرّها ثانية . فهذه التطرية لم تتوقف على أن يحول بين الأول وبين المكرّر ولا كلمة واحدة ، سوى تقديره وقفة لطيفة لا غير .

ثم قال : فتأمل هذا الفصل فإنه جدير بالتأمل . والله أعلم .

ثم تأثر أحوال المؤمنين بأحوال الكفرة ، بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ)

[٥] (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسُونَ)

[٦] (وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ)

[٧] (إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِيهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَاءَتِ كَيْفَ مِّنْهَا بَخْبَرٍ أَوْ أَيْتِيكُمْ

بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ)

[٨] (فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَنَ اللَّهُ

رَبِّ الْعَالَمِينَ)

« إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ » أى مددناهم في غيهم ، فهم يتيهون في ضلالهم . وكان هذا جزاء على ما كذبوا به من الدار الآخرة والجزاء على الأعمال كما قال ^(١) تعالى (وَنَقَلِبُ أَفْسِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ فِي أَوَّلِ مَرَّةٍ) « أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسُونَ » أى أشد الناس

(١) [٦ الأنعام / ١١٠] .

خسرانا للنجاة وثواب الله . « وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ » أى لتؤتاه وتلقنه من عند حكيم فى أمره ونهيه ، عليم بالأمر جليها وخفيها . نخبره هو الصدق المحض والحكمة البالغة ، كما قال (١) « وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا » والجملة مستأنفة ، سقيت بعد بيان بعض شؤون القرآن الكريم ، تمهيداً لما يعقبه من الأنباء الجليلة . وقد بدأ منها بما كان من أمر موسى عليه السلام واصطفائه وإيتائه من الآيات الباهرة ما أذل معانديه ، وجعلهم مثل السوء . فقال سبحانه « إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ عَ » أى حين قفل من مدين إلى مصر ، وأضل الطريق « إِنِّي ءَانَسْتُ نَارًا » أى رأيته « سَأَتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ » أى عن الطريق « أَوْ ءَاتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ » أى بشعلة مقتبسة « لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ » أى تتدفئون به « فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا » أى بورك من فى مكان النار ومن حول مكانها . ومكانها البقعة التى حصلت فيها . وتدل عليه قراءة أبى (تباركت الأرض ومن حولها) وعنه : بورك النار . والذى بورك له البقعة ، وبورك من فيها وحواليها ، حدوث أمر دينى فيها ، وهو تكليم الله موسى ، واستنباؤه له ، وإظهار المعجزات عليه . ورب خير يتجدد فى بعض البقاع ، فينشر الله بركة ذلك الخير فى أقاصيها ويث آثار يمنه فى أباعدها . فكيف بمثل ذلك الأمر العظيم الذى جرى فى تلك البقعة المباركة ؟ كذا فى (الكشاف) .

وقال السمين : (بارك) يتعدى بنفسه . فلذلك بنى للمفعول : باركك الله ، وبارك عليك ، وبارك فيك وبارك لك . والمراد بـ (من) إما البارئ تعالى وهو على حذف مضاف ، أى من قدرته وسلطانه فى النار . وقيل : المراد به موسى والملائكة . وكذلك قوله (وَمَنْ حَوْلَهَا) وقيل المراد بـ (من) غير العقلاء . وهو النور والأمكنة التى حولها . انتهى .

ولذا قال الزمخشري : والظاهر أنه عام فى كل من كان فى تلك الأرض وفى ذلك الوادى

وحوالهما من أرض الشام . قال : ولقد جعل الله أرض الشام بالبركات موسومة في قوله^(١) (وَنَجِّمْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ) وحقت أن تكون كذلك . فهي مبعث الأنبياء صلوات الله عليهم ، ومهبط الوحي إليهم ، وكفاتهم أحياء وأمواتا . ثم قال : ومعنى ابتداء خطاب الله موسى بذلك عند مجيئه ، هي بشارة له بأنه قد قضى أمر عظيم تنتشر منه في أرض الشام كلها البركة . انتهى .

وقال القرطبي : هذا تحية من الله تعالى لموسى ، وتكرمة له . كما حيا إبراهيم على ألسنة الملائكة حين دخلوا عليه فقالوا^(٢) (رَحِمْتَ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ وَعَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ) . وعن ابن عباس : لم تكن تلك النار نارا ، وإنما كانت نورا يتوهج . وعنه : هي نور رب العالمين .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي عبيدة عن أبي موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام . يخفض القسط ويرفعه . يرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل . حجاب النور أو النار . لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره) ثم قرأ أبو عبيدة : أن بورك من في النار ومن حولها .

قال ابن كثير : وأصل الحديث مخرج في صحيح مسلم^(٣) من حديث عمرو بن مرة (وَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبَّ الْعَالَمِينَ) أى الذى يفعل ما يشاء ، ولا يشبهه شيء من مخلوقاته ، ولا يحيط به شيء من مصنوعاته ، وهو العليّ العظيم المبين لجميع المخلوقات ، ولا يسكتفه الأرض والسموات ، بل هو الأحد الصمد المنزه عن مماثلة المحدثات . قاله ابن كثير .

وقد أفاد أن المقام اقتضى التنزيه ، دفعا لإيهام مالا يليق من التشبيه . ثم إن موسى عليه السلام ، أعلمه تعالى بأنه هو الذى يكلمه ويناجيه ، لا ملك ولا خلق آخر ، بل ذاته العلية المستحقة للألوهية والنعوت القدسية ، فقال سبحانه :

(١) [٢١ / الأنبياء / ٧١] . (٢) [١١ / هود / ٧٣] .

(٣) أخرجه في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٩٥ (طبعنا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (يَمُوسَىٰ إِنَّهُوَ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[١٠] (وَأَلْقِ عَصَاكَ ، فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ،

يَمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمَرْسُولِ)

[١١] (إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[١٢] (وَادْخُلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ يَيْضَاءً مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ، فِي تِسْعِ آيَاتٍ

إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ)

«يَمُوسَىٰ إِنَّهُوَ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» وفي إشار هذه الأسماء الجليلة سرّ بديع.

وهو الإشارة الجميلة إلى روح إرساله عليه السلام. أي: أنا الله لا تلك المعبودات التي عكف عليها

قوم فرعون، العزيز الغالب القاهر لكل عات متمرد، الحكيم في البعثة والإرسال، والتفضل

والإفضال. ثم أمره تعالى أن يلقى عصاه من يده ليريه دليلاً واضحاً على أنه القادر على كل شيء،

بقوله «وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ» هو ضرب من الحيات، أسرعه حركة

وأكثره اضطراباً «وَلَّى» أي من الخوف «مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ» أي لم يرجع على عقبه

من شدة خوفه «يَمُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمَرْسُولِ» أي لحفظي لهم وعنايتي

بهم وعصمتي إياهم مما يؤذيهم. وفيه تبشير له باصطفائه بالرسالة والنبوة. وتشجيع له بنزع

الخوف. إذ لا يتمكن من أداء الرسالة، ما لم يزل خوفه من المرسل إليه. وقوله تعالى «إِلَّا

مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ» استثناء منقطع. استدرك به ما عسى

يختلج في الخلد من نفى الخوف عن كلهم. مع أن منهم من فرط منه صغيرة ما، مما يجوز

صدوره عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. فإنهم وإن صدر عنهم شيء من ذلك، فقد فعلوا

عقبيه ما يبطله، ويستحقون به من الله تعالى مغفرة ورحمة. وقد قصد به التعريض بما وقع من

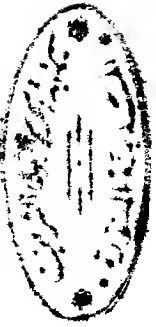
موسى عليه الصلاة والسلام ، من وكزه القبطى والاستغفار . قاله أبو السعود . وسبقه الزمخشريّ حيث قال : يوشك أن يقصد بهذا ، التعريض بما وجد من موسى . وهو من التعريضات التي يلطف مأخذها ، وسماه ظالماً كما قال موسى (رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي) ثم أشار تعالى إلى آية خارقة غير العصا ، آتاه إياها ، بقوله « وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ » أى آفة كبرص « فِي تِسْعٍ ءَايَاتٍ » أى غيرها تؤتاها ، إذا جحد فرعون رسالتك . وهى ضرب ماء النهر بالعصا فينقلب دماً . وإصعاد الضفادع على أرض مصر . وضرب التراب فتمتلئ الأرض قلا . وإرسال الجراد عليهم . والوباء الشديد . وإصابة أجسادهم بالقروح والدمامل والبثور . وإهلاك حصادهم بالبرد الشديد . وتعشيتهم بظلام كثيف ، على ما روى . وفى (تسع) أوجه : أحدها أنها حال ثالثة . أى تخرج آية فى تسع آيات . والثانى أنها متعلقة بمحذوف ، أى اذهب فى تسع . والثالث أن يتعلق بقوله (وَأَلْقِ عَصَاكَ) (وَأَدْخِلْ يَدَكَ) أى فى جملة تسع آيات . و(فى) بمعنى (مع) « إِلَىٰ فِرْعَوْنَ » أى مرسلهم إلى فرعون « وَقَوْمِهِمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ » أى خارجين عن الحدود ، فى الكفر والعدوان . وهذا تعليل للإرسال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ ءَايَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ)

[١٤] (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلوًا ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ)

[١٥] (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ، وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ)



[١٦] (وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ ، وَقَالَ يَبْنَائِيهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ
وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، إِنَّ هَذَا لَهُوَ أَفْضَلُ الْمُبِينِ)

« فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ ءَايَتُنَا مُبْصِرَةً » أى ظاهرة بينة « قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ * وَجَحَدُوا بِهَا » أى كذبوا بها بأنفسهم « وَأَسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ » أى عرفت أنفسهم أنها آيات يقينا ، لاسيما عند إلقاء السحرة ساجدين « ظُلُمًا » أى للآيات ، بتسميتها سحراً كقوله ^(١) (بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ) ولقد (ظلموا بها) « وَعُلُوًّا » أى تكبراً عن الانقياد لموسى « فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ » أى من إهلاكهم بالإغراق ، لفرقهم في بحر الفساد والإفساد « وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا » أى بالقضاء بين الناس ، وحكمة باهرة « وَقَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ * وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ » أى العلم والحكمة والنبوة أو الملك « وَقَالَ » أى تحدثا بنعمة الله وتقويها بجمته « يَبْنَائِيهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ » أى فهم صوته « وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، إِنَّ هَذَا لَهُوَ أَفْضَلُ الْمُبِينِ » أى البين الظاهر . وهو قول وارد على سبيل الشكر والمحمدة . كما قال رسول الله ﷺ ^(٢) (أنا سيد ولد آدم ولا فخر) أى أقول هذا القول شكراً ، ولا أقوله فخراً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ)

[١٨] (حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَبْنَائِيهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا

مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

(١) [٧ / الأعراف / ٩] . (٢) أخرجه أبو داود فى : ٣٩ - كتاب السنة ، ١٣ -

باب فى التخيير بين الأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام ، حديث رقم ٤٦٧٣ .

[١٩] (فَتَبَسَّمْ ضَاحِكًا مِّنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ)

[٢٠] (وَتَقَقَّدَ الطَّيْرُ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدًى أَمْ كَانَ مِنَ الْفَاسِقِينَ)

[٢١] (لَأَعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِنِي بَسُلْطَنٍ مُّبِينٍ)

[٢٢] (فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تَحِطُ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ)

[٢٣] (إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ)

[٢٤] (وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فُصْدَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ)

[٢٥] (أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ)

« وَخُسْرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ » أى جمع له عساكره « مِنْ الْإِنْسِ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ » أى يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا « حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ » أى رأتهم متوجهين إلى وادئها « يَأْتِيهَا النَّمْلُ أُدْخِلُوا مَسَاجِدَكُمْ لَا يُخْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » أى بمكانكم « فَتَبَسَّمْ ضَاحِكًا مِّنْ قَوْلِهَا » أى تعجبا من حذرهما واهتدائهما إلى تدبير مصالحها ومصالح بنى نوعها . وسرورا بشهرة حاله وحال جنوده فى باب التقوى والشفقة ، فيما بين أصناف المخلوقات ، التى هى أبعداها من إدراك أمثال هذه

الأمر ، وابتهاجا بما خصه الله تعالى به من إدراك همسها وفهم مرادها . قاله أبو السعود
« وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ » أى ألهمنى
شكرها « وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ * وَتَقَدَّرَ
الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ * لَا عُدَّةَ لَهُ وَعَذَابًا شَدِيدًا
أَوْ لَا أَذْبَحَنَّهُ وَ أَوْ لِيَأْتِنِي رَسُولٌ مِّنْ رَبِّىَ » أى بحجة تبين عذره « فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ » أى
فلبث فى الغيبة أمدًا غير طويل « فَقَالَ أَحْطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ » وهى مدينة
« بَنِي إِسْرَءِيلَ * إِنِّى وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ » أى
سيرة تجلس عليه ، هائل مزخرف بأنواع الجواهر « وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ
اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ * أَلَا يَسْجُدُوا »
أى هلا يسجدون . كما قرئ بذلك . وجوز بعضهم أن يكون معمولًا لما قبله . أى فصدهم عن
السبيل لئلا يسجدوا ، فحذف الجار مع (أن) أو أن تكون (لا) مزيدة ، والمعنى : فهم لا يهتدون
إلى أن يسجدوا « لِلَّهِ الَّذِى يُخْرِجُ الْخَبَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى يظهر ما هو مخبوء
فيهما من نبات ومعادن وغيرها « وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ » قرئ بالتاء والياء
على صيغة الغيبة . والجملة التحضيضية إمامستأنفة من كلامه تعالى ، أو محكية عن قول الهدهد .
واستظهر الزمخشري الثانى . قال : لأن فى إخراج الخبء أمانة على أنه من كلام الهدهد ،
لهندسته ومعرفة الماء تحت الأرض . وذلك بإلهام من يخرج الخبء فى السموات والأرض ،
جلت قدرته ولطف علمه . ولا يكاد يخفى على ذى الفراسة النظار بنور الله ، مخايل كل مختص
بصناعة أو فن من العلم ، فى روائه ومنطقه وشمائله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (اَللّٰهُ لَا اِلٰهَ اِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ)

اَللّٰهُ لَا اِلٰهَ اِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ « أى المحيط بالشمس وسائر الكواكب وكل شئ . فما أصغر عرشها فى جنب عظمتها ! وما أضعف معبودها - الشمس - فى جانب قدرته !

تنبيه :

هذه السجدة من عزائم السجديات . قال الزخشرى : لأن مواضع السجدة إما أمر بها ، أو مدح لمن أتى بها ، أو ذم لمن تركها . وإحدى القراءتين أمر بالسجود ، والأخرى ذم للتارك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ)

[٢٨] (اُذْهَبْ بِكِتَابِيْ هٰذَا فَاَلْقِهْ اِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُوْنَ)

[٢٩] (قَالَتْ يٰٓاَيُّهَا الْمَلٰٓئِكَةُ اِنِّىْ اُلْقِىْ اِلَى كِتٰبٍ كَرِيْمٍ)

[٣٠] (اِنَّهٗ وَ مِنْ سُلَيْمٰنَ وَاِنَّهٗ وَ بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ)

[٣١] (اَلَّا تَعْمَلُوْا عَلٰى وَاَتُوْنِىْ مُسْلِمِيْنَ)

[٣٢] (قَالَتْ يٰٓاَيُّهَا الْمَلٰٓئِكَةُ اَفْتُوْنِىْ فِىْ اَمْرِىْ مَا كُنْتُ قَاطِعَةً اَمْرًا حَتّٰى تَشْهَدُوْنَ)

« قَالَ » أى سليمان « سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * اُذْهَبْ بِكِتَابِيْ هٰذَا فَاَلْقِهْ اِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُوْنَ * قَالَتْ يٰٓاَيُّهَا الْمَلٰٓئِكَةُ اِنِّىْ اُلْقِىْ اِلَى كِتٰبٍ كَرِيْمٍ » أى حسن مضمونه وما فيه « اِنَّهٗ وَ مِنْ سُلَيْمٰنَ وَاِنَّهٗ وَ بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ * اَلَّا تَعْمَلُوْا عَلٰى وَاَتُوْنِىْ مُسْلِمِيْنَ » أى لا تنكبوا علىّ ، و اتوني منقادين لأمرى « قَالَتْ يٰٓاَيُّهَا الْمَلٰٓئِكَةُ اَفْتُوْنِىْ فِىْ اَمْرِىْ مَا كُنْتُ قَاطِعَةً اَمْرًا حَتّٰى تَشْهَدُوْنَ » أى لا أبت

أمراً إلا بمحضركم ومشورتكم . ولا أستبدّ بقضاء إلا باستطلاع آرائكم والرجوع إلى استشارتكم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ)

[٣٤] (قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ، وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ)

[٣٥] (وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ)

« قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً » أى فى العدد والعدد « وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ » أى نجدة وبلاء فى الحرب « وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ » أى وأمر القتال أو الصلح مفوض إلى رأيك . فانظري ما هو أبقي لشرفك وملسك « قَالَتْ » أى مشيرة إلى اختيار خطة المسالمة وإيثارها ، بالنظر لحالتها ومركزها وضعفها أمام عدوها ، بأن القتال إنما يؤثر إذا لم يغلب على الظن دخول العدو فى قرية العدو . وألا تعين الانقياد . وذلك معنى قولها « إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً » أى عنوة وقهراً « أَفْسَدُوهَا » أى أخرجوها « وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً » أى بالقهر والغلبة والقتل والأسر ونهب الأموال « وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ » تأكيده لما وصفت من حالهم ، وتقرير له بأن ذلك عادتهم المستمرة . وقيل تصديق لها منه تعالى « وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ » أى وإنى سأرسل إلى سليمان وملئه رسلاً بهدية توجب المحبة وتشبه الانقياد . من غير اختلال لشرفنا . ثم أنتظر بأى أمر يرجع المرسلون منه ، حتى أعمل على حسب ذلك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[۳۶] (فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنَ قَالَ أُمِدُّوْا نِي بِمَالٍ فَمَاءِ آتَمِنَ ۚ ۚ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا ءَاتَاكُمْ
بَلْ أَنتُمْ بِهِدْيَتِكُمْ تَفْرَحُونَ)

[۳۷] (أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا
أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ)

[۳۸] (قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَيُّكُمْ يَأْتِيْنِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ)

[۳۹] (قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ءَاتِيْكَ بِهِ ۚ قَبْلَ أَنْ تَقُوْمَ مِنْ مَّقَامِكَ ،
وَلِيَّنِي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِيْنٌ)

[۴۰] (قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَاتِيْكَ بِهِ ۚ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ
إِلَيْكَ طَرْفُكَ ، فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَٰذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي
لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ، وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَ شْكُرُ لِنَفْسِهِ ۚ
وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيْمٌ)

«فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنَ» أي المرسلون منها «قَالَ أُمِدُّوْا نِي بِمَالٍ فَمَاءِ آتَمِنَ ۚ ۚ اللَّهُ» أي

من الملك والحكمة والنبوة «خَيْرٌ مِّمَّا ءَاتَاكُمْ» أي فلا أبالي بجميع ما عندكم فضلا عن
الهدية «بَلْ أَنتُمْ بِهِدْيَتِكُمْ تَفْرَحُونَ» أي إذا أهدى إليكم مثلها ، أو أهديتم مثلها ،
تفرحون استكثارا أو افتخارا «أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ
مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ» أي مهانون «قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَيُّكُمْ يَأْتِيْنِي بِعَرْشِهَا
قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ» قال عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ءَاتِيْكَ بِهِ ۚ قَبْلَ أَنْ تَقُوْمَ مِنْ مَّقَامِكَ

وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيَّ أُمِينٌ * قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ، فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ « أَى لِيُخْتَبِرَنِي أَأَشْكُرُ بالطاعة والعمل بالشرعية ، أم أَكْفُرُ بالمعصية والخلافة . وقوله تعالى « وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَظْهَرُ لَهُ أَنَّهُ يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ، وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ » كقوله ^(١) (مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ، وَمَن أَسَاءَ فَعَلِيَهَا) وكقوله ^(٢) (وَمَن عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُمْ يَمْهَدُونَ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (قَالَ نَكِرُوا لَهَا عَرَشَهَا نَنْظُرُ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ)
[٤٢] (فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ ، قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ، وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ)

« قَالَ نَكِرُوا لَهَا عَرَشَهَا » أى اجعلوه متنكراً متغيراً عن هيئته وشكله ، كما يتنكر الرجل للناس « نَنْظُرُ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ » أى لمعرفة « فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ » قال المهايى : لم تقل (هو هو) خوفاً من التكذيب ، مع نوع من التغير . ولا (لا) خوفاً من التجهيل .

وقال الزمخشري : لم تقل (هو هو) ولا (ليس به) وذلك من راحة عقلها . حيث لم تقطع فى المحتمل . أى : فأنت به (كأن) الدالة على غلبة الظن .

قال الشهاب : وهذا إشارة إلى أن (كأن) ليس المراد بها هنا التشبيه بل الشك ، وهو مشهور فيها .

وقد أبدى صاحب (الانتصاف) فرقاً بين (كأن) و (هكذا) فى التشبيه . وعبارته :

(١) [٤١ / فصلت / ٤٦] و [٤٥ / الجاثية / ١٥] . (٢) [٣٠ / الروم / ٤٤] .

وفي قولها (كأنه هو) وعدولها عن مطابقة الجواب للسؤال بأن تقول (هكذا هو) - نكتة حسنة . ولعل قائل يقول : كلتا العبارتين تشبيه . إذ كان التشبيه فيهما جميعا ، وإن كانت في إحداها داخلة على اسم الإشارة ، وفي الأخرى داخلة على المضمرة ، وكلاهما (أعنى اسم الإشارة والمضمرة) واقع على الذات المشبهة . وحينئذ تستوى العبارتان في المعنى . ويفضل قولها (هكذا هو) بمطابقته للسؤال . فلا بد في اختيار (كَأَنَّهُ هُوَ) من حكمة . فنقول : حكمته ، والله أعلم ، أن (كأنه هو) عبارة من قرب عنده الشبه حتى شكك نفسه في التغير بين الأمرين . فسكاد يقول (هو هو) وتلك حال بليقيس . وأما (هكذا هو) فعبارة جازم بتغير الأمرين ، حاكم بوقوع الشبه بينهما لا غير . فلهذا عدلت إلى العبارة المذكورة في التلاوة ، لمطابقتها لحالها ، والله أعلم . انتهى .

وقوله تعالى « وَأَوْتَيْنَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ » هذا من تمام كلام سليمان عليه السلام ، شكراً لله على فضلهم عليها ، وسبقهم إلى العلم بالله وبالإسلام . أى : وأوتينا نحن العلم بالله وبقدرته ، وبصحة ما جاء من عنده ، قبل علمها الذى أوماً إليه قولها (كأنه هو) والجملة عطف على مقدر اقتضاه المقام المقتضى ، للإفاضة في وصفها برجاحة الراى في الهداية للإسلام . والتقدير : أصابت في جوابها وقد رزقت الإسلام ، وعلمت قدرة الله . وأوتينا العلم إلخ . وقيل : إنه من كلام بليقيس ، موصولا بقولها (كأنه هو) ، لامن كلام سليمان . كأنها ظفت أنه أراد بذلك اختبار عقلها وإظهار معجزة لها ، فقالت : أوتينا العلم إلخ . أى لا حاجة إلى الاختبار لأنى آمنت قبل . وهذا يدل على كمال عقلها .

أو المعنى : علمنا إتيانك بالعرش قبل الرؤية ، أو هذه الحالة بالقرائن أو الأخبار . قال ابن كثير : ويؤيد الأول ، أى أنه من كلام سليمان ، أنها إنما أظهرت الإسلام بعد دخولها إلى الصرح ، كما سيأتى . والله أعلم . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ)

[٤٤] (قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ، فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا ،

قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ، قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي

وَأَسَأَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

« وَصَدَّهَا » أى وكان صدها عن الهداية « مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ » إِنَّهَا كَانَتْ

مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ * قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ » أى القصر ، أو صحن الدار وكان سليمان عليه

السلام اتخذ قصرًا أبدعًا من زجاج ، فأراد أن يريها منه عظمة ملكه وسلطانه ، ومقدار ما آثره

الله به « فَلَمَّا رَأَتْهُ » أى صحنه « حَسِبَتْهُ لُجَّةً » أى ماء عظيمًا « وَكَشَفَتْ » أى للخوض فيه

« عَنْ سَاقَيْهَا ، قَالَ إِنَّهُ وَ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ » أى مملس « مِنْ قَوَارِيرَ » أى من الزجاج « قَالَتْ

رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي » أى بكفرها السالف وعبادتها وقومها الشمس « وَأَسَأَمْتُ مَعَ

سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » أى متابعة له فى دينه وعبادته لله وحده لا شريك له .

تذبيحات :

الأول - روى كثير من المفسرين ههنا أقاصيص لم تصح سندًا ولا خبرًا . وما هذا

سبيله ، فلا يسوغ نقله وروايته .

قال الحافظ ابن كثير ، بعد أن ساق ما رواه ابن أبي شيبة عن عطاء مستحسنًا له ،

ما مثاله : قلت : بل هو منكسر غريب جدا . ولعله من أوهام عطاء بن السائب على ابن عباس ،

والله أعلم .

ثم قال : والأقرب فى مثل هذه السياقات أنها متعلقة عن أهل الكتاب ، مما وجد فى

صحفهم . كروايات كعب ووهب ، ساعهما الله تعالى ، فيما نقلاه إلى هذه الأمة من أخبار بنى

إسرائيل ، من الأوابد والغرائب والعجائب . مما كان ومما لم يكن . ومما حرف وبذل ونسخ .

وقد أغنانا الله سبحانه عن ذلك بما هو أصح منه وأنفع وأوضح وأبلغ ، والله الحمد والمنة .
 الثانى - أشير فى (التوراة) فى الفصل الرابع من سفر الملوك الثالث إلى تفصيل نبأ سليمان عليه السلام وعظمة ملكه وسلطانه . ومما جاء فيه أن سليمان كان متسلطاً على جميع الممالك من نهر الفرات إلى أرض فلسطين وإلى تخم مصر . وإن ملوك الأطراف كانوا يحملون له الهدايا خاضعين له كل أيام حياته أى أنها تؤدى له الجزية ، وإن كان ملكه محصوراً فى فلسطين . وأن الله تعالى آتاه حكمة وفهما ذكياً جداً ، وسعة صدر . ففاقت حكمته حكمة جميع أهل المشرق وأهل مصر . وقال ثلاثة آلاف مثل . وتسكلم فى الشجر ، من الأرز الذى على لبنان إلى الزوفى التى تخرج فى الحائط . وتسكلم فى البهائم والطير والزحافات والسمك . وأما صرحه وبيته عليه السلام ، فقد جاء وصفه فى الفصل الخامس من السفر المتقدم . وأنه أكمل بناءه فى ثلاث عشرة سنة . وأنه بنى جازراً وبيت حورون السفلى وبعثت وتدمر فى أرض البرية . وجاء فى الفصل العاشر من هذا السفر أيضاً قصة ملكة سبأ ومقدمها من اليمن على سليمان لتخبر حكمته وعظمة ملكه ، ودهشتها مما رآته وتحققته ، وإيمانها بربه تعالى . ثم إعطاؤه إياها بغيتها . ثم انصرافها إلى أرضها .

وقد ذكرنا غير مرة أن القرآن الكريم لا يسوق أنباء ماتقدم سوق مؤرخ ، بل يقصها موجزة ليتحقق أنه مصداق ما بين يديه ، ومهيمن عليه ، ولينبه على أن القصد منها موضع العبرة والحكمة . ومثار التبصر والفتنة .

الثالث - مما استنبط من آيات هذه القصة الجميلة ، أن فى قوله تعالى (فَتَبَسَّمْ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا) أنه لا بأس بالتبسم والضحك عند التعجب وغيره . وفى قوله تعالى (وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ)

استحباب تفقد الملك أحوال رعيته . وأخذ منه بعضهم تفقد الإخوان ، فأنشد :

تَفَقَّدُ الْإِخْوَانَ مُسْتَحْسِنُ	فَن بَدَاهُ نِعَمَ مَا قَدَّ بَدَا
سَنَّ سُلَيْمَانُ لَنَا سُنَّةً	وَكُن فِيمَا سَنَّه مُقْتَدَى
تَفَقَّدَ الطَّيْرَ عَلَى مُلْكِهِ	فَقَالَ : مَالِي لَا أَرَأَى الْهُدُودَا

وأن في قوله تعالى (لَا عَذَابَ لَهُمْ وَغَذَابًا شَدِيدًا) الآية ، دليل على أن العذاب على قدر الذنب ، لا على قدر الجسد . وعلى جواز تأديب الحيوانات والبهائم بالضرب عند تقصيرها في المشي وإسراعها ونحو ذلك . وأن في قوله تعالى (قَالَ أَحْطُتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ) أن الصغير يقول للكبير والتابع للمتبوع : عندي من العلم ما ليس عندك ، إذا تحقق ذلك . وأن في قوله تعالى (قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ) قبول الوالي عذر رعيته ، ودرءه العقوبة عنهم ، وامتحان صدقهم فيما اعتذروا به . وأن في قوله تعالى (أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ) إرسال الطير بالكتب . وأن في قوله تعالى (كِتَابٌ كَرِيمٌ) استحباب ختم الكتب ، لقول السدي : كريم بمعنى مختوم . وأن في قوله تعالى (قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَفْتُونِ فِي أَمْرِي) المشاورة والاستعانة بالآراء في الأمور المهمة . وأن في قوله تعالى (أُنْمِدُوْهُمْ بِمَالٍ) الآية ، استحباب رد هدايا المشركين . كذا في (الإكليل) زيادة . ثم أخبر تعالى عن ثمود وما كان من أمرها مع نبيها صالح عليه السلام ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ)

[٤٦] (قَالَ يَاقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ، لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

[٤٧] (قَالُوا أَطِيعُوا بَنِيكَ وَبَنِي مَعَكَ ، قَالَ طَاعْتُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ ، بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتِنُونَ)

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ »

أى فريق مؤمن وفريق كافر . يختصمون خصومة لا يرجع فيها المبطل إلى الحق بعد ما تبين له .
 كقوله تعالى (١) « قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِمَنْ
 آمَنَ مِنْهُمْ أَنْ يَعْلَمُونَ أَنَّ صَلَاحًا مَرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِمْ ، قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ عَمَلُونَ *
 قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ » « قَالَ يَقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ
 بِالْأَسْبَاطِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ » أى بالعقوبة السيئة قبل التوبة الحسنة . أى لم تدعوا بحضور العقوبة
 ولا تطلبون من الله رحمته بالإيمان « لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * قَالُوا أَطِيرَ نَا »
 أى تطيرنا أى تشاء منا « بَكَ وَبِمَنْ مَعَكَ » أى من المؤمنين . وقد كانوا ، لشقائهم ، إذا
 أصيبوا بسوء قالوا : هذا من قبل صالح وحقبه « قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ » أى سبيلكم الذى
 يجىء منه خيركم وشركم عند الله . وهو قدره وقسمته ، إن شاء رزقكم وإن شاء حرمكم .
 قاله الزمخشري .

قال الشهاب : لما كان المسافر من العرب إذا خرج مرّ به طائر سانحاً ، وهو ما وليه
 بمسيرته ، أو بارحاً وهو ما وليه بيمينته - تيمنوا بالأول وتشاءموا بالثانى . ونسبوا الخير
 والشر إلى الطائر . ثم استعير لما كان سببهما من قدر الله وقسمته . أو من عمل العبد الذى هو
 سبب الرحمة والنقمة . ومنه (طائر الله ، لا طائر لك) « بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ » أى مفتونون
 بضلالكم وكفركم . لاترون حسناً إلا ما يوافق هواكم ، ولا شئاً إلا يخالفه . ثم أخبر تعالى عن
 طغاة عمود ورؤسائهم الذين كانوا دعاة قومهم إلى الضلال والكفر ، وتكذيب صالح عليه السلام ،
 وما آل بهم الأمر ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] « وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ »

(١) [٧ / الأعراف / ٧٥ و ٧٦] .

[٤٩] (قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ)

[٥٠] (وَمَكْرُؤًا مَكْرًا وَمَكْرًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

[٥١] (فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ)

[٥٢] (فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

«وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ» أي شأنهم وعادتهم الإفساد ، كما يفيد المضارع وتأكيده بقوله (فِي الْأَرْضِ) الدال على عموم فسادهم . وهو صفة (رهط) أو (تسعة) «قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ» أي ليحلف كل واحد منكم على موافقة الآخرين ، بالله الذي هو أعظم المعبودين «لَنُبَيِّتَنَّهُ وَ» أي لنقتله ليلاً . وقرئ بالتاء على خطاب بعضهم لبعض «وَأَهْلَهُ وَ» أي من آمن معه . «ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ» أي الطالب ثأره علينا «مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ» أي ما حضرنا مكان هلاك الأهل ، مع تفرقهم في الأماكن الكثيرة ، فضلاً عن مكانه ، فضلاً عن مباشرته «وَإِنَّا لَصَادِقُونَ» أي ونحلف إننا لصادقون . أو : والحال إننا لصادقون فيما ذكرنا «وَمَكْرُؤًا مَكْرًا» أي بهذه الحيلة «وَمَكْرًا مَكْرًا» أي بأن جعلناها سبباً لإهلاكهم «وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ» * فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ «أي خالية ساقطة . لم تعمر بعدهم لأنهم استؤصلوا «بِمَا ظَلَمُوا ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» أي بأنهم ما أخذوا إلا لظلمهم . وإن عاقبة الظلم الدمار والبوار .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)

[٥٤] (وَلَوْ طَا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَلْحِشَةَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ)

[٥٥] (أَنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ ، بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ)
 [٥٦] (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوْنَا أَلْ لُّوطِ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ ،
 إِنَّهُمْ أَنْفُسٌ يَتَطَهَّرُونَ)

[٥٧] (فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ وَ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ)

[٥٨] (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ، فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ)

[٥٩] (قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ، ءَالِلَهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ)

« وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا » يعنى صالحاً عليه السلام ومن معه « وَكَانُوا يَتَّقُونَ *
 وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الرِّجَالَ الرِّجَالَ شَهْوَةً وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ » أى فبحها ومضادتها لحكمه
 تعالى وحكمته « أَنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ » أى متجاوزين النساء
 اللاتى هن محال الشهوة « بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ » أى تفعلون فعل الجاهلين سفها وعمى عن
 العاقبة « فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوْنَا أَلْ لُّوطِ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ
 أَنْفُسٌ يَتَطَهَّرُونَ » أى يتزهدون عن أفعالها ورونها رجساً . قالوا استهزاء « فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ
 إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ وَ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ » أى الباقيين فى العذاب « وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا » أى
 هائلا غير مهبود « فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ * قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ
 اصْطَفَىٰ ءَالِلَهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ » قال الزمخشري : أمر رسوله ﷺ أن يتلو هذه الآيات
 الفاظقة بالبراهين على وحدانيته وقدرته على كل شىء وحكمته . وأن يستفتح بتحميده ،
 والسلام على أنبيائه والمصطفين من عباده . وفيه تعليم حسن ، وتوقيف على أدب جميل ، وبعث
 على التيمن بالذكرين ، والتبرك بهما ، والاستظهار بمكانهما ، على قبول ما يلقى إلى السامعين ،
 وإصغائهم إليه وإزاله من قلوبهم المنزلة التى يبغيها المسميع . ولقد توارث العلماء والخطباء
 والوعاظ كابراً عن كابر هذا الأدب . فحمدوا الله عز وجل ، وصلوا على رسول الله ﷺ ، أمام

كل علم مفاد ، وقبل كل عظة وتذكرة ، وفي مفتح كل خطبة . وتبعهم المترسلون . فأجروا عليه أوائل كتبهم في الفتوح والتهاني وغير ذلك من الحوادث التي لها شأن . وقيل : هو متصل بما قبله ، وأمر بالتحميد على الهالكين من كفار الأمم . والصلاة على الأنبياء عليهم السلام وأشياعهم الناجين .

ثم قال : معلوم أن لاخير فيما أشركوه أصلاً حتى يوازن بينه وبين من هو خالق كل خير ومالكه . وإنما هو إلزام لهم وتبكيت وتهم بحالهم . وذلك أنهم آثروا عبادة الأصنام على عبادة الله . ولا يؤثر عاقل شيئاً على شيء ، إلا لداع يدعو به إلى إثاره ، من زيادة خير ومنفعة . فقيم لهم ، مع العلم بأنه لا خير فيما آثروه ، وأنهم لم يؤثروه لزيادة الخير ، ولكن هوى وعبثاً ، لينبّهوا على الخطأ المفرط ، والجهل المورط . وإضلالهم التمييز ونبذهم المعقول . وليعلموا أن الإيثارة يجب أن يكون للخير الزائد . ونحوه ما حكاه^(١) عن فرعون (أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ) مع علمه أنه ليس لموسى مثل أنهاره التي كانت تجري تحته .

ثم عدد سبحانه الخيرات والمنافع التي هي آثار رحمته وفضله ، كما عددها في موضع آخر . ثم قال (هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَّنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِثْلَ شَيْءٍ) .

لطيفة:

قال ابن القيم في (طريق المجرتين) في هذه الآية : كلمة (السلام) هنا تحتمل أن تكون داخلة في حيز القول فتكون معطوفة على الجملة الخبرية ، وهي (الحمد لله) ويكون الأمر بالقول متناولاً للجمليتين معاً . وعلى هذا ، فيكون الوقف على الجملة الأخيرة ، ويكون محلها الفصـب محكية بالقول .

ويحتمل أن تكون الجملة مستأنفة مستقلة معطوفة على جملة الطلب . وعلى هذا فلا محل لها من الإعراب .

(١) [٤٣ / الزخرف / ٥٢] .

وهذا التقدير أرجح ، وعليه يكون السلام من الله عليهم . وهو المطابق لما تقدم من سلامه سبحانه على رسله صلى الله عليهم وسلم .

وعلى التقدير الأول يكون أمر بالسلام عليهم .

ولكن يقال على هذا : كيف يعطف الخبر على الطلب مع تنافر ما بينهما . فلا يحسن

أن يقول : قم وذهب زيد . ولا اخرج وقعد عمرو .

ويجاب على هذا بأن جملة الطلب ، قد حكيت بجملة خبرية ، ومع هذا لا يمتنع العطف

فيه بالخبر على الجملة الطلبية لعدم تنافر الكلام فيه وتباينه .

وهذا نظير قوله تعالى^(١) (قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا تُغْنِي

الْآيَاتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ) .

فقوله (وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ) ليس معطوفاً بالقول وهو (انظروا) بل معطوف على الجملة

الكبرى .

على أن عطف الخبر على الطلب كثير كقوله تعالى^(١) (قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ ،

وَرَبَّنَا اِرْحَمْنَا اِرْحَمْنَا اِلْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ) وقوله^(٣) (وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَاَرْحَمْ وَاَنْتَ

خَيْرُ الرَّاحِمِينَ) .

والمقصود أنه على هذا القول ، يكون الله سبحانه قد سلم على المصطفين من عباده ،

والرسل أفضلهم . انتهى . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (اَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا

بِهِ حَدَآبٍ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ، اِنَّ لَهُ

مَعَ اللَّهِ ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ)

(١) [١٠ / يونس / ١٠١] . (٢) [٢١ / الأنبياء / ١١٢] . (٣) [٢٣ / المؤمنون / ١١٨] .

[٦١] (أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ، أَلَيْسَ لَهُ مَعَ اللَّهِ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) [٦٢] (أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ، أَلَيْسَ لَهُ مَعَ اللَّهِ ، قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ)

[٦٣] (أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ، أَلَيْسَ لَهُ مَعَ اللَّهِ ، تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

« أَمَّنْ خَاقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » إضراب وانتقال، من التبكيث تعريضاً، إلى التصريح به خطاباً على وجه أظهر منه لمزيد التأكيد. أى: بل من خلق السموات والأرض، وأودع فيهما من المنافع ما لا يحصى «وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ» أى بساتين ذات حسن ورونق يبهج النظر «مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا» أَلَيْسَ لَهُ مَعَ اللَّهِ «أى: أله آخر كائن مع الله، الذى ذكر بعض أفعاله، التى لا يكاد يقدر عليها غيره، حتى يقوم جملة شريكاً له تعالى فى العبادة؟ وهذا تبكيث لهم بنفى الألوهية عما يشركونه به تعالى، فى ضمن النفي السكوى على الطريقة البرهانية، بعد تبكيثهم بنفى الخيرية عنه بما ذكر من الترديد. قاله أبو السعود «بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ» أى عن طريق الحق . أو به تعالى غيره . «أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا» أى قارة لاتسكنى بمن عليها. أو مستقراً لمن عليها، يتمتعون بمنافعها «وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا» أى برزخاً مانعاً من المازجة «أَلَيْسَ لَهُ مَعَ اللَّهِ» أى فى الوجود، أو فى إبداع هذه البدائع «بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» أى شيئاً من الأشياء . ولذلك لا يفهمون بطلان ما هم عليه من الشرك، مع كمال ظهوره «أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ» وهو الذى أحوجه مرض أو فقر أو نازلة من نوازل الدهر ، إلى اللجأ والتضرع إلى الله تعالى . اسم مفعول من (الاضطرار) الذى هو افتعال من

(الضرورة) وهي الحالة المحوجة إلى اللجأ أى الالتجاء والاستناد .

قال ابن كثير : ينبّه تعالى أنه المدعوّ عند الشدائد ، الموجود عند النوازل ، كما قال تعالى^(١) « وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ » وقال تعالى^(٢) (ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْرُونَ » وهكذا قال ههنا (أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ) أى من هو الذى لا يلجأ المضطر إلا إليه ، والذى لا يكشف ضر المضرورين سواه ؟

وقال ابن القيم فى (الجواب الكافى) : إذا اجتمع مع الدعاء حضور القلب وجميعته بكليته على المطلوب ، وصادف انكساراً بين يدى الرب وذلاً له وتضرعاً ورقة ، ثم توسل إليه تعالى بأسمائه وصفاته وتوحيده ، فإن هذا الدعاء لا يكاد يردّ أبداً . ولا سيما إن صادف الأدعية المأثورة عن النبي ﷺ ، أنها مظنة الإجابة ، أو أنها متضمنة للاسم الأعظم . ثم ساقها ابن القيم مسندة .

ثم قال : وكثيراً ما نجد أدعية دعا بها قوم فاستجيب لهم . فيكون قد اقترن بالدعاء ضرورة صاحبه وإقباله على الله . أو حسنة تقدمت منه ، جعل الله سبحانه إجابة دعوته شكراً لحسنته . أو صادف الدعاء وقت إجابة ، ونحو ذلك ، فأجبت دعوته . فيظن الظان أن السر فى لفظ ذلك الدعاء ، فيأخذه مجرداً عن تلك الأمور التى قارنته من ذلك الداعى . وهذا كما إذا استعمل رجل دواء نافعاً ، فى الوقت الذى ينبغى ، على الوجه الذى ينبغى . فانتفع به . فظن غيره أن استعمال هذا الدواء بمجرد ، كافى فى حصول المطلوب ، كان غلطاً . وهذا موضع يغلط فيه كثير من الناس . ومن هذا قد يتفق دعاؤه باضطراب عند قبر فيجاب . فيظن الجاهل أن السر للقبر ولم يعلم أن السر للاضطراب وصدق اللجأ إلى الله . فإذا حصل ذلك فى بيت من بيوت الله ، كان أفضل وأحب إلى الله . انتهى .

وقوله تعالى « وَيَكْشِفُ السُّوءَ » أى كل ما يسوء مما يضطر فيه وغيره « وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ » أى خلفاء فيها . وذلك توارثهم سكنها ، والتصرف فيها قرناً بعد قرن .

(١) [١٧ / الإسراء / ٦٧] . (٢) [١٦ / النحل / ٥٣] .

أو أراد بالخلافة الملك والتسلط . قاله الزخشري « أءَلَهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا نَدَّ كَرُؤُنَ * أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ » أى بالنجوم فى السماء ، والعلامات فى الأرض ، إذا جن الليل عليكم مسافرين فى البر والبحر « وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ » وهى المطر « أءَلَهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (أَمَّنْ يَبْدُوْا الْخُلُقَ ثُمَّ يُعِيْدُهُوْا وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ،
أءَلَهُ مَعَ اللَّهِ ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ)
[٦٥] (قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ
أَيَّانَ يُبْعَثُونَ)

« أَمَّنْ يَبْدُوْا الْخُلُقَ ثُمَّ يُعِيْدُهُوْا » أى بعد الموت بالبعث . فإن قيل : هم منكرون للإعادة ، فكيف خوطبوا بها خطاب المعترف ؟ أجيب بأنها لظهورها ووضوح براهينها ، جعلوا كأنهم معترفون بها ، لتمسكهم من معرفتها - فلم يبق لهم عذر فى الإنكار . فلاحاجة إلى القول بأن منهم من اعترف بها ، فالكلام بالنسبة إليه « وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ » أى مما ينزله من مائها وما يخرج من نباتها « أءَلَهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ » أمر له عليه الصلاة والسلام بتبكيهم إثر تبكيت . أى هاتوا برهاناً عقلياً أو نقلياً ، يدل على أن معه تعالى إلهاً . لا على أن غيره تعالى يقدر على شىء مما ذكر من أفعاله تعالى ، فإنهم لا يدعون صريحاً . وفى إضافة (البرهان) إلى ضميرهم ، تهكم بهم . لما فيها من إيهام أن لهم برهاناً . وإنى لهم ذلك ؟ قاله أبو السعود « قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ » أى فإنه المتفرد بذلك وحده ، كما قال ^(١) (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ) فى آيات

(١) [٦ / الأنعام / ٥٩] .

لا تحصى. والاستثناء منقطع ، لاستحالة أن يكون تعالى ممن في السماء والأرض. أو متصل، على أن المراد ممن في السموات والأرض ، من تعلق علمه بها واطلع عليها اطلاع الحاضر فيها مجازا مرسلا أو استعارة . فإنه يعلم الله تعالى وأولى العلم من خلقه « وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ » أى متى ينشرون .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (بَلْ أَدَارِكْ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ ، بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا ، بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ)
« بَلْ أَدَارِكْ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ » قال السمين : فيه وجهان : أحدهما - أن (فى) على بابها ، و (أدارك) وإن كان ماضيا لفظا ، فهو مستقبل معنى . لأنه كائن قطعاً . كقوله^(١) « أَتَى أَمْرُ اللَّهِ » .

وعلى هذا فـ (فى) متعلق بـ (أدارك) .

والثانى - أن (فى) بمعنى الباء . أى بالآخرة .

وعلى هذا فيتعلق بنفس علمهم . كقولك (علمى يزيد كذا) انتهى .

والوجه الثانى على الاستفهام . أى بل هل أدارك علمهم فيها ، أى بلغ وانتهى ؟ كلا .

وقد قرئ (بل أءدرك) بهمزة و (بل آءدرك) بألف بينهما و (أم أدرك) و (أم تدارك) قال الرازى : وهى (أم) التى بمعنى (بل) والهمزة . فالعنى على الاستفهام على وجه الإنكار لإدراك علمهم بها ، وأنهم لم يبرحوا فى حضيض الجهالة بحقيقتها ، مع ما يتلى عليهم من أدلة ثبوتها .

وقد جنح إلى الكلام على تقدير الاستفهام ، السيوطى والمهايمى . وذهب غيرها إلى إبقاء (بل) على أصلها من الإضراب الانتقالي . وقرروه بما فيه خفاء ودقة . ويعده ما ذكرنا

(١) [١٦ / النحل / ١] .

من القراءات الصريحة في الاستفهام. وهي مما يرجع إليها إذا اشتبه المقام. كما تقرر في قواعد التفسير « بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا » أى مرية ، مع تقرير ما يزيله ويكشف غشاوته « بَلْ هُمْ مِّنْهَا عَمُونَ » أى فى عماية وجهل كبير .

قال الزمخشريّ : فإن قلت : هذه الإضرابات الثلاثة ما معناها ؟ قلت : ما هي إلا تنزيل لأحوالهم : وَصَفَهُمْ أَوْلًا بِأَنَّهُمْ لَا يَشْعُرُونَ وَقْتُ الْبَعْثِ . ثم بأنهم لا يعلمون أن القيامة كائنة . ثم بأنهم يخبطون فى شك ومرية ، فلا يزيلونه . والإزالة مستطاعة . ألا ترى أن من لم يسمع اختلاف المذاهب وتضليل أربابها بعضهم لبعض ، كان أمره أهون ممن سمع بها وهو جاثم ، لا يشخص به طلب التمييز بين الحق والباطل ؟ ثم بما هو أسوأ حالا ، وهو العمى وأن يكون مثل البهيمة قد عكف همه على بطنه وفرجه ، لا يُخْطِرُ بِيَالِهِ حَقًّا وَلَا بَاطِلًا وَلَا يَفْكَرُ فِي عَاقِبَةٍ . وقد جعل الآخرة مبدأ عما هم ومنشأه . فلذلك عداه (من) دون (عن) لأن الكفر بالعاقبة والجزاء ، هو الذى جعلهم كالبهائم لا يتدبرون ولا يتبصرون . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءِآبَاؤُنَا أَنَّا لَمُخْرَجُونَ)

[٦٨] (لَقَدْ وَعَدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءِآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)

[٦٩] (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ)

[٧٠] (وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ)

« وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا » أى بوعد الله وآياته وعلمه وقدرته وحكمته « أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءِآبَاؤُنَا إِنَّا لَمُخْرَجُونَ » أى من القبور « لَقَدْ وَعَدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءِآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ » أى أحاديثهم وأكاذيبهم التى سطروها بعبارة مموّهة « قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ » أى لتبصروا آثار القائلين هذا القول قبلكم « فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ

عَقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ » بإنكاره . وهى دمارهم وهلاكهم بالاستئصال « وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ » أى على قولهم وتكذيبهم . فإنه سيكون لك من المصدقين من لا يبالي معهم بهؤلاء ، كقوله تعالى (١) (فَلَمَّا لَكَ بِخِيعِ نَفْسِكَ عَلَى آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا) « وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ » أى فى حرج صدر من مكرهم وكيدهم لك . ولا تبال بذلك ، فإن الله يعصمك من الناس .

القول فى تأويل قوله تعالى :

- [٧١] (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)
- [٧٢] (قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ)
- [٧٣] (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ)
- [٧٤] (وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ)
- [٧٥] (وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)
- [٧٦] (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)
- « وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ » أى بالعذاب « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ » أى لحقكم أودنا لكم « بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ » أى من العذاب ، فحصل لهم القتل بيد . ولعذاب الآخرة أمر . قال الزمخشري : (وعسى) و(لعل) و(سوف) فى وعد الملوك ووعيدهم ، يدل على صدق الأمر وجده ، وما لا مجال للشك بعده . وإنما يعنون بذلك إظهار وقارهم ، وأنهم لا يعجلون بالانتقام ، لإدلالهم بقهرهم وغلبتهم ، ووثوقهم أن عدوهم لا يفوتهم ، وأن الرزمة إلى الأغراض كافية من جهتهم . فعلى ذلك جرى وعد الله ووعيده . انتهى . أى لأن حقيقة الترتبى محال فى حقه تعالى . فهو على هذا استعارة تمثيلية . قاله

الشهاب « وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ » أى لذو إفضال وإنعام عليهم ، بتأخير العقوبة وعدم معاجلتهم بها . ولكن أكثرهم لا يعرفون حق النعمة فيه فلا يشكرونه ، بل بجهلهم يستعجلونها « وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ » أى من عداوة رسوله ونصب المكابدة له . وهو معاقبهم على ذلك « وَمَا مِنْ غَافِلَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ » أى وما من خافية فيهما ، إلا وقد علمها الله وأحاط بها وأثبتها في اللوح البين ، المثبت فيه مقدراته تعالى . أو المراد بالكتاب القضاء العدل ، على طريق الاستعارة ، بتشبيهه بالكتاب الجامع للوقائع ، كالسجل « إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَكُفُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » أى فهو مصدق لما بين يديه ، ومهيمن عليه . يقص القصص الحق ، ويفصل بين ما اختلفوا فيه بالصدق . فالعمول من أنبيائهم عليه ، ومرد ما اختلفوا فيه إليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ)

[٧٨] (إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ)

[٧٩] (فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ)

[٨٠] (إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تَسْمِعُ الْقُلُوبَ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ)

[٨١] (وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ، إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ

بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ)

« وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ » أى بما فيه من إقامة الدلائل ورفع الشبه التى يعقلها المؤمنون المصفون المصدقون بالحق ، المذعنون له « إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ » أى بين من آمن بالقرآن ومن كفر به ، بعدله وحكمته « وَهُوَ الْعَزِيزُ » أى فلا يرد قضاؤه الغالب

في انتقامه من المبطلين «أَلْعَلِيمُ» أى بالفصل بينهم وبين المحققين . ثم أمره تعالى بقلة المبالاة بأعدائه، وبالمضى في دعوته وانتظار الوعد الحق، بقوله «فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ» أى الأبلج الذى لا ريب فيه . قال الزمخشري : وفيه بيان أن صاحب الحق حقيق بالوثوق بصنع الله وبنصرته، وأن مثله لا يخذل . ثم أشار تعالى إلى كفاية نفع دعوته للمؤمنين، الذين هم أولياؤه وحزبه ، وإلى أن الكل لا يرجى منهم الهداية، كآية^(١) (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ) تسليمة عما كان يهمه من إيمانهم ، بقوله سبحانه «إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الْأُصَمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ» وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ» قال الزمخشري : شبهوا بالموتى وهم أحياء صحاح الحواس ، لأنهم إذا سمعوا ما يتلى عليهم من آيات الله فكانوا أقعاع القول ، لا تعيه آذانهم . وكان سماعهم كلا سماع . كانت حالهم ، لانتفاء جدوى السماع ، كحال الموتى الذين فقدوا مصحح السماع، وكذلك تشبيههم بالصم الذين ينعق بهم فلا يسمعون . وشبهوا بالعمى حيث يضلون الطريق ولا يقدر أحد أن ينزع ذلك عنهم ، وأن يجعلهم هداة بصراء ، إلا الله عز وجل . فإن قلت : ما معنى قوله (إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ)؟ قلت : هو تأكيدهم لحال الأصم . لأنه إذا تباعد عن الداعي ، بأن يولى عنه مدبراً ، كان أبعد عن إدراك صوته . انتهى .

وإيراد قوله (وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ) إثر ما تقدم ، للمبالغة في نفي الهداية . وقوله تعالى (إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا) أى ما تسمع سماعاً يجدى السامع نفعاً ، إلا من شأنه الإيمان بها . وقوله (فَهُمْ مُسْلِمُونَ) تعليل لإيمانهم بها . كأنه قيل : فإنهم منقادون للحق . وقيل : معناه مخلصون ، من قوله^(٢) (بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ) يعنى جعله سالماً لله خالصاً له .

(١) [١٢ / يوسف / ١٠٣] . (٢) [٢ / البقرة / ١١٢] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ)

« وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ » اعلم أن في هذا الوعيد وجوها من التأويل :

الأول - أنه دنيوي ، عني به نصر الرسول صلوات الله عليه ، عليهم . والمعنى أن أولئك الصم عن سماع الآيات ، العمى عن النظر فيها ، الجاحدين لها ، سيأتيهم أنباء حقيقة ما كانوا يدعون إليه من نصر الداعي وهو الرسول وأتباعه ، وتكثير سوادهم حتى يظفروا بمناوئهم . ويظهروا على عدوهم . وذلك بأن تدب إليهم من المؤمنين دابة عظيمة تملأ السهل والربى ، ترزّل أركانهم وتهدم بنيانهم وتقوض خيامهم وتذكّ أعلامهم . فتكلمهم حينئذ بلسان الحال أو المقال ، بأنهم إنما أخذوا بالعقاب ، وحل بهم شديد العذاب لضلالهم وإضلالهم العباد . وسعيهم في الأرض الفساد . فإن الإيمان دعامة الصلاح والإصلاح . وقائد الفلاح والنجاح ، وقد سبقت كلمته لعباده المرسلين إنهم لهم المنصورون ، وإن جنده لهم الغالبون . وقد صدق الله وعده . وأعز جنده .

والوجه الثاني - أن الدابة حيوان بخلاف ما نعرفه . يختص خروجها بحين القيامة ، قال بعضهم : والمعنى إذا قامت القيامة بعث الله نوعا مخصوصا من دواب هذه الأرض ، كما يبعث غيره من أنواع الدواب الأخرى . وينطقه فيوئخ الإنسان على كفره ، كما ينطق أعضاءه في ذلك اليوم أيضا . قال : فليس المراد من قوله (دَابَّةً) الفرد ، بل النوع . كما في قولك (أرسل الله عليهم دودة أتلّت زرعهم) أى ديدانا كثيرة ، من نوع واحد مخصوص . اهـ .

وقد روى فيها أحاديث وآثار كثيرة ، لم يصحح البخاري منها شيئا ، لا اضطراب متونها

وضعف رجالها . وأمثلة ماأثورها ما أخرجه مسلم^(١) عن عبد الله بن عمرو مرفوعا (إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة على الناس ضحى . وأيهما ما كانت قبل صاحبتهما ، فالأخرى على إثرها قريبا) .

ومعلوم أن أمور الآخرة من عالم الغيب . ولا يؤخذ فيها إلا بما كان قطعي الثبوت .

الوجه الثالث - نقله الراغب في مفرداته قال : وقيل عنى بالدابة الأشرار الذين هم في الجهل بمنزلة الدواب . فتكون الدابة جمعا ، اسما لكل مايدب . نحو (خائنة) جمع خائن . انتهى . ولعل الآية كقوله تعالى^(٢) (حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ * وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُؤْيَلْنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ) فإن يأجوج ومأجوج كالدابة ، لما يغطى بديبه وجه الأرض - فهو مثل في الكثرة . والله أعلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ)

[٨٤] (حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْ آذًا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

« وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ » أى يحبس أولهم على آخرهم ، حتى يجتمعوا فيككبوا في النار . وهذه عبارة عن كثرة العدد وتباعدا أطرافه . كما وصفت جنود سليمان بذلك . وكذلك قوله (فَوْجًا) ، فإن الفوج الجماعة الكثيرة . أفاده الزمخشري « حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا » أى إلى المحشر « قَالَ » أى ليفضحهم في هذا اليوم المشهود

(١) أخرجه مسلم في : ٥٢ - كتاب الفتن وأشرط الساعة ، حديث رقم ١١٨ (طبعتنا)

(٢) [٢١ / الأنبياء / ٩٧ و ٩٦] .

« أَكْذَبْتُمْ بَيَاتِي » أى الناطقة بلفاء يومكم هذا وقوله « وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا » جملة حالية مفيدة لزيادة شناعة التكذيب وغاية قبحه . ومؤكدة للإنكار والتوبيخ . أى أ كذبتُم بها بادئ الرأى ، غير ناظرين فيها نظراً يؤدى إلى العلم بكنهها ، وأنها حقيقة بالتصديق حتماً؟ وهذا نص فى أن المراد بالآيات ، فيما ساف فى الموضعين ، هى الآيات القرآنية . لأنها هى المنطوية على دلائل الصحة ، وشواهد الصدق التى لم يحيطوا بها علماً ، مع وجوب أن يتأملوا ويتدبروا فيها . لانفس الساعة وما فيها . أفاده أبو السعود «أَمَّا ذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» أى بها . أو ماذا كان عملكم ؟ هل هو إلا الفساد والإفساد ؟ وصد السبيل عن العباد ؟ ولذا حقت كلمة العذاب عليهم ، كما قال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ)

[٨٦] (أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ، إِنَّ فِي ذَلِكَ

لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

[٨٧] (وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ

إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَكُلُّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ)

[٨٨] (وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ، صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي

أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ، إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ)

[٨٩] (مَنْ جَاءَ بِالْأَحْسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِّنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ)

« وَوَقَعَ الْقَوْلُ » أى مدلوله وهو العقاب الموعودون به « عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ

لَا يَنْطِقُونَ * أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا » أى ليبصروا ، بما

فيه من الإضاءة ، طرق القلب فى أمور الماش « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * وَيَوْمَ

يُنْفِخُ فِي الصُّورِ فَنُفِخَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوْهُ»
 أى حضروا الموقف بين يديه «دَٰخِرِينَ» أى صاغرين «وَتَرَى الْجِبَالَ» عطف على (ينفخ)
 داخل فى حكم التذكير «تَحْسَبُهَا جَامِدَةً» أى ثابتة فى أما كتبها «وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ»
 أى فى تحلل أجزائها وانتفاشها . كما فى قوله تعالى^(١) (وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ)
 «صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ، إِنَّهُ وَخَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ» أى فيجازيهم عليه .

تنبية :

ما ذكرناه فى تفسير هذه الآية هو ما ذهب إليه كثير . قالوا : المراد بهذه الآية تسيير
 الجبال الذى يحصل يوم القيامة ، حينما يبيد الله تعالى العوالم ، كما قال^(٢) (وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ
 فَكَانَتْ سَرَابًا) وكما قال^(٣) (وَإِذَا الْجِبَالُ سُفِّتْ) وقال^(٤) (وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ
 الْمَنفُوشِ) .

وقال بعض علماء الفلك : لا يمكن أن يكون المراد بهذه الآية ما قالوه ، لعدة وجوه :
 الأول - أن قوله تعالى (وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً) لا يناسب مقام التهويل
 والتخويف إذا أريد بها ما يحصل يوم القيامة . وكذلك قوله^(٥) (صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ
 شَيْءٍ) لا يناسب مقام الإهلاك والإبادة ، على أن محل هذه الآية على المستقبل ، مع أنها صريحة فى
 إرادة الحال ، شئ لا موجب له . وهو خلاف الظاهر منها .

الثانى - أن سير الجبال للفناء يوم القيامة ، يحصل عند خراب العالم وإهلاك جميع الخلائق
 وهذا شئ لا يراه أحد من البشر كما قال^(٦) (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ
 فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ) أى من الملائكة . فما معنى قوله^(٧) إذن (وَتَرَى الْجِبَالَ
 تَحْسَبُهَا جَامِدَةً) ؟

(١) [١٠١ / القارة / ٥] . (٢) [٧٨ / النبأ / ٢٠] . (٣) [٧٧ / المرسلات / ١٠] .

(٤) [١٠١ / القارة / ٥] . (٥) [٢٧ / النمل / ٨٨] . (٦) [٣٩ / الزمر / ٦٨] .

(٧) [٢٧ / النمل / ٨٨] .

الثالث - أن تسيير الجبال الذي يحصل يوم القيامة ، إذا رآه أحد شعر به . لأنه ما دام وضعها يتغير بالنسبة للإنسان ، فيحسّ بحركتها . وهذا ينافي قوله تعالى (تَحْسَبُهَا جَامِدًا) أى ثابتة . أما في الدنيا فلا نشعر بحركتها ، لأننا نتحرك معها ولا يتغير وضعنا بالنسبة لها . وهذا بخلاف ما يحصل يوم القيامة . فإن الجبال تنفصل عن الأرض وتنسف نفسها . وهذا شيء يراه كل واقف عندها .

الرابع - ورود هذه الآية في سياق الكلام على يوم القيامة ، لورود آية (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلَ لَيْلٍ لِّلْجِبَالِ لَيْسَ كُنُوزٌ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا) المذكورة قبلها في نفس هذا السياق، والمراد بهما ذكر شيء من دلائل قدرة الله تعالى ، المشاهدة آثارها في هذا العالم الآن من حركة الأرض وحدث الليل والنهار، ليكون ذلك دليلاً على قدرته على البعث والنشور يوم القيامة فإن القادر على ضبط حركات هذه الأجرام العظيمة ، لا يصعب عليه أن يعيد الإنسان ، وأن يضبط حركاته وأعماله ويحسبها عليه . ولذلك ختم هذه الآية بقوله (إِنَّهُ وَخَيْرُ مِمَّا تَفْعَلُونَ) فذكر هذه الأشياء في هذا السياق ، هو كذكر الدليل مع المدلول ، أو الحجة مع الدعوى . وهى سنة القرآن الكريم . فإنك تجد الدلائل منبثة بين دعاويه دائماً ، حتى لا يحتاج الإنسان لدليل آخر خارج عنها . وذلك شيء مشاهد في القرآن من أوله إلى آخره . اه كلامه . وقال العلامة المرحوم في مقدمة كتابه (وفيه الأسلاف ، وتحيية الأخلاف) في بحث علم الهيئة ، ما مثاله :

ويدل على حركة الأرض قوله تعالى (وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدًا وَهِيَ تَمُرُّ مَرًّا السَّحَابِ) الآية . فإنه خطاب لجناب الرسول ﷺ ، وإيدان الأمر له بالأصالة مع اشتراك غيره في هذه الرؤية . وحسبان جمود الجبال وثباتها على مكانها ، مع كونها متحركة في الواقع بحركة الأرض ، ودوام مرورها مرّ السحاب في سرعة السير والحركة . قال : وقوله (صُنِعَ اللَّهُ) من المصادر المؤكدة لنفسها . وهو مضمون الجملة السابقة . يعنى أن هذا المرور هو صنع الله .

كقوله تعالى^(١) (وَعَدَ اللَّهُ^(٢)) (صِبْغَةَ اللَّهِ) ثم (الصنع) هو عمل الإنسان، بعد تدرب فيه وتروى وتحرى إجادته . ولا يسمى كل عمل صناعة، ولا كل عامل صانعاً، حتى يتمكن فيه ويتدرب وينسب إليه . وقوله (الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ) كالبرهان على إتقانه ، والدليل على إحكام خلقته ، وتسوية مروره على ما ينبغي . لأن إتقان كل شيء ، يتناول إتقانه . فهو ثنية للمراد وتكريره له ، كقوله تعالى^(٣) (وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) قال: وقد اشتملت هذه الآية على وجوه من التأكيد ، وأنحاء من المبالغة . فمن ذلك تعبيره (بالصنع) الذي هو الفعل الجليل المتقن المشتمل على الحكمة . وإضافته إليه تعالى ، تعظيماً له وتحقيقاً لإتقانه وحسن أعماله . ثم توصيفه سبحانه بإتقان كل شيء ، ومن جلته هذا المرور . ثم إيراد بالجملة الاسمية الدالة على دوام هذه الحالة واستمرارها مدى الدهور . ثم التقييد بالحال ، لتدل على أنها لا تنفك عنها دائماً . فإن قوله تعالى (وَهِيَ تَعْمُرُ مَرَّةً أَلْسَحَابٍ) حال من المفعول به ، وهو الجبال . ومعمول لفعله الذي هو رؤيتها على تلك الحال .

فهذه الآية صريحة في دلالتها على حركة الأرض ومرور الجبال معها في هذه النشأة . وليس يمكن حملها على أن ذلك يقع في النشأة الآخرة ، أو عند قيام الساعة وفساد العالم وخروجه عن متعاهد النظام . وأن حساباتها جامدة لعدم تبين حركة كبار الأجرام إذا كانت في سمت واحد . فإن ذلك لا يلائم المقصود من التهويل على ذلك التقدير . على أن ذلك نقض وإهدام ، وليس من صنع وإحكام . قال: والعجب من حذاق العلماء المفسرين، عدم تعرضهم لهذا المعنى ، مع ظهوره واشتمال الكتب الحكيمة على قول بعض القدماء . مع أنه أولى وأحق من تنزيل محتملات كتاب الله على القصص الواهية الإسرائيلية، على ماشحنوا بها كتبهم . وليس هذا بخارج عن قدرة الله تعالى ، ولا بعيد عن حكمته ، ولا القول به بمصادم للشرعية والعقيدة الحقّة ، بعد أن تعتقد أن كل شيء حادث بقدرة الله تعالى وإرادته وخلقه بالاختيار ، كائناً ما كان ، وهو العليّ الكبير ، وعلى ما يشاء قدير .

(١) [٤ / النساء / ١٢٢] . (٢) [٢ / البقرة / ١٣٨] (٣) [٣ / آل عمران / ٩٧]

واعلم أن هذه الآية وما قبلها من قوله تعالى (أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ) الآية ، اعتراض في تضاعيف مساقه من الآيات الدالة على أحوال الحشر وأحوال القيامة، كاعتراض توصية الإنسان بوالديه في تضاعيف قصة لقمان . ومثل ذلك ليس بعزيز في القرآن .

وفائدته هنا، التنبيه على سرعة تقضى الآجال ومضى الآماد. والتهويل من هجوم ساعة الموت وقرب ورود وقت المعاد . فإن انقضاء الأزمان ، وتقضى الأوان ، إنما هو بالحركة اليومية المارة على هذه السرعة المنطبقة على أحوال الإنسان . وهذا المرور . وإن لم يكن مبصرا محسوسا ، نكن ما ينبعث منه تبدل الأحوال ، بما يطرأ من تعاقب الليل والنهار وغيره ، بمنزلة المحسوس المبصر^(١) (فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ) فيكون هذا معجزة للنبي ﷺ ، مخصوصة به ، إذ لم يخبر به غيره من الأنبياء .

فليس بممكن حمل الآية على تسيير الجبال الواقع عند قيام الساعة ووفاء النشأة الآخرة . إذ ليس هو من (الصنع) في شيء . بل هو إفساد أحوال الكائنات ، وإخلال نظام العالم ، وإهلاك بنى آدم . اهـ . كلام المرجاني .

«مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِّنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ» أى لا يعترئهم ذلك الفزع الهائل . وقرئ (فزَعٍ يَوْمَئِذٍ) بالإضافة وكسر الميم وفتحها . وفزع منونا وفتح الميم ، على أنه ظرف (لآمنون) أو المحذوف هو صفة للفزع . والتنوين في (يومئذ) عوض عن جملة محذوفة ، أى يوم إذ جاءوا بالحسنة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (وَمَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَكَبَتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

[٩١] (إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

[٩٢] (وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ ، فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَأِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ)

[٩٣] (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ، وَمَا رَبُّكَ بِفَعْلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)
 «وَمَنْ جَاءَ بِالْسَّبِيحَةِ فَكَبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ»
 أى من الشرك والمعاصى «إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ» أى مكة «الَّذِي حَرَّمَهَا» أى جعلها حراماً آمناً لا يسفك فيها دم ، ولا يظلم فيها أحد ولا يصاد صيدها ولا يختل خلها . وفيه تعريض بجدد نعمته تعالى فى ذلك ، حيث آمنهم من خوف ، وأجلهم فى عين القبائل ، ووقاهم من الفتن المنتشرة عند غيرهم ، إجلالاً لهذا البيت . وهم لم يرعوا هذه النعمة بالقيام بواجب شكرها ، من عبادته تعالى وحده ، وسعيهم بالإصلاح «وَلَهُ وَكُلُّ شَيْءٍ» أى خلقا وملكا . فهو خالق كل شئ . ومليكه « وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ » أى ممن أسلم وجهه لله ، لغيره «وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ» أى عليكم ، تلاوة الدعوة إلى الإيمان به ، لما اشتمل عليه من سعادة الدارين «فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَأِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ» أى فمن اتبع ما فيه من توحيد الله ، ونفى الأنداد عنه ، والدخول فى الملة الحنيفية ، واتباع ما أنزل على من الوحي ، فنفعه اهتدائه راجعة إليه ، لا إلى «وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ» أى ومن ضل عن الإيمان وأخطأ بزيغ طريق الهدى ، ولم يتبعنى ، فلا على . وما أنا إلا رسول منذر ، وما على الرسول إلا البلاغ المبين «وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ» أى على ما هدانا لهذا الدين ، ومن علينا بصراطه المستقيم «سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا» كقوله تعالى ^(١) سَتَرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) وقوله ^(٢) (وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ) «وَمَا رَبُّكَ بِفَعْلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ» أى من الشرك والتكذيب ونصب المكاييد . بل هو شهيد رقيب ، جل جلاله وعظم نواله ، ولا إله غيره .

(١) [٤١ / فصلت / ٥٣] . (٢) [٣٨ / ص ٨٨] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٨ - سُورَةُ الْقَصَصِ

سميت به لاشتغالها على قوله تعالى ^(١) (فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) الدالة على أن من هرب من مكان الأعداء، إلى مكان الأنبياء اعتباراً بقصصهم الدالة على نجاة الهاربين ، وهلاك الباقين بمكان الأعداء - أمن من الهلاك . وهذا أيضاً من أعظم مقاصد القرآن، مع اشتغالها على ما لا يشتمل عليه غيرها من أنباء موسى، أفاده المهايى .

والسورة مكية كلها . وقيل إلا من قوله تعالى ^(٢) (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ) إلى قوله (أَلْجَاهِلِينَ) فقد أخرج الطبراني عن ابن عباس أنها نزلت هي وآخر الحديد في أصحاب النجاشي الذين قدموا وشهدوا وقعة أُحد .
وقوله تعالى ^(٣) (إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ) الآية لما روى من نزولها بالجحفة حين الهجرة إلى المدينة . والله أعلم . وهي ثمان وثمانون آية ، بالاتفاق .

- (١) [٢٨ / القصص / ٢٥] . (٢) [٢٨ / القصص / ٥٢-٥٥] . (٣) [٢٨ / القصص / ٨٥] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (طَسَمَ)

[٢] (تِلْكَ آيَةُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ)

[٣] (تَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

[٤] (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يَذِخُّ أبنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ، إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)

«طَسَمَ» تقدم الكلام على هذه الحروف غير مامرة «تِلْكَ آيَةُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * تَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» أي نقرأ عليك، بواسطة الروح الأمين ، تلاوة ملتبسة بالحق . كما قال تعالى ^(١) (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ) ثم استأنف ما يجري مجرى التفسير للمجمل الموعود ، بقوله «إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ» أي تكبر وتجاوز الحد في الطغيان ، في أرض مصر «وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا» أي فرقوا أصنافا في استخدامهم وطاعته «يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ» وهم بنو إسرائيل «يَذِخُّ أبنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ» وذلك إماتة لرجالهم ، وتقليلا لعددهم ، كيلا يكثرُوا فينازعوه الملك «إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ» أي المتمكنين في الإفساد وقهر العباد .

ثم أشار تعالى إلى فرجه الذي جعله لتلك الطائفة ، بقوله :

(١) [١٢ / يوسف / ٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ)

[٦] (وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)

[٧] (وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ، فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ، إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ)

[٨] (فَالْتَقَطَهُ وَإِيَّا فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ، إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ)

« وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ » أى تفضل « عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً » أى يقتدى بهم فى الدين بعد أن كانوا أتباعا مسخرين « وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ » أى : لملك عدوهم . كما قال تعالى ^(١) (وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ) إلى قوله (يَمْرُسُونَ) « وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ » أى بالتصرف فيها تصرف الملوك « وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ » أى من أولئك المستضعفين « مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ » أى من هلاكهم وذهاب ملكهم ، جزاء إفسادهم وعدم إصلاحهم وطفيانهم « وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ » أى إله ولادته فى تلك الشدة « أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ » أى من أولئك الدباحين الذين بأيديهم الشفار المرهفة العاملة فى تلك الأنفس الزكية « فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ » أى فى البحر ، وهو النيل « وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَالْتَقَطَهُ وَ

(١) [٧ / الأعراف / ١٣٧] .

ءَالُ فِرْعَوْنَ لَيْكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا « أَى فى هلاكهم على يديه .

قال أبو السعود : واللام لام العاقبة . أبرز مدخولها فى معرض العلة ، لالتقاطهم . تشبيهه
فى الترتب عليه ، بالغرض الحامل عليه « إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَّ مَنْ وَجُنُودُهُمَا كَانُوا خَطِئِينَ »
أى مجرمين فعاقبهم الله بأن ربى عدوهم ، ومن هو سبب هلاكهم ، على أيديهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ ، لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ
يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

[١٠] (وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرِيًّا ، إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا
عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

[١١] (وَقَالَتِ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ، فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)
« وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ « أَى لفرعون ، حين أخرجه من التابوت « قُرْتُ عَيْنِي لِي
وَلَكَ ، لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » أى بما سيكون
« وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرِيًّا » أى خاليا من العقل ، لما دهمها من فرط الجزع ، وأطار
عقلها من الدهش ، لما بلغها وقوعه فى يد فرعون « إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ » أى بأمره وقصته ،
وأنه ولدها « لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » أى لولا أن ألهمناها
الصبر . شبه ربط الشئ المنفلت ليقتر ويطمئن . ومعنى (من المؤمنين) أى المصدقين بوعد
الله . وهو قوله ^(١) (إِنَّا رَأَوْهُ إِذْكَ) .

قال الزمخشري : ويجوز ، وأصبح فؤادها فارغا من الهم ، حين سمعت أن فرعون عطف عليه
وتبناه . إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بآنه ولدها ، لأنها لم تملك نفسها فرحا وسرورا بما سمعت . لولا أنا

(١) [٢٨ / القصص / ٧] .

طامنا قلبها وسكننا قلقه الذى حدث به من شدة الفرح والابتهاج ، لتكون من المؤمنين الواقفين بوعد الله ، لا تبتسى فرعون وتمطفه « وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ » أى اتبعى أثره لتتالى خبره « فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ » بضم النون وسكونها . أى : عن بعد « وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » أى أنها تتعرف حاله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ)

[١٣] (فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَىٰ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

[١٤] (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا، وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

[١٥] (وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ، فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ، قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ، إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ)

[١٦] (قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

[١٧] (قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَن أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ)

« وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ » أى من قبل قصصها أثره . و (المراضع) جمع مرضع

بضم اليم وكسر الضاد . وهى المرأة التى ترضع . وترك (التاء) لاختصاصه بالنساء . أو جمع (مرضع) بفتح اليم مصدر ميميّ ، جمع لتعدد مواده . أو اسم موضع الرضاع ، وهو الثدي « فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُوٌ لَّصِيحُونَ » أى فى رضاعه وتربيته « فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَمَا تَقَرَّ عَيْنُهَا » أى برؤيته « وَلَا تَحْزَنْ » أى بفراقه « وَلَتَعْلَمَنَّ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُو » أى كمال قوته ، « وَأُسْتَوَىٰ » أى اعتدل مزاجه « ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ » أى فى أعمالهم . ثم بين تعالى من نبئه عليه السلام ، ما تدرج به إلى ماقدّر له من الرسالة ، بقوله سبحانه « وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ » أى مصر آتياً من قصر فرعون « عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا » قيل وقت القيلولة . وقيل بين العشاءين « فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ » أى يتنازعان « هَٰذَا » أى أى الواحد « مِّنْ شِيعَتِهِ » أى ممن يشايعه على دينه وهم بنو إسرائيل « وَهَٰذَا » أى الآخر « مِّنْ عَدُوِّهِ » أى ممن خالفه فى دينه وهم القبط « فَاسْتَفْتَاهُ » أى سأله الإغاثة « أَلَّذِى مِّنْ شِيعَتِهِ » لكونه مظلوماً « عَلَىٰ أَلَّذِى مِّنْ عَدُوِّهِ » لكونه ظالماً . وإغاثة المظلوم واجبة فوجبت إغاثته من جهتين « فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ » أى ضربه بجمع كفّه « فَقَضَىٰ عَلَيْهِ » أى فقتله « قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ » إِنَّهُوَ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ « يشير إلى تأسفه على ما أفضى وكزه ، من قتله . وسماه ظلاماً واستغفر منه بالنسبة إلى مقامه « قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي » أى بقتله « فَاعْفُرْ لِي فَغْفَرَ لَهُوٌ إِنَّهُوَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ » يجوز أن يكون قسماً جوابه محذوف . أى أقسم بإنعامك على بالغفرة ، لأنّين ولا أظاھر المجرمين . وأن يكون استعطافاً كأنه قال : رب ! اعصمنى بحق ما أنعمت علىّ من المغفرة . فلن أكون ، إن عصمتنى ، ظهيراً للمجرمين . وأراد بمظاھرتهم ، إما حجة فرعون وانتظامه فى جملته وتكثير سواده ، وإما مظاھرة من أدت مظاھرته إلى الجرم والإثم ، كمظاھرة الإسرائیلیّ المؤدية إلى القتل الذى لم يحل له . قاله الزمخشريّ .

قال الناصر : لقد تبرأ عليه السلام من عظيم . لأنّ ظهير المجرمين شريكهم فيما هم بصدده .

ويروى أنه يقال يوم القيامة : أين الظلمة وأعوان الظلمة ؟ فيؤتى بهم حتى يلقى لهم ليقة ، أو يرى لهم قلماً ، فيجعلون في تابوت من حديد ويلقى بهم في النار .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (فَأُصْبِحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اُسْتَنْصَرُهُ بِالْأَمْسِ

يَسْتَنْصِرُهُ ، قَالَ لَهُ وَ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ)

[١٩] (فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوسَى أَتُرِيدُ

أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا

فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمَصْلُحِينَ)

[٢٠] (وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَمْوسَى إِنَّ الْأَمْلَأَ يَأْتُمِرُونَ

بِكَ لَيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ)

[٢١] (فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ ، قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

[٢٢] (وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلَقَّاهُ مَدِينٌ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ)

[٢٣] (وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ

دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ، قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ، قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ

الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ)

« فَأُصْبِحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ » أى الاستقادة أو الأجناد . « فَإِذَا الَّذِي

اُسْتَنْصَرُهُ بِالْأَمْسِ » أى استمعانه فقتل من أجله منازعه القبطى « يَسْتَنْصِرُهُ » أى يستغيثه

من قبطى آخر « قَالَ لَهُ وَ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ » أى بمخاصمتك الناس مع عجزك ،

وجرّك إليهم مالا تحمد عقباه « فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا » أى لموسى وللإسرائيلى ، وهو القبطى « قَالَ » أى ذلك العدو وهو القبطى ، لا الإسرائيلى كما وهم « يَمُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسَكَ بِالْأُمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ » أى بين الناس بالقول والفعل .

قال الزمخشري: الجبار الذى يفعل ما يريد من الضرب والقتل بظلم ، لا ينظر في العواقب ولا يدفع بالتي هي أحسن . « وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْمَى » أى يسرع لفرط حبه لموسى « قَالَ يَمُوسَى إِنَّ الْمَلَائِكَةَ يَأْتِمِرُونَ بِكَ » أى يتشاورون بسببك « لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ » أى من حدم مملكتهم « إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ * فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ » أى لحوق الطالبين « قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَلَمَّا تَوَجَّهَ » أى جعل وجهه « تَلَقَّاهُ مَدِينٌ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ » أى فلا يلحقني فيه الطالبون « وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً » أى جماعة كثيفة « مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ » أى مواشيهم « وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ » أى تمنعان مواشيهما عن الماء ، لوجود من هو أقوى منهما عنده ، فلا تتمكنان من السقى « قَالَ مَا خَطْبُكُمَا » أى ما شأنكما في الذود « قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ » أى عادتنا أن لانسقى حتى يصرف الرعاة مواشيهم عن الماء ، عجراً عن مساجلتهم ، وحذراً من مخالطة الرجال « وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ » أى فيعجز عن الخروج والسقى . أى مالنا رجل يقوم بذلك إلا هو ، وقد أضعفه الكبر ، فاضطرنا الحال إلى ما ترى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ)

[٢٥] (فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ، فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ، نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

« فَسَقَى لَهُمَا » أى فسق غنمهما ، لأجلهما من غير أجر « ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ » أى الذى كان هناك ، من شدة الحر « فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَّىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ » أى محتاج . والخير أعم من المال أو القوة أو الطعام . وعلى الأخير حمله الأكثر بمعونة المقام « فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِى عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ، فَلَمَّا جَاءَهُ وَوَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ » أى أخبره بجميع ماجرى عليه إلى خروجه لما تآمروا بقتله « قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » أى بالخروج عن حد ولايتهم ، إذ لا سلطان لهم بأرضنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَأْبَى اسْتَجِرُّهُ، إِنْ خَيْرَ مِنْ اسْتَجَرْتُ الْقَوَى الْأَمِينَ)

[٢٧] (قَالَ إِنِّى أُرِيدُ أَنْ أُنَكِّحَكَ إِحْدَى ابْنَتَى هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِى

مِمَّنِّى حَبِيبٌ ، فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ ، وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْسُقَ

عَلَيْكَ ، سَتَجِدُنِى إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ)

[٢٨] (قَالَ ذَلِكَ يَدْنِى وَيُنْكَ ، أَيَّمَا الْأَجْلَيْنِ فَضِيتُ فَلَا عُدُونَ عَلَى ،

وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ)

« قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَأْبَى اسْتَجِرُّهُ » أى اجعله أجيرك ليرعى غنمك ، فإنه حقيق

بذلك « إِنْ خَيْرَ مِنْ اسْتَجَرْتُ الْقَوَى الْأَمِينَ » أى خير من أردت جعله أجيراً ، القوى

على العمل المؤتمن فيه .

قال الزمخشري : وقولها (إِنْ خَيْرَ مِنْ اسْتَجَرْتُ الْقَوَى الْأَمِينَ) كلام حكيم جامع

لا يزداد عليه . لأنه إذا اجتمعت هاتان الخصلتان ، أعنى الكفاية والأمانة فى القائم بأمرك ،

فقد فرغ بالك وتم مرادك . وقد استغنت بإرسال هذا الكلام الذى سياقه سياق المثل والحكمة ، أن تقول : استأجره لقوته وأمانته . انتهى .

قال الناصر : وهو أيضاً أجل فى مدح النساء للرجال ، من المدح الخاص . وأبقى للحشمة . وخصوصاً إن كانت فهمت أن غرض أبيها عليه السلام أن يزوجه منها . وما أحسن ما أخذ الفاروق رضى الله عنه هذا المعنى فقال : أشكو إلى الله ضعف الأيمن وخيانة القوى . ففى مضمون الشكاية سؤال الله تعالى أن يتحفه بمن جمع الوصفين ، فكان قويا أميناً : يستعين به على ما كان بصده رضى الله عنه . انتهى . « قَالَ إِنِّي أُرِيدُ » أى لقوتك وأمانتك ، ما يقوى المودة ويجذب القلوب « أَنْ أُنَكِّحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَجَجٍ » أى على أن تكون أجري لرعي المواشى بأجرة على ابنتي ، هى مهرها عليك ، ثمانى سنين « فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ » أى فهو من عندك بطريق التفضل « وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ » أى بإلزام أتم الأجلين وإيجابه « سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ » أى فى حسن المعاملة ولين الجانب والوفاء بالعهد « قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ » أى ذاك الذى عاهدتنى عليه ، لا يخرج عنه جميعاً « أَيْمًا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ » أى أتممت « فَلَا عُذُونَ عَلَيَّ » أى بطلب الزيادة على ثمان ، أو الخروج بالأهل قبل عشر « وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ » أى شاهد وحفيظ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ، قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ)

[٣٠] (فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوَسَىٰ إِلَىٰ آتَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

[٣١] (وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ، فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ، يَمُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ، إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ)

« فَلَمَّا قَضَىٰ » أى أتم « مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ » أى انس من جانب الطور نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ، أى من الطريق ، من ضوئها ، أو ممن عندها « أَوْ جَذْوَةٍ » مثله الجيم ، وقد قرئ بها كلها ، أى عود فيه شئ « مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ » أى تستدفئون « فَلَمَّا أَتَمَّهَا » أى قرب منها « نُودِيَ مِنْ شَطِئِ » أى جانب « الْوَادِ الْأَيْمَنِ » أى المبارك. يقال: يمين فهو ميمون وأيمن. وتفسيره بخلاف الأيسر بعيد. لأن ألفاظ التنزيل وآيه يفسر بعضها بعضاً . وقد جاء في غير آية توصيف الوادى بالقدس ، وبقعته بالمباركة ، والمعنى واحد. وإن أدهش التفنن في التعبير عنه ببدیع تلك المباني « فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ » أى التى بورك مكانها بالتجلى الإلهى « مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْمُسْلِمِينَ * وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ » أى تتحرك « كَأَنَّهَا جَانٌّ » أى حية صغيرة ، فى سرعة الحركة « وَلَّى مُدْبِرًا » أى أعرض بوجهه عنها ، جاعلاً ظهره إليها « وَلَمْ يُعَقِّبْ » أى لم يرجع « يَمُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ » أى من المخاوف. القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (أَسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ يَمْضَاءً مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ، فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِقِينَ)

[٣٣] (قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ)

[٣٤] (وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ، إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ)

[٣٥] (قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكَ مَلَأَةً فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ، بَأْيَتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ)

« أَسْلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ » أى أدخلها فيه « تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ » أى عيب « وَأَضْمُمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ » أى يدك « مِنْ الرَّهْبِ » أى الخوف. قرئ بفتحتين، وضميتين، وفتح وسكون، وضم وسكون. قال ابن أسلم وابن جرير: مما حصل لك من خوفك من الحية قال ابن كثير: والظاهر أن المراد أعم من هذا. وهو أنه أمر عليه السلام، إذا خاف من شيء، أن يضم إليه يده، فإذا فعل ذلك ذهب عنه ما يجده من الخوف. وربما إذا استعمل أحد ذلك على سبيل الاقتداء، فوضع يده على فؤاده، فإنه يزول عنه ما يجده أو يخفّ إن شاء الله تعالى. وبه الثقة. « فَذَانِكَ » إشارة إلى العصا واليد « يُرْهَنَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ مِنْهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ * وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا » أى فيكون أحسن بيانا. ولا يتحمل ذلك ما لم يكلف بمثل ما كلفت به « فَأَرْسَلَهُ مَعِيَ رِدْءًا * أَيْ مَعِينًا يُصَدِّقُنِي » أى لنشاط قلبي « إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ » أى يتفقوا على تكذيبى المؤدى إلى أنواع الأذيات.

قال الزمخشري: فإن قلت: تصديق أخيه، ما الفائدة فيه؟ قلت: ليس الغرض بتصديقه أن يقول له: صدقت، أو يقول للناس: صدق موسى، وإنما هو أن يلخص بلسانه الحق ويبسط القول فيه ويجادل به الكفار، كما يفعل الرجل المنطيق ذو العارضة. فذلك جار مجرى التصديق المفيد، كما يصدق القول بالبرهان. ألا ترى إلى قوله (وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلَهُ مَعِيَ) وفضل الفصاحة إنما يحتاج إليه لذلك. لاقوله صدقت. فإن سحبان وبقلا يستويان فيه. أو يصل جناح كلامه بالبيان حتى يصدقه الذى يخاف تكذيبه. فأسند التصديق إلى هرون لأنه السبب فيه، إسناداً مجازياً. انتهى. « قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ » أى سنقويك به ونعينك.

قال الشهاب: والشدة التقوية. والعضد من اليد معروف. فهو إما كناية تلويحية عن تقويته، لأن اليد تشد بشدة العضد، والجملة تشد بشدة اليد، ولا مانع من الحقيقة كما توهم. أو استعارة تمثيلية. شبه حال موسى في تقويته بأخيه عليهما السلام، بحال اليد في تقويتها بيد شديدة. « وَنَجْعَلُ لَكُمْ سُلْطَانًا » أى غلبة ومهابة في قلوبهم أو حجة « فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا » أى بايذاء، فضلا عن القتل « بَأْيَدِنَا » متعلق بمحذوف أى اذهبا بآياتنا. أو (ب) نجعل (أى نسلط) كما بها أو بمعنى (لا يصلون) أى تمتنعون منهم بها. أو قسم جوابه (لا يصلون) مقدر. أو صلة ل(الغالبون) فى قوله « أَنْتُمْ » وَمَنْ أَتَبِعَكُمْ فَأَلْغِيُونِ » وتقدمه، إما للفاصلة أو للحصر. أى الغالبون عليهم، وإن غلبوكم وغلبوا العالمين قبلكم.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيَّنَّتْ قُلُوبُهُمْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ)

[٣٧] (وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِيهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)

[٣٨] (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَأْتِيهَا الْمَلَائِكَةُ لَعَلَّيْنِ فَوَقَدَ لِي يَهْمًا عَلَى الْإِطِينِ فَأَجْعَلَ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ آلِهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ)

«فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيَّنَّتْ قُلُوبُهُمْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى» أى مبتدع لم يسبق له نظير. أو تفتريه على الله بنسبته له، وأنت تعلمته من غيرك. فلا فتراء بمعنى الاختلاق أو الكذب « وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا » أى السحر أو ادعاء النبوة، أو بأن للعالم إلها يرسل الرسل

بِالآيَاتِ « فِي آيَاتِنَا الْأَوَّلِينَ » أى كائناً فى أيامهم . قال الشهاب : وهذا إما تعمداً للكذب وعناداً بإنكار النبوات ، وإن كان عهد يوسف قريباً منهم . أولاً أنهم لم يؤمنوا به أيضاً « وَقَالَ مُوسَى رَبِّىَ أَأَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِى وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ » قال المهايى : معناه : كفى دليلاً على كونها آيات ، أنها خوارق لم يسبق لها نظير . مع أن ما جئت به هدى . والساحر لا يدعو فى العموم إلى هدى . فإن لم تعترفوا بكونه هدى ، فربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ، ويعلم ذلك بالعاقبة ، فإن الله يحسن عاقبة أهل الهدى لا محالة . لأنه يعلم من تكون له عاقبة الدار . وهى العاقبة المحمودة . والمراد (الدار) الدنيا . وعاقبتها وعقباها : أن ينجح للعبد بالرحمة والرضوان . وتلقى الملائكة بالبشرى عند الموت . وهذه لا تكون للساحر إذا ادعى النبوة ، لأنه ظالم فلا يفلح بالعاقبة الحميدة كما قال « إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ » أى بالدار وإن وجدوا بعض مقاصدهم أولاً استدراجاً ، فلا يفوزون بالعقبى الحميدة . وإنما غاية أمرهم انقطاع أثرهم وسوء ذكرهم . وقد حقق الله هذا الوعد فجعل عاقبة قوم موسى رفيعة . ونهاية أعدائه وضيمة « وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَأْتِيَهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي » هذا حكاية لتمرده وعتوه وطغيانه فى تفوهه بتلك العظيمة . كما واجه موسى عليه السلام بها فى قوله ^(١) (لَئِنْ اتَّخَذَتِ الْإِلَهَ غَيْرِي لَأَجْعَلََنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ) وكما قال تعالى ^(٢) عنه (فَحَشَرَ فَنَادَى * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى * فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَنِ يَخْشَى) يعنى أنه جمع قومه ونادى فيهم معلناً بذلك . فانتقم منه بما جعله عبرة لمن اعتبر « فَأَوْقَدَ لِي يَهْمَسُنْ عَلَى الطِّينِ » أى ناراً ، فأتخذ منه آجراً .

قال الزخشري : ولم يقل (اطبخ لى الآجر) وأتخذ (لأن هذه العبارة أحسن طباقاً لفصاحة القرآن وعلو طبقته ، وأشبهه بكلام الجبارة . وهامان وزيره ومدبر رعيته « فَأَجْعَلَ لِي » أى من الآجر « صَرْحاً » أى قصراً رفيعاً إلى السماء « لَعَلِّي أَطْلُعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى »

(١) [٢٦ / الشعراء / ٢٩] . (٢) [٧٩ / النازعات / ٢٣ و ٢٦] .

يعنى العلى الأعلى ، تبارك وتعالى « وَإِنِّى لَأُظْهِرُّهُ مِنْ الْكَاذِبِينَ » أى فى دعواه الألوهية ، والعلو لبارى الأرض والسموات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (وَأَسْتَكْبَرَهُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ)

[٤٠] (فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)

[٤١] (وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ، وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُنصَرُونَ)

[٤٢] (وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ، وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ)

[٤٣] (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ

بِصَافِرٍ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

« وَأَسْتَكْبَرَهُوَ » أى بدعوى الألوهية لنفسه ، ونفيها عن الله تعالى ، وقصد الاطلاع إلى الله سبحانه ، وادعاء العلم الكلى لنفسه مع جهله بربه « وَجُنُودُهُ » فى الأرض بِغَيْرِ الْحَقِّ « أى بل بالفساد ورد الحق ، والصدع سبيل الله « وَظَنُوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ » بضم الميم ، وفتحها قراءتان « فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ » فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُنصَرُونَ * وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً « أى يلعنهم كل مؤمن بسمعهم » وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ « أى من المطرودين ، المبعدين « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بِصَافِرٍ لِلنَّاسِ » أى أنواراً للقلوب « وَهُدًى » أى إلى الاعتقادات الصحيحة ودلائلها « وَرَحْمَةً » أى بالإرشاد إلى العمل الصالح « لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » أى فيتممظون به ويهتدون بسببه .

ثم أشار تعالى إلى كون التنزيل وحيامن علام الغيوب، ببيان أنه مافصل من هذه الأنبياء لا يتسنى إلا بالمشاهدة أو التعلم، وكلاهما معلوم الانتفاء، فتحقق صدق الإيحاء. وذلك قوله سبحانه:

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ)

[٤٥] (وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ، وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ)

[٤٦] (وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

« وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ » أى الوادى الغربى الذى كوشف فيه موسى عن المناجاة « إِذْ قَضَيْنَا » أى قدرنا وأنهيينا « إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ » أى أمر الإرسال والإنباء « وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ * » وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا « أى بين زمانك وزمان موسى « فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ » أى أمد انقطاع الوحى، واندرست معالم الهدى، وعم الضلال والبغى والردى، فاقتضت رحمتنا إرسالك لنخرجهم من الظلمات إلى النور « وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا » أى مقبلاً « فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ » أى لك، وموحين إليك تلك الآيات. أى ما كان الإنباء بها إلا وحياً مصدره الرسالة « وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا » أى وقت ندائنا موسى « وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ » أى ولكن أرسلناك بالقرآن الناطق بما ذكر وبغيره، لرحمة عظيمة كائنة منك لك وللناس « لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ » أى من نذير فى زمان الفترة، بينك وبين عيسى « لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » أى يتعظون بإنذارك.

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُمْ مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)
 [٤٨] (فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ ، أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ ، قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ)

«وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُمْ مُّصِيبَةٌ» أى عقوبة «بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ» أى من الكفر والفساد «فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» أى بها . وجواب (لولا) الأولى محذوف ، ثقة بدلالة الحال عليه . أى ما أرسلناك . لكن قولهم هذا عند عقوبتهم محقق . ولذا أرسلناك قطعاً لمآذيرهم .

قال الزمخشري : ولما كانت أكثر الأعمال تراول بالأيدى ، جعل كل عمل معبراً عنه باجتراح الأيدى ، وتقديم الأيدى ، وإن كان من أعمال القلوب . وهذا من الاتساع فى الكلام ، وتصيير الأقل تابعاً للأكثر ، وتغليب الأكثر على الأقل « فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ » أى من قلب العصا حية ، وخلق البحر ، وغيرهما من الآيات . تعنتاً وعناداً ، كما قالوا ^(١) (لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ وَ مَلَكٌ) وما أشبه ذلك . وقوله « أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ » رد عليهم ، وإظهار لكون ما قالوه تعنتاً محضاً ، لا طلباً لما يرشدهم إلى الحق . أى أولم يكفر أبناء جنسهم ، ومن مذهبهم مذهبهم ، وعنادهم عنادهم وهم القبط ، بما أُوتِيَ موسى من الكتاب « قَالُوا » أى فى موسى وهرون عليهما السلام (ساحران) « تَظَاهَرَا » أى تعاونا . وقرئ « سِحْرَانِ » أى ذوا سحرين ؛ أوجعوا

(١) [١١ / هود / ١٢] .

سحرين مبالغة « وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرٍ وَنَ » ثم أشار تعالى إلى أن الآية العظمى للنبي صلوات الله عليه ، هي الآيات النفسية العلمية ، لا الكونية الآفاقية التي كانت لغيره ، جرياً على سنة الارتقاء . فإن النوع الإنساني كان ، لما جاء الإسلام قد استعد إلى معرفة الحق من الباطل بالبرهان ، والتمييز بين الخير والشر بالدليل والحجة . وكان لا بد له في هذا الطور من معلم ومرشد ، كما في الأطوار الأخرى ، أرسل الله إليه رسولا يهديه إلى طرق النظر والاستدلال ، ويأمره بأن يرفض التقليد البحت والتسليم الأعمى . وأن لا يأخذ شيئاً إلا بدليل وبرهان ، يوصل إلى العلم . فكانت عمدته ﷺ في الاستدلال على نبوته ورسالته نفسه الكريمة ، وما جاء به من النور والهدى ، كالطبيب الذي يستدل على إقنانه صناعة الطب ، بما يبيده من العلم والعمل الناجح فيها . وقد بسط هذا في مواضعه . وهذا معنى قوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)

[٥٠] (فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ، وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

[٥١] (وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

[٥٢] (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يَوْمِنُونَ)

[٥٣] (وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ)

[٥٤] (أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرُهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفقُونَ)

[٥٥] (وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ)

« قُلْ » أى لهؤلاء الجاحدين: قد مضى دور الخوارق التى تفترحونها، ونسخ تعالى من تلك الآيات بما أتى بخير منها ، وهو آية الهداية التى تصلح بها قلوب العالمين. والذكرى التى ترع النفوس عن الشر ، وتحملها على الخير . بحيث يظهر أثرها الحسن فى المؤمنين ، ويحق الشقاء على الجاحدين المعاندين . فإن يك هذا سحراً ، ولديكم ما هو أهدى « فَأَتُوا بِكُتُبٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا » أى من التوراة والقرآن « أَتَّبِعْهُ » أى ولا أعاندكم مثل ما تعاندوننى « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » أى فى أنهما سحران مختلفان . أو فى أنه يمكن الإتيان بما هو أهدى منهما .

قال أبو السعود: ومثل هذا الشرط مما يأتى به من يدل بوضوح حجته وسنوح محجته . لأن الإتيان بما هو أهدى من الكتابين ، أمر بين الاستحالة . فيوسع دائرة الكلام للتبكي والإحجام . انتهى .
أى لالشك والتردد .

قال الشهاب : وهذا جواب عما يقال أن عدم إتيانهم به معلوم . وهذا كما يقول المدلّ : إن كنت صديقك القديم ، فعاملنى بالجهل . وكذا فى إيراد كلمة (إن) مع امتناع صدقهم ، نوع تهكم بهم « فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ » أى فلم يأتوا بذلك الكتاب ، ولم يتابعوا الكتابين « فَأَعْلَمَ أَنَّهَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ » أى الزائفة من غير برهان « وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ أَتَّبَعُ هَوَاهُ بَغْيِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ » الاستفهام إنكارى للنفى . أى لأحد أضل منه . كيف لا؟ وهو أظلم الظلمة ، بتقديم هواه على هدى الله . كما قال تعالى « إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » أى الذين ظلموا أنفسهم بالانهماك فى اتباع الهوى ، والإعراض عن الآيات الهادية إلى الحق المبين .

قال الرازى: وهذا من أعظم الدلائل على فساد التقليد، وأنه لا بد من الحجة والاستدلال . انتهى « وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » أى أنزلنا عليهم القرآن متواصلاً، بعضه إثر بعض، وعداً ووعيداً، وقصصاً وعبراً، ومواعظ، حسبما تقتضيه الحكمة والمصاحبة إرادة أن يتذكروا فيفلحوا . وقرئ (وصلنا) بالتشديد والتخفيف « الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ » أى القرآن « هُمْ بِهِ يَوْمُنُونَ » وهم مؤمنو أهل الكتاب وأولياؤهم « وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ » أى القرآن « قَالُوا ءَأَمَّنَّا بِهِ » إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ » أى من قبل نزوله « مُسْلِمِينَ » أى متقادين له، لما عهدنا من المبررات به . أو على دين الإسلام ، وهو إخلاص الوجه له تعالى بدون شرك « أُولَئِكَ » أى الموصوفون بما ذكر من النعوت « يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ » معنى مرة على إيمانهم بكتابهم ، ومرة على إيمانهم بالقرآن « بِمَا صَبَرُوا » أى بصبرهم وثباتهم على الإيمانين . أو على الإيمان بالقرآن قبل النزول وبعده . أو على أذى من نابذهم « وَيَذَرُونَ » أى يدفعون « بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ » أى بالحكمة الطيبة ، ما يسوؤهم « وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ » أى للبؤساء والفقراء ، وفى سبيل البر والخير ، فراراً عن وصمة الشح ، وتنبهاً لآفاته . « وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ » أى من الجهال . وهو كل ما حقه أن يلغى ويترك ، من العبث وغيره « أَعْرَضُوا عَنْهُ » أى تكريماً للنفس عن ملابسة الأدياء ، وتشريعاً للسمع عن سقط باطلهم « وَقَالُوا » أى لهم « لَنَأَعْمَلُنَّ وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَّمْ عَلَيْكُمْ » أى بطريق التوديع والتاركة ؛ وعن الحسن رضى الله عنه : كلمة حلم من المؤمنين « لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ » أى لا نريد مخالطهم وصحبهم ، ولا نريد مجازاتهم بالباطل على باطلهم . قال الرازى : قال قوم : نسخ ذلك بالأمر بالقتال . وهو بعيد . لأن ترك المسافهة مندوب . وإن كان القتال واجبا .

تنبيه :

قال ابن كثير عن سعيد بن جبير : إنها نزلت فى سبعين من القيسيين . بعثهم النجاشى .

فلما قدموا على النبي ﷺ قرأ عليهم ^(١) (يسـ * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ) حتى ختمها . فجعلا يكون واسمها .

وقال محمد بن إسحق في (السيرة) : ثم قدم على رسول الله ﷺ وهو بمكة ، عشرون رجلا أو قريب من ذلك من النصارى ، حين بلغهم خبره من الحبشة . فوجدوه في المسجد . فجلسوا إليه وكلّموه وسألوه . ورجال من قريش في أندية . حول الكعبة . فلما فرغوا من مساءلة رسول الله ﷺ عما أرادوا ، دعاهم إلى الله تعالى وتلا عليهم القرآن . فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع . ثم استجابوا لله وآمنوا به ، وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره . فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام في نفر من قريش . فقالوا لهم : خيبتكم الله من ركب . بعثكم من وراءكم من أهل دينكم تبادون لهم ، لتأتوهم بخبر الرجل . فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقم دينكم وصدقتموه فيما قال . ما نعلم ركبا أحق منكم . أو كما قالوا لهم . فقالوا لهم : سلام عليكم . لا نجاهلكم . لنا ما نحن عليه ، ولكم ما أنتم عليه ، لم نأل أنفسنا خيرا .

قال : ويقال إن النفر النصارى من أهل نجران . فآله أعلم أى ذلك كان .
قال : ويقال ، والله أعلم ، إن فيهم نزلت هذه الآيات (الَّذِينَ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ) إلى قوله (لَا تَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ) .

قال : وسألت الزهري عن هذه الآيات فيمن نزلت ؟ قال : ما زلت أسمع من علمائنا أنهم نزلن في النجاشي وأصحابه رضي الله عنهم . والآيات الآتي في سورة المائدة ^(٢) (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسَبُوا قَسَبًا) إلى قوله ^(٣) (فَأَكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ) .

(١) [٣٦ / يس / ٢١] . (٢) [٥ / المائدة / ٨٢] .

(٣) [٥ / المائدة / ٨٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ
أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

[٥٧] (وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُخَاطِفُ مِنْ أََرْضِنَا ، أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ
لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِبِّيَ إِلَيْهِ مَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رَّزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

[٥٨] (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا ، فَتِلْكَ مَسَكِنُهُمْ
لَمْ تَسْكُنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ، وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ)

« إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ » أى لا تقدر أن تدخل في الإسلام كل من أحببت أن
يدخل فيه من قومك وغيرهم « وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » أى أن يهديه فيدخله في
الإسلام بمعنائه « وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ » أى القابلين للهداية . لاطلاعه على استعدادهم
وكونهم غير مطبوع على قلوبهم .

تنبيه :

روى البخارى^(١) فى (صحيحه) فى تفسير هذه الآية عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال :
لما حضرت أبا طالب الوفاة جاء رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبى أمية
ابن المغيرة . فقال : أى عم ! قل لا إله إلا الله ، كلمة أحاج لك بها عند الله . فقال أبو جهل
وعبد الله بن أبى أمية : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها

(١) أخرجه فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٢٨ - سورة القصص ، ١ - باب قوله إِنَّكَ

لا تهدي من أحببت ، حديث ٧١٧

عليه ، ويعيدانه بتلك المقالة ، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم : على ملة عبد المطلب . وأبى أن يقول لا إله إلا الله .

قال فقال رسول الله ﷺ : والله ! لأستغفرنّ لك ما لم أُنّه عنك . فأنزل الله ^(١) (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ) وأنزل الله في أبي طالب، فقال لرسول الله ﷺ ^(٢) (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) .

قال ابن كثير : وهكذا رواه مسلم ^(٣) في صحيحه والترمذي ^(٤) أيضا من حديث يزيد بن كيسان عن أبي حازم ، عن أبي هريرة . والإمام أحمد من حديثه أيضا . وهكذا قال ابن عباس وابن عمر ومجاهد والشعبي وقتادة : إنها نزلت في أبي طالب حين عرض عليه الإسلام . انتهى . وقال ابن حجر في (فتح الباري) : لم تختلف النقلة في أنها نزلت في أبي طالب . انتهى . وقدمنا مرارا معنى قولهم نزلت الآية في كذا . فانظر المقدمة ، وغير موضع بعدها .

ثم ذكر تعالى من نعمتهم ، شبهة استروح بها الحرث بن عامر بن نوفل ، فيما رواه النسائي ، بقوله سبحانه « وَقَالُوا إِنَّا نَتَّبِعُ الْهُدَى مَعَكَ » أى ونخالف العرب « نَتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا » أى مكة . فرد عليهم تعالى بقوله « أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا » أى : ألم نعصمهم من عدوهم ونجعل مكانهم حرما ذا أمنٍ ، لحرمة البيت الحرام ، الذى تتناجز العرب حوله وهم آمنون « يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » أى جهلة لا يتفكرون . ولو علموا أن ذلك رزق من عند الله ، لعلموا أن الخوف والأمن من عنده ، ولما خافوا التخطف إذ آمنوا به وخلعوا أنداده . « وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِكَ مَ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا » أى كفرت بها فلم تحفظ حق الله فيها فدمرت « فَتِلْكَ مَسْكِنُهُمْ

(١) [٩ / التوبة / ١١٣] . (٢) [٢٨ / القصص / ٥٦] .

(٣) أخرجه في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث ٣٩ (طبعنا)

(٤) أخرجه في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٢٨ - سورة القصص

لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ « أَى منهم . إذ لم يخلفهم أحد يتصرف تصرفهم . وموصوف (قليلا) المستثنى ، إما (زمان) أى إلا زمانا قليلا ، إذ لا يسكنها إلا المارة يوما أو بعض يوم . وإما (مكان) أى إلا مكانا قليلا يصح لسكنى البعض ، واندثر الباقي . أو (مصدر) أى سكنا قليلا من شؤم معاصيهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا ، وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ)

[٦٠] (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا ، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

[٦١] (أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

[٦٢] (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ)

« وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا » أى الناطقة بالحق . ويدعوهم إليه بالترغيب والترهيب . وذلك لإلزام الحجة وقطع المذرة « وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ » أى بالكفر بالآيات وتكذيب الرسل سعيًا بالفساد ، وإباء عن سبيل الصلاح والرشاد « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا » أى فهو مما يتمتع ويتزين به أياما قلائل . وهى مدة الحياة المتقضية « وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ » أى متاعا وزينة فى نفسه ، خلوه عن شوائب الألم « وَأَبْقَىٰ » لأنه أبدى لا يزول « أَفَلَا تَعْقِلُونَ * أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا » أى بإيمانه وعمله الصالح « فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَّعَ

أُحْيَوُا الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ « أَى من الذين أحضروا للحساب أو للنار أو العذاب .

قال الشهاب : وقد غلب لفظ (المحضر) في القرآن في المذهب . وإليه أشار الزخشرى ، وصرح به في البحر « وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ » .
القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ، تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ ، مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ)

[٦٤] (وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ ، لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ)

[٦٥] (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ)

[٦٦] (فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ)

[٦٧] (فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَسَيَأْتِيهِ الْفُلْحَيْنُ)

[٦٨] (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ، مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ، سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

« قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ » أى وجب وثبت مقتضاه . وهو لحوق الوعيد بهم . والمراد بهم ، رؤساء الضلال ، وقادة الكفر والفساد « رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا » أى أضللناهم . قال أبو السعود : ومرادهم بالإشارة ، بيان أنهم يقولون مايقولون بمحض منهم . وأنهم غير قادرين على إنكاره وردّه « أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا » أى أضللناهم بالسوسة والتسويل ، كما ضللنا باختيارنا ، وإيثار مايفنى على مايبقى « تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ » أى من الكفر والشرك والمعاصى . أو منهم وما اختاروه « مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ » أى بل كانوا يعبدون

أَهْوَاهُمْ وَشَهَوَاتِهِمْ «وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ» ليشفعوا لكم «فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ» أى تمنوا ذلك لينقذوا من العذاب العظيم «وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَأَاجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ» أى الداعين إلى الهداية وإصلاح الأعمال والأخلاق «فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ» أى فصارت الأنباء كالعمى عليهم لا تهتدى إليهم . وأصله (فعموا عن الأنباء) لكنه عكس مبالغة . قال الشهاب: ففيه استعارة تصريرية تبعية . استعير العمى لعدم الاهتداء . فهم لا يهتدون للأنباء . ثم قلب للمبالغة . فجعل الأنباء لا تهتدى إليهم . وضمن معنى الخفاء . فعدى بـ (على) . ففيه أنواع من البلاغة : الاستعارة والقلب والتضمن . والمراد بالأنباء ما أجابوا به الرسل . أو ما يعمها وغيرها من كل ما يمكن الجواب به « فَهَمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ » أى لا يسأل بعضهم بعضا عن الجواب ، لفرط الدهشة . أو لعلمه بأنه مثله فى العجز عن الجواب . أو لعجزهم عن النطق وكونهم مختوما على أفواههم . ثم إن هذا الوعيد لاحق للمصر « فَأَمَّا مَنْ تَابَ » أى من الشرك «وَأَمِنْ وَعَمِلَ صَالِحًا فَغَسَّى أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ» أى أن يفلح عند الله . و (عسى) من الكرام تحقيق . ويجوز أن يراد ترجى التائب وطمعه . كأنه قال: فليطمع أن يفلح . قاله الزمخشري « وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ » أى بمقتضى مشيئته وعنايته، ما يريد « مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ » أى فى ذلك . بل الخيرة له فى أفعاله وهو أعلم بوجوه الحكمة فيها ، ليس لأحد من خلقه أن يختار عليه .

قال الزمخشري : الخيرة من التخير ، كالطيرة من التطير ، تستعمل بمعنى المصدر وهو التخير ، وبمعنى التخير . كقولهم (محمد خيرة الله من خلقه) والقصد تقرير انفراد بالالوهية وحده . ولذا قال « سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ » من الأصنام والأنداد التى لا تخلق شيئا ولا تختار .

تنبيه :

للإمام ابن القيم فى مقدمة (زاد المعاد) مقالة فى هذه الآية الكريمة ، جديرة بأن تؤثر

عنه . قال رحمه الله : وبعد . فإن الله سبحانه وتعالى هو المتفرد بالخلق والاختيار من المخلوقات . قال تعالى (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ) وليس المراد ههنا بالاختيار، الإرادة التي يشير إليها المتكلمون بأنه الفاعل المختار ، وهو سبحانه كذلك . وليس المراد بالاختيار هنا هذا المعنى . وهذا الاختيار داخل في قوله (يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ) فإنه لا يخلق إلا باختياره . ودخل في قوله تعالى (مَا يَشَاءُ) فإن المشيئة هي الاختيار . وإنما المراد بالاختيار هنا الاجتناء والاصطفاء . فهو اختيار بعد الخلق . والاختيار العام اختيار قبل الخلق . فهو أعم وأسبق . وهذا أخص وهو متأخر . فهو اختيار من الخلق والأول اختيار للخلق . وأصح القولين أن الوقف التام على قوله (وَيَخْتَارُ) ويكون (ما كان لهم الخيرة) نفياً . أى ليس هذا الاختيار إليهم ، بل هو إلى الخالق وحده . فكأنه هو المتفرد بالخلق ، فهو المتفرد بالاختيار منه . فليس لأحد أن يخلق ولا يختار سواه . فإنه سبحانه أعلم بمواقع اختياره ومحالّ رضاه ، وما يصلح للاختيار مما لا يصلح له . وغيره لا يشاركه في ذلك بوجه . وذهب بعض من لا تحقيق عنده ولا تحصيل ، إلى أن (ما) في قوله تعالى (مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ) موصولة وهي مفعول (يختار) أى ويختار الذى لهم الخيرة . وهذا باطل من وجوه : أحدها - أن الصلة حينئذ تخلو من العائد . لأن الخيرة مرفوع بأنه اسم (كان) و (لهم) خبره . فيصير المعنى : ويختار الذى كان الخيرة لهم . وهذا التركيب محال من القول . فإن قيل : يمكن تصحيحه بأن يكون العائد محذوفاً ، ويكون التقدير : ويختار الذى كان لهم الخيرة فيه . أى ويختار الأمر الذى كان لهم الخيرة في اختياره . قيل : هذا يفسد من وجه آخر . وهو أن هذا ليس من المواضع التي يجوز فيها حذف العائد . فإنه إنما يحذف مجروراً إذا جر بحرف جر الموصول بمثله ، مع اتحاد المعنى نحو قوله تعالى (يَا كُلُّ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ) ونظائره . ولا يجوز أن يقال جاءنى الذى مررت ، ورأيت الذى رغبت ، ونحوه . الثانى - أنه لو أريد هذا المعنى لنصب (الخيرة) وشغل فعل الصلة بضمير يعود على الموصول . فكأنه يقول : ويختار ما كان لهم

الخيرة . أى الذى كان هو عين الخيرة لهم . وهذا لم يقرأ به أحد البتة . مع أنه كان وجه الكلام على هذا التقدير . الثالث - أن الله سبحانه يحكى عن الكفار اقتراحهم فى الاختيار وإرادتهم أن يكون الخيرة لهم . ثم ينفى هذا سبحانه عنهم ، ويبين تفرده بالاختيار ، كما قال تعالى (١) (وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ، نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْخِيًّا ، وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ) فأنكر عليهم سبحانه تخييرهم عليه . وأخبر أن ذلك ليس إليهم . بل إلى الذى قسم بينهم معاشهم المتضمنة لأرزاقهم ومدد آجالهم . وكذلك هو الذى يقسم فضله بين أهل الفضل ، على حسب علمه بمواقع الاختيار ، ومن يصلح له ممن لا يصلح . وهو الذى رفع بعضهم فوق بعض درجات . وقسم بينهم معاشهم ودرجات التفضيل . فهو القاسم ذلك وحده لا غيره . وهكذا هذه الآية . بين فيها انفراده بالخلق والاختيار . فالله سبحانه أعلم بمواقع اختياره كما قال (٢) (وَإِذَا جَاءَهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ . اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يُجْعَلُ رِسَالَتُهُ) أى الله أعلم بالحل الذى يصلح لاصطفائه وكرامته وتخصيصه بالرسالة والنبوة ، دون غيره . الرابع - أنه نزه نفسه سبحانه عما اقتضاه شركهم من اقتراحهم واختيارهم فقال « مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ » ولم يكن شركهم مقتضيا لإثبات خالق سواه ، حتى نزه نفسه عنه . فتأمل فيه فى غاية اللطف .

الخامس - إن هذا نظير قوله فى الحج (٣) (إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِذُوهُ مِنْهُ ، ضَعُفُ الطَّالِبِ وَالْمُطْلُوبِ * مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) ثم قال (٤) (اللَّهُ يَصْطَفِي مَن

(١) [٤٣ / الزخرف / ٣١ و ٣٢] . (٢) [٦ / الأنعام / ١٢٤] .

(٣) [٢٢ / الحج / ٧٣ و ٧٤] . (٤) [٢٢ / الحج / ٧٥ و ٧٦] .

أَلَمْ لَسِيكَ رَسُولًا مِّنَ النَّاسِ، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) وهذا نظير قوله في القصص (١) (وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ) ونظير قوله في الأنعام (٢) (اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ) فأخبر في ذلك كله عن علمه المتضمن لتخصيصه محال اختياره، بما خصصها به بعلمه، بأنه يصلح له دون غيرها فتقدير السياق في هذه الآيات تجده متضمناً لهذا المعنى دائراً عليه . والله أعلم .

السادس - إن هذه الآية مذكورة عقيب قوله (٣) (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ * فَعَمِيَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ * فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَسَىٰ أَن يَكُونَ مِّنَ الْفَاحِشِينَ * وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ) فكما خلقهم وحده سبحانه ، اختار منهم من تاب وآمن وعمل صالحاً ، فكانوا صفوته من عباده ، وخيرته من خلقه ، وكان هذا الاختيار راجعاً إلى حكمته وعلمه سبحانه ، لمن هو أهل له . لا إلى اختيار هؤلاء المشركين واقتراحهم . فسبحان الله وتعالى عما يشركون .

ثم قال ابن القيم رحمه الله تعالى : (فصل) فإذا تأملت أحوال هذا الخلق رأيت هذا الاختيار والتخصيص فيه، دالاً على ربوبيته تعالى ووحدانيته وكمال حكمته وعلمه وقدرته. وأنه الله الذي لا إله إلا هو، فلا شريك له يخلقه، ويختار كاختياره، ويدبر كتدبيره. فهذا الاختيار والتدبير والتخصيص، المشهور أثره في هذا العالم، من أعظم آيات ربوبيته، وأكبر شواهد وحدانيته، وصفات كماله وصدق رسوله. فنشير منه إلى شيء يسير يكون منبهاً على ما وراءه، دالاً على ما سواه . نخلق الله السموات سبعاً. فاختار العليا منها فجعلها مستقرَّ المقربين من ملائكته واختصها بالقرب من كرسيه ومن عرشه . وأسكنها من شاء من خلقه . فلها مزية وفضل على سائر السموات. ولولم يكن لإقربها منه تبارك وتعالى. وهذا التفضيل والتخصيص، مع تساوي

(١) [٢٨ / القصص / ٦٩] . (٢) [٦ / الأنعام / ١٢٤] .

(٣) [٢٨ / القصص / ٦٥ - ٦٨] .

مادة السموات، من أبين الأدلة على كمال قدرته وحكمته، وأنه يخلق ما يشاء ويختار. ومن هذا تفضيله سبحانه جنة الفردوس على سائر الجنان، وتخصيصها بأن جعل عرشه سقفا. وفي بعض الآثار: إن الله سبحانه غرسها بيده واختارها لخيرته من خلقه. ومن هذا اختياره من الملائكة، المصطفين منهم على سائرهم. كجبريل وميكائيل وإسرافيل. وكذلك اختياره سبحانه للأنبياء من ولد آدم. واختيار الرسل منهم واختياره أولى العزم منهم. واختياره منهم الخليلين إبراهيم ومحمد صلى الله عليه وسلم. ومن هذا اختياره سبحانه ولد إسماعيل من أجناس أنواع بني آدم. ثم اختار منهم بني كنانة بن خزيمه. ثم اختار من ولد كنانة قريشاً. ثم اختار من قريش بنى هاشم. ثم اختار من بنى هاشم، سيد ولد آدم محمداً ﷺ. وكذلك اختار أصحابه من جملة العالمين. واختار منهم السابقين الأولين. واختار منهم أهل بدر وأهل بيعة الرضوان. واختار لهم من الدين أكمله، ومن الشرائع أفضلها، ومن الأخلاق أزكاها وأطيبها وأطهرها. واختار أمته ﷺ على سائر الأمم. ومن هذا اختياره سبحانه وتعالى من الأماكن والبلاد خيرها وأشرفها. وهى البلد الحرام. فإنه سبحانه اختاره لنبيه، وجعله مناسك لعباده. وأوجب عليهم الإيمان إليه من القرب والبعد من كل فج عميق. فلا يدخلونه إلا متواضعين متخشعين متذللين، كاشفي رؤوسهم، متجردين عن لباس أهل الدنيا. وجعله حرماً آمناً لا يسفك فيه دم، ولا تعضد به شجرة، ولا ينفر له صيد ولا يختل خلوه، ولا يلتقط لقطته للتملك. بل للتعريف ليس إلا. ومن هذا تفضيله بعض الأيام والشهور على بعض. نفي الأيام عند الله يوم النحر. وهو يوم الحج الأكبر كما في (السنن). وأفضل الشهور شهر رمضان. وعشره الأخير أفضل الليالي. وليلة القدر أفضل من ألف شهر. ويوم الجمعة أفضل أيام الأسبوع. ويوم عرفة ويوم النحر أفضل أيام العام. انتهى ملخصاً.

وقد أوسع المقال وجود الاستدلال. فرحمه الله ورضي عنه وأرضاه. وقوله تعالى «سُبْحَنَ اللَّهُ» أى تنزيهاً لله الذى لا يزاحم اختياره اختياراً «وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ» .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ)

[٧٠] (وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ، وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

[٧١] (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَضِيَاءٌ، أَفَلَا تَسْمَعُونَ)

« وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ » أى تخفى « صُدُورُهُمْ » أى من السكيد والمكر « وَمَا يُعْلِنُونَ » أى من الأقوال والأفعال « وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ » أى وهو المستحق للألوهية والعبادة وحده « لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ » أى لأنه المولى للنعم كلها فى الدارين « وَلَهُ الْحُكْمُ » أى القضاء النافذ فى كل شىء . يقهر كل شىء على مقتضى مشيئته . ويحكم عليه بموجب إرادته « وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » أى بالبعث للجزاء « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَضِيَاءٌ أَفَلَا تَسْمَعُونَ » أى هذا الكلام الحق ، سماع تدبر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَلِيلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ، أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

[٧٣] (وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

[٧٤] (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ)

[٧٥] (وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

[٧٦] (إِنَّ قُرُونًا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ، وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ وَ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ)

« قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَلِيلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَ فَلَا تُبْصِرُونَ » أى هذه المنفعة فتقوموا بشكرها « وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ » أى فى الليل « وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ » أى فى النهار « وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » أى نعمه الظاهرة والباطنة ، والجسدية والروحية ، باستعمالها فواجب من طاعته . وذلك فيما خلقت له « وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ * وَنَزَعْنَا » أى وأخرجنا « مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا » أى نبياً يشهد عليهم بما كانوا عاينه . كقوله تعالى^(١) (فَكَيفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ) « فَقُلْنَا » أى لكل أمة من تلك الأمم « هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ » أى على ما أنتم عليه . أحق هو أم لا؟ فعجزوا عن آخرهم . وظهر برهان النبي ، كقَالَ تعالى « فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ » أى فى الألوهية ، لا يشاركه فيها أحد « وَضَلَّ عَنْهُمْ » أى غاب عنهم غيبة الضائع « مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ » أى من الباطل والمذاهب المختلفة ، والطرق المتشعبة المتفرقة « إِنَّ قُرُونًا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ » أى من شا كلتهم فى الكفر والطغيان . وقوم موسى ، جماعته الذين أرسل إليهم ، وهم القبط وطاغيتهم فرعون « فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ » أى بالكبر والاستطالة عليهم ، لما غلب عليه الحرص ومحبة الدنيا ، لغروره وتعززه برؤية زينة نفسه « وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ » أى من الأموال

(١) [٤ / النساء / ٤١] .

المدخرة « مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ » أى مفاتيح صناديقه. على حذف مضاف. أو الإضافة لأدنى ملابسة. وقيل خزائنه « لَتَنُوذِرُنَّ » أى تثقل « بِالْمُصْبَةِ » أى الجماعة الكثيرة من الرجال أو البغال « أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ وَقَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ » أى بزخارف الدنيا فرحاً يشغلك عن الشكر فيها والقيام بحقها « إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ » أى هذا الفرح، لما فيه من إشارتها عن الآخرة، والرضا بها عنها، والإخلاد إليها. وذلك أصل كل شر ومبعث كل فساد.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (وَأَتَّبِعْ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ، وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ، وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ، وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ)

[٧٨] (قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ، أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِن الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ، وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ)

« وَأَتَّبِعْ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ » أى اطلب من الغنى الذى تفضل الله به عليك، بعد الفاقة « الدَّارَ الْآخِرَةَ » أى بأن تفعل فيه أفعال الخير من أصناف الواجب والمندوب. وتجمله زائدك إلى الآخرة « وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا » وهو أن تأخذ منه ما يصلحك ويرفئك « وَأَحْسِنْ » أى إلى الناس. أو اعمل الإحسان من وجوهه المعروفة « كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ » أى بهذا المال الذى جعله سبب صلاحها « إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ * » قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي » أى بطرق التجارة أو المكاسب « أَوَلَمْ يَعْلَم » أى مما سمع بالتواتر « أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِن الْقُرُونِ » أى الكثيرة، بحيث صارت سنة له « مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً » أى بالأموال والأنباع « وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ »

الْمُجْرِمُونَ « أَى لَا يَتَوَقَّفُ إِهْلَاكُهُ بِإِيْمَانِهِ عَلَى سَوَالٍ ، لِيَعْتَزُّوا عَنْهَا . بَلْ مَتَى حَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ
بِفَسْقِهِمْ ، أَهْلَكَهُمْ بِنِعْمَةِ بِلَامَعَاتِبَةٍ وَطَلَبِ عَذْرِ . ثُمَّ أَشَارَ تَعَالَى إِلَى أَنَّ قَارُونَ لَمْ يَعتَبِرْ بِذَلِكَ ،
وَلَا بِنَصِيحَةِ قَوْمِهِ ، بِقَوْلِهِ سَبْحَانَهُ :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ، قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا

يَلْبَسْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)

[٨٠] (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَن ءَامَنَ وَعَمِلَ

صَالِحًا ، وَلَا يُلَقَّهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ)

[٨١] (فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ

مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُتَنَصِّرِينَ)

[٨٢] (وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَآنَ اللَّهُ يَنْسُطُ

الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ، لَوْ لَا أَنَّ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا

لَخَسَفَ بَنَّا ، وَيَكَآنَهُو لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ)

« فَخَرَجَ » أى قَارُونَ بِأَعْيَانِهِ « عَلَى قَوْمِهِ » فى زِينَتِهِ « أى مُتَعَرِّضًا بِالنَّظَرِ فِيهَا » قَالَ الَّذِينَ

يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا « أى جَرِيًا عَلَى سَنَنِ الْجَبَلَةِ الْبَشَرِيَّةِ ، مِنْ الرِّغْبَةِ فِي السَّعَةِ وَالْيَسَارِ

« يَلْبَسْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * » وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ

وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ « أى مِمَّا تَمَنُّونَهُ » لِمَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّهَا « أى

هَذِهِ الْكَلِمَةُ الَّتِي فَاهَ بِهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ . أَوِ الْجَنَّةَ . أَوِ السَّيْرَةَ وَالطَّرِيقَةَ ، وَهِيَ الْإِيمَانُ

وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ « إِلَّا الصَّابِرُونَ » أى عَلَى الطَّاعَاتِ عَنِ الشَّهَوَاتِ ، وَعَلَى زِمَامِ النَّفْسِ أَنْ

تجربى فى أعقاب المزخرفات . و(وبلك) فى الأصل دعاء بالهلاك . والمراد به هنا الزجر عن هذا التمنى ، مجازا . وهو منصوب على المصدرية « فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ » أى المشتعلة على أمواله « الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ » أى يدفع العذاب عنه « وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ » أى بقوة نفسه وماله « وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَسْكَنَّ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ » أى من شق وسعيد « وَيَقْدِرُ » أى يقبض . فلا دلالة فى البسط على السعادة . ولا فى القبض على الشقاوة . بل يفعل سبحانه كل واحد من البسط والقدر بمحض مشيئته ، لا لكرامة توجب البسط ، ولا لهوان يقتضى القبض « لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا » أى بعدم إيتائه متمنا « لَخَسَفَ بِنَا » أى كخسف به « وَيَسْكَأَنَّه » أى يفلح الكافرين « أى لنعمة الله ، فى صرفها فى غير سيئها . أو المكذبون برسله اغترارا بزخارفهم .

فائدة :

فى (ويكأن) مذاهب :

الأول - أن (وى) كلمة برأسها . وهى اسم فعل ، معناها أعجب . أى أنا . والكاف للتعليل . و (أن) وما فى حيزها مجرورة بها . أى أعجب لأن الله يبسط الرزق الخ . وقياس هذا القول أن يوقف على (وى) وحدها ، وقد فعل ذلك الكسائى .

الثانى - أنه مركب من (وى) للتعجب (وكأن) للتشبيه . والمعنى : ما أشبه الأمر أن الله يبسط . أى ما أشبه أمر الدنيا والناس مطلقا إلى آخره ، أمر قارون وما شوه من قصته . والأمر مأخوذ من الضمير . فإنه للشأن . والمراد من تشبيه الحال بهذه الحال ، أنه لتحقيقه وشهرته ، يصلح أن يشبه به كل شئ . كما أشار إليه فى الكشف .

الثالث - قال بعضهم : (كأن) هنا للتشبيه . إلا أنه ذهب منها معناه . وصارت للخبر واليقين . وهذا أيضا يناسبه الوقف على (وى) .

الرابع - زعم الهمداني في (الفرائد) أن مذهب سيبويه والخليل أن (وى) للتندم. و(كأن) للتعجب. والمعنى : ندموا متعجبين في أن الله يبسط الخ.

قال الشهاب : وكون (كأن) للتعجب ، لم يعهد .

الخامس - ذهب الكوفيون إلى أنه مركب من (ويك) بمعنى (ويك) تخفف بحذف اللام. والعامل في (أن) اعلم ، المقدر. والكاف على هذا ضمير في محل جر. وهذا يناسب الوقف على الكاف . وقد فعله أبو عمرو .

السادس - أن (ويك) كلمة برأسها. والكاف حرف خطاب. ويقرب هذا مما قبله. قال أبو البقاء : وهو ضعيف لوجهين : أحدهما - أن معنى الخطاب هنا بعيد. والثاني - أن تقدير (وى) اعلم ، لا نظير له ، وهو غير سائغ في كل موضع . انتهى .

السابع - أن (ويكأن) كلها كلمة مستقلة بسيطة . ومعناها ألم تر . وربما نقل ذلك عن ابن عباس . ونقل الفراء والكسائي أنها بمعنى (أما ترى إلى صنع الله) وحكى ابن قتيبة أنها بمعنى (رحمة لك) في لغة حمير . ولم يرسم في القرآن إلا (ويكأن) و(ويكأنه) متصلة في الموضعين . فعامة القراء اتبعوا الرسم . والكسائي وقف على (وى) وأبو عمرو على (ويك) .

هذا ما يستفاد من حواشي القاضى والسمين . وعندى أنها مركبة من (وى) للتعجب و(كأن) التى للتحقيق وهو أحد معانيها المعروفة . والوقف على (وى) . ولا يشكل على ذلك كتابتها في المصاحف متصلة ، لأن الكتابة - كما قال ابن كثير - أمروضى اصطلاحى ، والمرجع إلى اللفظ العربى .

وقد اتفق اللغويون على أن (وى) كلمة تعجب . يقال (ويك) و(وى لزيد) وتدخل على (كأن) المخففة والمشددة ، ومن شواهد الأولى قول الشاعر :

سَأَلْتَانِي الطَّلَاقَ أَنْ رَأَيْتَانِي قَلَّ مَالِي . قَدْ جِئْتَانِي بِنُكْرٍ
وَيْ كَأَنْ مِنْ يَكُنْ لَهُ نَشَبٌ يُحْ بَبْ وَمَنْ يَفْتَقِرُ يَعِشْ عَيْشَ ضُرِّ

وهذا البيت مما يدل على ما استظهرته ، بله الاستعمال إلى هذه الأجيال .

قال ابن كثير : وقد ذكر ههنا إسرائيليات ، أضربنا عنها صفحاً . ونحن تأسيفنا به ، بل فقناده في الإضراب عن كثير من مروية ، الموقوف والضعيف الذي سوّدت به الصحف . ثم أشار تعالى إلى مقابل حال قارون ، من حال خلص عباده ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (تِلْكَ الدَّارُ الْأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

[٨٤] (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا ، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« تِلْكَ الدَّارُ الْأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ » أي غلبة وتسلطاً بسوء وتكبر « وَلَا فَسَادًا » أي بظلم وعدوان وصدّ عن سبيل الله تعالى « وَالْعَاقِبَةُ » أي النهاية الحميدة « لِلْمُتَّقِينَ » أي الذين يتقون ما لا يرضاه تعالى من الأقوال والأفعال .

قال الزمخشري ، قدس الله روحه : لم يعلق الموعد بترك العلوّ والفساد . ولكن بترك إرادتهما ، وميل القلوب إليهما . كما قال ^(١) (وَلَا تَرَوْهُ كُنُوزًا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا) فعلق الوعيد بالركون . وعن علي رضي الله عنه : إن الرجل ليعجبه أن يكون شركاً نعله أجود من شرك نعل صاحبه . فيدخل تحتهما .

وعن الفضيل أنه قرأها ثم قال : ذهبت الأمانى ههنا . وعن عمر بن عبد العزيز ، أنه كان يرددها حتى قبض . ومن الطَّمَاع من يجعل العلوّ لفرعون ، والفساد لقارون ، متعلقاً بقوله ^(٢) : (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ) ^(٣) (وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ) ويقول : من لم يكن

(١) [١١ / هود / ١١٣] . (٢) [٢٨ / القصص / ٤] . (٣) [٢٨ / القصص / ٧٧] .

مثل فرعون وقارون ، فله تلك الدار الآخرة . ولا يتدبر قوله (وَأَلْمِذِينَ لَلْمُتَّقِينَ) كما تدبره على والفضيل وعمررضى الله عنهم . «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ وَخَيْرٌ مِنْهَا، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» معناه : فلا يجزون إلا .. الخ . فوضع فيه الموصول والظاهر ، موضع الضمير ، تهمجين حالهم بتكرير إسناد السيئة إليهم ، ولزيادة تبغيض السيئة إلى قلوب السامين . ومعنى قوله (إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) أى مثله . وهذا من فضله العظيم وكرمه الواسع ، أن لا يجزى السيئة إلا بمثلها . ويجزى الحسنة بعشر أمثالها وسبعمائة . وهو معنى قوله (فَلَهُ وَخَيْرٌ مِنْهَا) كذا في الكشف .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ، قُلْ رَبِّىَ أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)

[٨٦] (وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ ، فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ)

« إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ » أى أوجب عليك تلاوته على الناس ، وتبليغه إليهم ، وصدعهم به «لَرَادُّكَ» أى بعد الموت «إِلَىٰ مَعَادٍ» أى مرجع عظيم . وهو المقام المحمود الذى وعدك أن يبعثك فيه . فتتوينا للتعظيم . ووجهه - كما فى (العناية) - أن المعاد صار كالحقيقة فى المحشر . لأنه ابتداء العود إلى الحياة ، ورده إلى ما كان عليه فاجعل معاده عظيما لعظمة مقامه فيه .

وقال ابن كثير : المعاد هو يوم القيامة . يسأله عما استراحه من أعباء النبوة . كما قال تعالى ^(١) (فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ) وقال تعالى ^(٢) (يَوْمَ يَجْمَعُ

(١) [٧ / الأعراف / ٦] . (٢) [٥ / المائدة / ١٠٩] .

اللَّهُ أَلْرُّ سُلٍّ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمْ) وقال^(١) (وَجَاءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ) وعن ابن عباس روايات : إلى يوم القيامة . إلى الموت . إلى الجنة أخرجت عنه من طرق . كما أسنده ابن كثير . والذي رواه البخاري والنسائي وابن جرير عن ابن عباس قال : (لرأدك) إلى مكة كما أخرجك منها . وعن الضحاك قال : لما خرج النبي ﷺ من مكة فبلغ الجحفة ، اشتاق إلى مكة . فنزلت الآية .

قال ابن كثير : وهذا يقتضي أن هذه الآية مدنية ، وإن كان مجموع السورة مكياً ، والله أعلم .

ثم قال : ووجه الجمع بين هذه الأقوال ، أن ابن عباس فسر ذلك تارة برجوعه إلى مكة ، وهو الفتح ، الذي هو عند ابن عباس أمانة على اقتراب أجل النبي ﷺ . كما فسر ابن عباس سورة (إذا جاء نصر الله والفتح) أنه أجل رسول الله ﷺ نعى إليه ، وكان ذلك بحضرة عمر ابن الخطاب ووافقه عمر على ذلك ، وقال : لا أعلم منها غير الذي تعلم . ولهذا فسر ابن عباس تارة أخرى قوله تعالى (لَرَأَآذُكَ إِلَى مَعَادٍ) بالموت . وتارة بيوم القيامة الذي هو بعد الموت . وتارة بالجنة التي هي جزاؤه على أدائه رسالة الله وإبلاغها إلى الثقلين الجن والإنس . ولأنه أكمل خلق الله على الإطلاق . انتهى . « قُلْ رَّبِّيَ أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِأُلهْدَى » يعني نفسه الكريمة . أى بما يستحقه من الثوبة « وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » يعنى المشركين . أى بما يستحقونه من العذاب . والجملة تقرير للوعيد السابق « وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ » أى ما كنت تظن ، قبل إنزال الوحي إليك ، أن الوحي ينزل عليك « إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ » أى ولكن لرحمة من ربك ألقى إليك « فَلَا تَكُونَنَّ ظَهيراً لِّلْكَافِرِينَ » أى معيناً لهم . ولكن نابذهم وخالفهم . وحكى الكرماني في (الغرائب) أن معناه : فلا تكن بين ظهرائهم ، وأنه أمر بالهجرة .

(١) [٣٩ / الزمر / ٦٩] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ ، وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

[٨٨] (وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ . لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ، لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

« وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ » أى عن تبليغها بعد إنزالها ، والأمر بالصدع بها لضيق صدرك من مكرهم . فإن الله معك ، ومُعَلِّ كَلِمَتِكَ ومؤيد دينك . ولذا قال « وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ » أى إلى عبادته وحده لا شريك له « وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ » .

قال القاضى : هذا وما قبله للتهميج وقطع أطماع المشركين عن مساعدته لهم . أى لأنه لا يتصور منه ذلك حتى ينهى عنه . فكأنه لما نهاه عن مظاهرتهم ومداراتهم ، قال إن ذلك مبغوض لى كالشرك . فلا تكن ممن يفعله . أو المراد نهى أمته ، وإن كان الخطاب له عليه السلام . كذا فى (العناية) .

« لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ » أى إياه (الوجه) يعبر به عن الذات كما قال (١) « كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » وفى قوله تعالى (هَالِكٌ) وجوه : حملة على المستقبل ، أو هو عرضة للهلاك والعدم ، أو هالك فى حد ذاته ، لأن وجوده ليس ذاتيا بل لاستناده إلى واجب الوجود ، فهو بالقوة وبالذات معدوم حالا . والمراد بالمعدوم ما ليس له وجود ذاتى . لأن وجود غيره كلا وجود . إذ هو فى كل آن قابل للعدم . وعن مجاهد والثورى (إلا وجهه) أى ما أريد به وجهه . حكاة (٢) البخارى فى (صحيحه) .

(١) [٥٥ / الرحمن / ٢٦ و ٢٧] .

(٢) أخرجه فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٢٨ - سورة القصص .

قال ابن جرير^(١) : ويستشهد من قال ذلك بقول الشاعر :

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ ذَنْبًا ، لَسْتُ مُخَصِّصِيهِ رَبُّ الْعِبَادِ ، إِلَيْهِ الْوَجْهُ وَالْعَمَلُ

قال ابن كثير : وهذا القول لا ينافي القول الأول . فإن هذا إخبار عن كل الأعمال ، بأنها باطلة ، إلا ما أريد به وجه الله تعالى من الأعمال الصالحة المطابقة للشريعة . انتهى .

وفيه بُعد وتكلف يذهب رونق النظم ، وماء الفصاحة . لا سيما وآى التنزيل يفسر بعضها بعضاً . والآية الثانية التى ذكرناها بمعنى هذه . وتلك لا تحتل ذاك المعنى ، فكذا هذه « لَهُ الْحُكْمُ » أى القضاء النافذ فى الخلق « وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » أى يوم معادكم فيجزىكم بأعمالكم ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٧ من الجزء العشرين (طبعة الحلبي الثانية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٩ - سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ

سميت بها لاشتغالها على آية^(١) (مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ) الآية، المشير إن من اعتمد على قوة الأصنام وحفظها عن العذاب كالعنكبوت، اعتمدت على قوة بيتها التي لا تحتل مسأدنى الحشرات والرياح، وحفظها عن الحر والبرد. وهذا أتم في الدعوة إلى التوحيد الذي هو أعظم مقاصد القرآن. أفاده المهايى .
وهى مكية . واستثنى من أولها إلى قوله تعالى^(٢) (وَلْيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ) وقوله^(٣) : (وَكَايْنٍ مِّنْ دَابَّةٍ) الآية ويقال إنها آخر منازل بمكة . وآيها تسع وستون . قال الدانى : متفق عليه .

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٤١] .
(٢) [٢٩ / العنكبوت / ١١] .
(٣) [٢٩ / العنكبوت / ٦٠] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (الْم)

[٢] (أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكَوْا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

[٣] (وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ

الْكَاذِبِينَ)

«الْم أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكَوْا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ» أى أحسب الذين أجروا كلمة الشهادة على ألسنتهم ، وأظهروا القول بالإيمان ، أنهم يتركون بذلك غير ممتحنين ، بل يحضنهم الله بضروب المحن ، حتى يبلى صبرهم وثبات أقدامهم وصحة عقائدهم . لتمييز المخلص من غير المخلص . كما قال ^(١) (لَتُبْلَوْنَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ، وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) وكقوله ^(٢) (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ) وقوله تعالى ^(٣) (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ، مَسَّتَهُمُ الْبَاسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ، أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ) وكل هذه الآيات وأمثالها مما نزل بمكة في تثبيت قلوب المؤمنين ، وتصبيرهم على ما كان ينالهم

(١) [٣ / آل عمران / ١٨٦] . (٢) [٣ / آل عمران / ١٤٢] .

(٣) [٢ / البقرة / ٢١٤] .

من أذى المشركين « وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » أى من أتباع الأنبياء عليهم السلام ، بضروب من الفتن من أعدائهم ، كما دَوَّن التاريخ اضطهادهم . أى فصبروا وماوهنوا لما أصابهم حتى علت كلمة الله « فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا » أى فى قولهم (ءَامَنَّا) « وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ » أى فيه : وذلك بالامتحان .

فإن قيل : يتوهم من صيغة الفعل أن علمه حدث ، مع أنه قديم . إذ علمه بالشيء قبل وجوده وبعده ، لا يتغير . يجاب بأن الحادث هو تعلق علمه بالمعلوم بعد حدوثه . وقال الناصر : فائدة . ذكر العلم ههنا ، وإن كان سابقاً على وجود المعلوم هو التنبيه بالسبب على المسبب . وهو الجزاء كأنه قال تعالى (ليعلمنهم فليجازينهم بحسب علمه فيهم) . وقال المهايى : (فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ) أى يظهر علمه عند خلقه بصدق إيمان (الَّذِينَ صَدَقُوا) فيه ، بدلالة ثباتهم عليه عند المصائب (وَلْيَعْلَمَنَّ) أى وليظهر علمه بكذب دعوى (الْكَاذِبِينَ) لثلاث يشهدوا عنده بإيمان الكاذبين ، فينسب فى تعذيبهم إلى الظلم . وليثيق المؤمنون بحجة الصادقين ، ويستظفروا بها ، ويحذروا عن مكر الكاذبين . انتهى .
القول فى تأويل قوله تعالى :

- [٤] (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)
[٥] (مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)
[٦] (وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ، إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ)
[٧] (وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا » أى يفوتونا ، فلا نقدر على مجازاتهم بمساوى أعمالهم « سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ » أى بس الذى يحكمونه حكمهم « مَنْ كَانَ يَرْجُوا »

لِقَاءِ اللَّهِ» أى فى الجنة من رؤيته، والفوز بكرامته «فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ هُوَ الْمَوْتُ «لَأَتِ» أى فليبادر ما يصدق رجاءه ويحقق أمله من الثبات والتواصى بالحق والصبر والرغبة فيما عنده تعالى . أو المعنى : من كان يرجو لقاء الله ، من كل من صدق فى إيمانه ، وأخلص فى يقينه ، فاعلم أن أجل الله لآت . وهو الوقت الذى جعله أجلا وغاية لظهور النصر والفتح وعلو الحق وزهوق الباطل . أى فلا يستبطئنه . فإنه آت بوعده الله الحق وقوله الصدق . ولم أر من ذكره ولعله أنسب بقرينة السياق والسباق . والله أعلم «وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» أى السميع لأقوالهم العليم بضمائرهم وأحوالهم «وَمَنْ جَهَدَ» أى فى الصبر على البلاء والثبات على الحق مع ضروب الإبداء «فَإِنَّمَا يُجِهِدُ لِنَفْسِهِ» أى لأنه يمدد لنفسه ، ما يبنى به ثمرة غرسه «إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ * وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ» أى أحسن جزاء أعمالهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

- [٨] (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا . وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ، إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)
- [٩] (وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ)

« وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا » أى أمرناه أمراً مؤكداً بإيلاء والديه فعلاً ذا حسن عظيم «وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا» أى فى الشرك ، إذا حملك عليه . ومعنى (مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) أى لا علم لك بالإلهيته . قال القاضى : عبر عن نفي العلم بها ، للإيدان بأن ما لا يعلم صحتة ، لا يجوز اتباعه ، وإن لم يعلم بطلانه . فكيف بما علم بطلانه ؟ «إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» أى إلى مرجع من آمن منكم ومن أشرك . فأجازكم حق جزائكم . فيه التحذير من متابعتهم على الشرك

والحث على الثبات والاستقامة في الدين ، بذكر المرجع والوعيد . وقد روى أن سعد بن أبي وقاص الزهريّ رضى الله عنه حين أسلم ، قالت أمه : يا سعد ! بلغنى أنك قد صبأت . فوالله ! لا يظلمنى سقف بيت من الضحّ والريح . وإن الطعام والشراب علىّ حرام ، حتى تكفر بمحمد وكان أحب ولدها إليها . فأبى سعد . وبقيت ثلاثة أيام كذلك . فجاء سعد إلى رسول الله ﷺ وشكا إليه . فنزلت هذه الآية ، والتي في لقمان ، والتي في الأحقاف . فأمره رسول الله ﷺ أن يداريها ويتراضاها بالإحسان . وروى الترمذى عن سعد^(١) قال : نزلت في أربع آيات . فذكر قصته وقال : قالت أم سعد : أليس الله قد أمرك بالبر ؟ والله لا أطعم طعاما ولا أشرب شرابا حتى أموت ، أو تكفر . فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاهها . فنزلت هذه الآية قال ابن كثير : وهذا الحديث رواه الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والنسائيّ أيضاً . وقال الترمذى : حسن صحيح «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ أَى فِي زمرة الراسخين في الصلاح والكمال .

قال الزمخشريّ : والصلاح من أبلغ صفات المؤمنين ، وهو متمنى أنبياء الله . قال الله^(٢) تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام (وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ) وقال^(٣) في إبراهيم عليه السلام (وَأِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) أو المعنى : في مدخل الصالحين وهي الجنة . وهذا نحو قوله^(٤) تعالى (وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ) الآية .

(١) أخرجه الترمذى في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٢٩ - سورة العنكبوت ، حدثنا محمد

ابن بشار ومحمد بن المنى .

(٢) [٢٧ / النمل / ١٩] . (٣) [١٦ / النحل / ١٢٢] و [٢٩ / العنكبوت / ٢٧] .

(٤) [النساء / ٦٩] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةً لِلنَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ، وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةً لِلنَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ » أى جعل ما يصيبه فى الصّرف عن الإيمان من ضروب الإيذاء ، بسببه ، مثل عذاب الله فى الشدة والهول . فيرتد عن الدين . مع أن مقتضى إيمانه أن يصبر ويتشجع ويتلقى ما يفاله فى الله بالرضا ، ويرى العذاب فيه عذوبة والحنة منحة . فإن العاقبة للمتقوى وسعادة الدارين لأهلها « وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ » أى من التلبيس والإخلاص . وهذه الآية كقوله تعالى ^(١) (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ، فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ) إلى قوله ^(٢) (ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ) وكقوله سبحانه ^(٣) (الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَّعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوَذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ) وقال تعالى ^(٤) (فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَّ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُضْحِكُوا عَلَىٰ مَا اسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ نَدْرِمينَ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ
[١١] (وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ)

(١) [٢٢ / الحج / ١١] . (٢) [٢٢ / الحج / ١٢] . (٣) [٤ / النساء / ١٤١] .

(٤) [٥ / المائدة / ٥٢] .

[١٢] (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ ، إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)

[١٣] (وَلِيَحْمِلَنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ ، وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

« وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا » أى بإخلاصهم « وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُتَنَفِقِينَ » ثم بين تعالى حل كفار قريش لمن آمن على الكفر بالاستمالة ، بعد بيان حملهم لهم عليهم بالأذية ، بقوله « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ » أى إن كان ذلك خطيئة يؤاخذ عليها بالبعث ، فنبعثها علينا وفي رقابنا .

قال ابن كثير: كما يقول القائل افعل كذا وخطيئتك في رقبتي . قال الله تعالى تكذبا لهم « وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ » * وَلِيَحْمِلَنَّ أَثْقَالَهُمْ » وهى أوزار أنفسهم « وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ » أى وأوزاراً أخر مع أوزار أنفسهم . يعنى أوزار الإضلال والحمل على الكفر والصد عن سبيل الله . كما قال تعالى ^(١) (لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِئَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّوهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ) وفى الصحيح ^(٢) (من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شيئا . ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة ، من غير أن ينقص من آثامهم شيئا) « وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ » أى من الأكاذيب والأباطيل . ثم بين تعالى افتتاح الأنبياء بأذية أمهم ، إثر بيان افتتاح المؤمنين بأذية الكفار ، تأكيد الإنكار على الذين يحسبون أن يتركوا بمجرد الإيمان بلا ابتلاء ، وحثاً لهم على الصبر تأسيا بالأنبياء ، فقال سبحانه :

(١) [١٦ / النحل / ٢٥] .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٤٧ - كتاب العلم ، حديث ١٦ (طبعنا) عن أبى هريرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ۖ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ)

[١٥] (فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ)

[١٦] (وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ، ذَالِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ)

[١٧] (إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ، إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا لَهُ ، إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

[١٨] (وَإِن تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ، وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَنْ يَبْلُغَ الْأُمَمِينَ)

[١٩] (أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ۖ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً » أى هذه الحادثة الهائلة موعظة « لِلْعَالَمِينَ * وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَالِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا » أى كذبا ، فى تسميتها آلهة وشركاء لله ، وشفعاء إليه « إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا لَهُ » إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَإِن

تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ، وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَسَ الْمُؤْمِنُ» أى التبليغ الذى يزيل كل لبس وما عليه أن يصدقه قومه « أَوْ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ » إرشاد إلى إثبات المعاد الذى ينكرونه مع وضوح دليله ، وذلك بما يشاهدونه فى أنفسهم من خلق الله إياهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً ، ثم وجدوا ووصاروا أناساً سامعين مبصرين . فالذى بدأ هذا ، قادر على إعادته . فإنه سهل عليه ، يسير لديه . فقلوه تعالى (ثُمَّ يُعِيدُهُ) عطف على (أَوْ لَمْ يَرَوْا) لاعلى (يبدئ) لعدم وقوع الرؤية عليه . فهو إخبار بأنه تعالى يعيد الخلق قياساً على الابتداء . وقد جوز العطف على (يبدئ) بتأويل (الإبداء) بإبداء ما يشاهده ، كالنبات وأوراق الأشجار وغيرها . والإعادة بإنشائه تعالى كل سنة ، مثل ما أنشأه فى السنة السابقة من النبات والثمار وغيرها . فإن ذلك مما يستدل به على صحة البعث ووقوعه من غير ريب . فيصح حينئذ العطف .

قال الشهاب : لكنه غير ملاق لما وقع فى غير هذه الآية .

قال : وبهذا التقرير سقط ما قيل : إن أريد بالرؤية العلم فكلاهما معلوم . وإن أريد الإبصار فهما غير مرئيين . مع أنه يجوز أن يجعل ما أخبر به الله تعالى لتحقيقه ، كأنه مشاهد « إِنَّ ذَلِكَ » أى ما ذكره ، وهو الإعادة « عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ، ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ

النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[٢١] (يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ ، وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ)

[٢٢] (وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ، وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ

مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ)

[٢٣] (وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَكْسِبُونَ مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

[٢٤] (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

« قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ » أى كيف خلقهم ابتداء على أطوار مختلفة وطبائع متغايرة وأخلاق شتى . فإن ترتيب النظر على السير فى الأرض ، مؤذن بتتبع أحوال أصناف الخلق القاطنين فى أقطارها « ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ » أى الخلق الآخر « إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ » أى بعد النشأة الثانية ، وهم المنكرون لها « وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ » وهم المؤمنون بها « وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ * وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ » أى بالتوارى فى الأرض ، ولا بالتحصن فى السماء التى هى أفسح منها ، لو استطعتم الرقى فيها . أو القلاع الذاهبة فيها . فيكون المراد بالسماء ما ارتفع . وقيل : المعنى (ولا من فى السماء) فحذف اسم الموصول وهو مبتدأ محذوف الخبر . والتقدير (ولا من فى السماء بمعجزه) والجملة معطوفة على جملة (أنتم بمعجزين) وفيه تكلف وضعف صناعى « وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ » أى يدافع عنكم ما يراى بكم « وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَكْسِبُونَ مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » ثم أشار تعالى إلى ما أجاب به قوم إبراهيم ، بعد دعوته إياهم وعظاته البالغة ، بقوله « فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ لَّصِيرِينَ)

[٢٦] (فَأَمِّنْ لَهُمْ لُوطٌ، وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي، إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[٢٧] (وَوَهَبْنَا لَهُمُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا، وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ)

[٢٨] (وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ)

[٢٩] (أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ، فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

« وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » أى لتتوادوا بينكم وتتواصلوا، لاجتماعكم على عبادتها « ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا » أى تتجاهدون ما كان بينكم، ويلعن الأتباع المتبوعين، والمتبوعون الأتباع . كما قال تعالى ^(١) : (كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا) وقال تعالى ^(٢) (الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ) « وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ لَّصِيرِينَ » .

(١) [٧ / الأعراف / ٣٨] . (٢) [٤٣ / الزخرف / ٦٧] .

تنبيه :

قال السمين : في (ما) من قوله تعالى (إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ) ثلاثة أوجه :

أحدها - أنها موصولة بمعنى (الذي) والعائد محذوف ، وهو المفعول الأول و (أَوْثَانًا) مفعول ثان . والخبر (مودة) في قراءة من رفع . والتقدير : إن الذي اتخذتموه أوثاناً مودة ، أى ذو مودة ، أو جعل نفس المودة مبالغة . ومحذوف على قراءة من نصب (مودة) أى : الذي اتخذتموه أوثاناً لأجل المودة لا ينفعكم ، أو يكون عليكم ، لدلالة قوله (ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ) .

والثاني - أن تجعل (ما) كافة و (أوثاناً) مفعول به . و (الاتخاذ) ههنا متعدي لواحد . أو لاثنتين ، والثاني هو (من دون الله) فن رفع (مودة) كانت خبر مبتدأ مضمرة ، أى هى مودة أى ذات مودة . أو جملة نفس المودة مبالغة . والجملة حينئذ صفة لـ (أوثاناً) أو مستأنفة . ومن نصب كان مفعولاً له ، أو بإضمار (أعنى) .

الثالث - أن تجعل (ما مصدرية ، وحينئذ يجوز أن يقدر مضاف من الأول . أى : أن سبب اتخاذكم أوثاناً مودة ، فيمن رفع (مودة) ويجوز أن لا يقدر ، بل يجعل نفس اتخاذ هو المودة مبالغة . ومن القراء من رفع (مودة) غير منونة وجرّ (بينكم) ومنهم من نصب (مودة) منونة ونصب (بينكم) ومنهم من نصب (مودة) منونة وجرّ (بينكم) . فالرفع تقدم . والنصب تقدم أيضاً فيه وجهان . وجوز ثالث ، وهو أن يجعل مفعولاً ثانياً عن المبالغة والإضافة ، للاتساع في الظرف .

ونقل عن عاصم أنه رفع (مودة) غير منونة ونصب (بينكم) وخرجت على إضافة (مودة) للظرف . وإنما بنى لإضافته إلى غير متمكن . اهـ .

وأشار العلامة القاشاني إلى جواز أن يكون قوله تعالى (فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) خبراً لـ (ما) إن كانت اسمية . وهو وجه لم يتعرض له المعربون هنا ، ولا مانع منه . وعبارته :

إنما اتخذتم من دون الله، شيئاً عبدتموه مودوداً فيما بينكم (في الحياة الدنيا) أو: إن كل ما اتخذتم من دون الله، شيئاً مودوداً فيما بينكم في الحياة الدنيا، أو: إن كل ما اتخذتم أو ثابوا مودود في هذه الحياة الدنيا. أو لمودة بينكم في هذه، على القراءتين.

ثم قال: والمعنى أن المودة قسمان: مودة دنيوية، ومودة أخروية. والدنيوية منشؤها النفس، والأخروية منشؤها الروح. فكل ما يحب ويودّ من دون الله، لا لله ولا بحجة الله، فهو محبوب بالمودة النفسية. وهو هوى زائل، كلما انقطعت الوصلة البدنية زالت ولم تصل إلى إحدى القيامات، فإنها نشأت من تركيب البدن واعتدال المزاج. فإذا انحل التركيب وانحرف المزاج، تلاشت وبق التضاد والتعاند، بمقتضى الطبائع، لقوله تعالى (ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ) الآية. ولهذا شبهها ببيت العنكبوت في الوهن.

وأما الأخروية فنشؤها المحبة الإلهية. وتلك المودة هي التي تكون بين الأصفياء والأولياء، لتناسب الصفات، وتجانس الذوات، لاتتصفي غاية الصفاء إلا عند زوال التركيب. فيصير يوم القيامة محبة صرفة صافية الهيئة، بخلاف تلك. انتهى.

« فَأَمَّنْ لَهُ » أى صدق إبراهيم فيما دعاه إليه « لَوْ طَّ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ » أى من أرض قومي « إِلَى رَبِّي » أى لا إلى غيره بل إلى عبادته وإقامة شعائر دينه والقيام بدعوة الخلق إلى الحق من شرعه وتوحيده « إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَوَهَبْنَا لَهُ » أى لإبراهيم « إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ » أى ولداً وناقلاً، بباركة الذرية « وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَءَاتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا » أى بإيتاء الولد والذرية الطيبة واستمرار النبوة فيهم وإتناء أهل الملك إليه والثناء إلى آخر الدهر والصلاة عليه « وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لِمِنَ الصَّالِحِينَ * وَلَوْ طَّا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ آلُفْحِشَةً » أى الفعلة المتناهية في القبح « مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْمُعْلَمِينَ » أى لتحاشى الطباع عنها. ثم فصلها بعد الإجمال، لزيادة تنفير النفوس منها « أَلَيْسَ لَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقَاطِعُونَ السَّبِيلَ » أى سبيل النسل بإتيان ما ليس بحرث.

أو بعمل قطاع الطريق من قتل الأنفس وأخذ الأموال « وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ » أى مالا يليق من الأقوال والأفعال « فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ » :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ)

[٣١] (وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ ، إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ)

[٣٢] (قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ، قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا ، لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ)

[٣٣] (وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سَيِّئًا بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ، إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أُمَّرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ)

« قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ » أى الذين يفسدون كل برهان عقلى ونقلى ، وكل حكمة إلهية « وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى » أى بالبشارة بالولد والنافلة ، وهم الملائكة . بعثوا لنصر لوط وتبشير بهلاك قومه « قَالُوا » أى لإبراهيم عليه السلام « إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ » أى قرية سدوم « إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ » أى بتزليلهم الرجال منزلة النساء ، وقطع السبل ، وفعل المنكر وترك المعروف « قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ » أى الباقين فى العذاب أو القرية « وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا » أى المذكورون بعدمفارقهم لإبراهيم عليه السلام « لُوطًا سَيِّئًا بِهِمْ » أى اعترته المساء بسببهم مخافة أن يقصدوهم « وَضَاقَ بِهِمْ

ذَرَعًا « أَى ضَاقَ بِشَاهِمٍ ذَرَعُهُ ، أَى طَاقَتْهُ » وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ « أَى مِمَّا يَصِيبُهُم مِّنَ الْعَذَابِ » إِلَّا أَمْرًا تَكُ كَانَتْ مِنْ الْغَيْبِ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ)

[٣٥] (وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً كَبِيرَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

[٣٦] (وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَلْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ

وَلَا تَعْبُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)

[٣٧] (فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ)

[٣٨] (وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسْكِنِهِمْ ، وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ

أَعْمَلَهُمْ فَوَسَّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ)

« إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ » أَى عَذَابًا عَظِيمًا مِنْ جِهَتِهَا

« بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ » * وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً كَبِيرَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » بِعَنِ قِصَّتِهَا الْعَجِيبَةِ ،

أَوْ أَنَارَهَا الْخُرْبَةَ « وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَلْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ »

أَى تَوَقَّعُوهُ ، وَمَا سَيَقَعُ فِيهِ مِنْ فِتْنِ الْأَهْوَالِ « وَلَا تَعْبُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ » أَى بِالْبَغْيِ

عَلَىٰ أَهْلِهَا ، كَمَنْقَصِ الْمَكْيَالِ وَالْمِيزَانِ ، وَقَطْعِ الطَّرِيقِ عَلَى النَّاسِ ، فَإِنْ عَاقَبَهُ ذَلِكَ الدَّمَارُ « فَكَذَّبُوهُ

فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ » أَى الصَّيْحَةُ الَّتِي هِيَ مُنْشَأُ الزَّلْزَلَةِ الشَّدِيدَةِ « فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ » أَى بِلَدِهِمْ

أَوْ مَنَازِلِهِمْ « جِثِيمِينَ » أَى هَلَكَى مِيتِينَ « وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسْكِنِهِمْ

وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَوَسَّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ » أَى عَقْلَاءَ

مُتَمَكِّنِينَ مِنَ النَّظَرِ وَالْإِفْتِكَارِ بِوَاسِطَةِ الرِّسْلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامِ ، فَإِنَّهُمْ أَوْضَحُوا السَّبِيلَ ، فَلَمْ يَكُنْ

لَهُمْ فِي ذَلِكَ عَذْرٌ ، وَلَكِنْهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا ، عَنَادًا وَكِبْرًا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ، وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ)

[٤٠] (فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ ، فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

« وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ » أى فائتين الله سبحانه. بل لحقهم عذابهم فدمروا. ولذا قال « فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا » أى ريحاً عاصفاً، فيها حصباء، وهم قوم لوط « وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ » كمدىن وثمود « وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ » كقارون « وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا » كقوم نوح وفرعون وقومه « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » أى بفعل ما يوجب ذلك ، من البغى والفساد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ ، اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

[٤٢] (إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[٤٣] (وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ)

[٤٤] (خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ)

« مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا » أى

تعتمد على قوته وتظنه محيطاً بها، دافعاً عنها الحرّ والبرد « وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ » أى أضعفها « لَبِثْتُ الْعَنْكَبُوتِ » أى لأنه لا يحتمل مسّ أدنى الحيوانات وأضعف الرياح . ولا يدفع شيئاً من الحرّ والبرد . وهذا مثلهم «لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ» أى شيئاً مّا . أو إن أولياءهم أوهى من ذلك ثم الغرض من التشبيه هو تقرير وهن دينهم ، وإنه بلغ الغاية فيه ، وهو إما تشبيه مركب من الهيئة المفترعة ، فمدار قطب التمثيل على أن أولياءهم بمنزلة نسج العنكبوت فى ضعف الحال وعدم الصلاحية للاعتماد . وعلى هذا فقوله (وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ) تذييل يعرف الغرض من التشبيه . وقوله (لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) إيغال فى تجهيلهم . لأنهم لا يعلمونه مع وضوحه لدى من له أدنى مسكة . وإما أن يكون من تشبيه الفرد، لأن المقصود بيان حال العابد والمعبود . وفى الآية لطائف بيانية ذكرت فى المطولات . وقوله «إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ» بالياء والتاء فى (تدعون) قراءة ثان . و (ما) إما استفهامية منصوبة بـ (يدعون) و (من) الثانية للتبيين . أو نافية و (من) مزيدة . و (شئ) مفعول (تدعون) أو مصدرية بمعنى الدعوة و (شئ) مصدر بمعناه أيضاً . أو موصولة مفعول (يعلم) ومفعول (يدعون) عائده المحذوف . والكلام على الأولين تجهيل لهم وتوكيد للمثل . وعلى الآخرين وعيد لهم . أفاده القاضى « وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ » يعنى هذا المثل ونظائره فى التنزيل « نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ » أى ليقرب ما بعد من أفهامهم . فإن الأمثال والتشبيهات طرق تبرز فيها المعانى المحتجبة للأفهام « وَمَا يَعْقِلُهَا » أى يدرك حسننها وفوائدها « إِلَّا الَّذِينَ يَعْلَمُونَ » أى الراسخون فى العلم الكاملون فيه . وعن عمرو بن مرة قال : ما مررت بآية من كتاب الله لا أعرفها ، إلا أحزننى . لأننى سمعت الله تعالى يقول (وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الَّذِينَ يَعْلَمُونَ) « خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ » أى محققاً مراعيّاً للحكم والمصالح ، مقدساً عن أن يقصد به باطلا . فالباء للملابسة ، والجار والمجرور حال . وهذا كقوله تعالى (١) « وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنِينَ » « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (أَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ، إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى
عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ، وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ)
[٤٦] (وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا
مِنْهُمْ ، وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ
وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)

« أَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ » أى تقرب إلى الله تعالى بقراءته ، وتحفظاً لألفاظه ،
واستكثاراً لما فى تضاعيفه من المعانى . فإن القارى المتأمل قد ينكشف له بالتركيب ما لم ينكشف
له أول ما قرع سمعه . وتذكيراً للناس ، وحملهم على العمل بما فيه ، من الأحكام ومحاسن
الآداب ومكارم الأخلاق « وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ » أى
تكون سبباً للانتهاز عن ذلك . ففيه تجوز فى الإسناد . فإن قلت : كم من مصل يرتكب ولا
تنهيه صلاته ! قلت : الصلاة التى هى الصلاة عند الله ، المستحق بها الثواب ، أن يدخل فيها
مقدماً للتوبة النصوح متقياً ، لقوله تعالى (إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ) ويصليها خاشعاً
بالقلب والجوارح . ثم يحوطها بعد أن يصليها ، فلا يحبطها ، فهى الصلاة التى تنهى عن
الفحشاء والمنكر . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : من لم تأمره صلاته بالمعروف ، وتنهيه
عن المنكر ، لم يزد بصلاته من الله إلا بعداً .

عن الحسن رحمه الله : من لم تنهيه صلاته عن الفحشاء والمنكر ، فليست صلاته بصلاة ،
وهى وبالعليه . أفاده الزمخشري . وقوله تعالى « وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ »
قال الزمخشري : أى : وللصلاة أكبر من غيرها من الطاعات ، وسماها بذكر الله ، كما قال (١)

(فَاسْمَعُوا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ) وإنما قال (ولذكر الله) ليستقل بالتعليل. كأنه قال: وللصلاة أكبر، لأنها ذكر الله. أو: ولذكر الله عند الفحشاء والمنكر، وذكر نهيه عنهما ووعيده عليهما، أكبر. فكان أولى بأن ينهى من اللطف الذى فى الصلاة. وعن ابن عباس رضى الله عنهما، ولذكر الله إياكم برحمته، أكبر من ذكركم إياه بطاعته. انتهى. (فذكر) على الأولين مصدر مضاف للمفعول. وعلى ما بعدها مضاف للفاعل، والمفعول محذوف. والمفضل عليه فى الأولين غيره من الطاعات. وفى الأخير قوله (من ذكركم).

وقال الرازى: لما ذكر تعالى أمرين، وهما تلاوة الكتاب وإقامة الصلاة، بين ما يوجب أن يكون الإتيان بهما على أبلغ وجوه التعظيم، فقال (وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ) وأنتم إذا ذكرتم آباءكم بما فيهم من الصفات الحسنة، تنبشون لذلك وتذكرونهم بعلء أفواهم وقلوبكم. لكن ذكر الله أكبر، فينبغى أن يكون على أبلغ وجه التعظيم. وأما الصلاة فكذلك. لأن الله يعلم ما تصنعون. وهذا أحسن صنعكم. فينبغى أن يكون على وجه التعظيم. وفى قوله (وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ) مع حذف بيان ما هو أكبر منه، لطيفة. وهى أن الله لم يقل: أكبر من ذكر فلان، لأن ما نسب إلى غيره بالكبر فله إليه نسبة. إذ لا يقال الجبل أكبر من خردلة وإنما يقال: هذا الجبل أكبر من هذا الجبل. فأسقط المنسوب كأنه قال (ولذكر الله له الكبر لا غيره) وهذا كما يقال فى الصلاة (الله أكبر) أى له الكبر لا لغيره. انتهى.

ولما بين تعالى طريقة إرشاد المشركين، ونفع من انتفع، وحصول اليأس ممن امتنع، بين طريقة إرشاد أهل الكتاب بقوله «وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ» أى بالخصلة التى هى أحسن. وهى اللين والأناة «إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ» أى بالاعتداء، بأن أخشوا فى المقال وأقذعوا فى الجدل، فلا خرج فى مقابلتهم بالعنف، لتنكبتهم عن جادة اللطف. وهذا كما قال تعالى^(١) «لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ» وهذه الآية أصل فى آداب المناظرة والجدل «وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ

(١) [٤ / النساء / ١٤٨].

وَالْهِنَّا وَإِلَهُكُمُ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُو مُسْلِمُونَ» أى مطيعون له خاصة . وفيه تعريض باتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله .

قال ابن كثير : يعنى إذا أخبروا بما لا يعلم صدقه ولا كذبه ، فهذا لا يقدم على تكذيبه ، لأنه قد يكون حقا . ولا على تصديقه ، فلعله أن يكون باطلا . ولكن يؤمن به إيمانا مجملا معلقا على شرط . وهو أن يكون منزلا ، لا مبدلا مؤولا . وروى البخارى^(١) عن أبي هريرة قال : كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام . فقال رسول الله ﷺ : لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم . وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون . وهذا الحديث تفرد به البخارى . وروى الإمام أحمد^(٢) عن أبي غلة الأنصارى مرفوعا : إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم . وقولوا آمنا بالله وكتبه ورسله . فإن كان حقا لم تكذبوهم ، وإن كان باطلا لم تصدقوهم . ثم ليعلم أن أكثر ما يتحدثون به غالبه كذب وبهتان . لأنه قد دخله تحريف وتبديل وتغيير وتأويل . وما أقل الصدق فيه . ثم ما أقل فائدة كثير منه ، لو كان صحيحا .

روى البخارى^(٣) عن ابن عباس قال : كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء ، وكتابكم الذى أنزل إليكم على رسول الله ﷺ أحدث . تقرؤونه محضا لم يشب . وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا وغيروا ، وكتبوا بأيديهم الكتاب ، وقالوا : هذا من عند الله ليشتروا

(١) أخرجه فى : ٩٦ - كتاب الاعتصام ، ٢٥ - باب قول النبي ﷺ : لا تسألوا أهل

الكتاب عن شيء ، حديث ١٩٦٦

(٢) أخرجه بالصفحة رقم ١٣٦ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

(٣) أخرجه فى : ٥٢ - كتاب الشهادات ، ٢٩ - باب لا يسأل أهل الشرك عن الشهادة

وغيرها ، حديث رقم ١٣٠٠

به ثمناً قليلاً . ألا إنها كم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم ؟ لا ، والله ! ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذى أنزل عليكم .

وقال البخارى^(١) : وقال أبو اليمان : أخبرنا شعيب عن الزهري . أخبرني حميد بن عبد الرحمن أنه سمع معاوية يحدث رهطاً من قريش بالمدينة . وذكر كعب الأخبار فقال : إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب . وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب . معناه أنه يقع منه الكذب من غير قصد . لأنه يحدث عن صحف هو يحسن بها الظن ، وفيها أشياء موضوعة ومكذوبة . لأنهم لم يكن في ملتهم حفاظ متقنون كهذه الأمة العظيمة . ومع ذلك ، وقرب العهد ، وضعت أحاديث كثيرة في هذه الأمة ، لا يعلمها إلا الله عز وجل . ومن منحه الله علماً بذلك . كل بحسبه . والله الحمد والمنة . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ ، فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ

بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ، وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ)

[٤٨] (وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ وَبِمِيمِكَ ، إِذَا لَارْتَابَ الْمُبِطُونَ)

« وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ » أى : مثل ذلك الإنزال ، أنزلنا إليك الكتاب .

أى أنزلناه مصداقاً لسائر الكتب السماوية « فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ » أى العرب « مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ * وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ وَبِمِيمِكَ » أى فإن ظهور هذا الكتاب الجامع لما

(١) أخرجه في : ٩٦ - كتاب الاعتصام ، ٢٥ - باب قول النبي ﷺ : لا تسألوا أهل

الكتاب عن شيء ، حديث ٢٥٩٥

يكفل سعادة الدارين في شرائعه وقضايه ، على أُمى لم يعرف بالقراءة والتعلم ، خارق للعادة .
وذكر اليمين زيادة تصوير للمنفى ، ونفى للتجاوز في الإسناد « إِذَا لَأَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ » أى
لو كنت ممن يخط ويقرأ ، لقالوا : لعله تعلمه أو كتبه بيده ، من كتب مأثورة عن الأنبياء .
تنبيه :

قال السيوطي في (الإكليل) : في هذه الآية دليل على أنه ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا
يكتب . وفيها رد على من زعم أنه كتب . انتهى .

وقال ابن كثير : وهذه صفته في الكتب المتقدمة . كما قال تعالى ^(١) (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ
الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ » الآية .
وهكذا كان رسول الله ﷺ دائماً لا يحسن الكتابة ولا يخط سطر أو لا حرفاً بيده . بل كان له كتاب
يكتبون بين يديه الوحي والرسائل إلى الأقاليم . ومن زعم ، من متأخري الفقهاء ، كالقاضي ابن
الوليد الباجي ومن تابعه ، أنه عليه السلام كتب يوم الحديبية : هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد
الله . فإنما حمله على ذلك رواية ^(٢) في صحيح البخاري (ثم أخذ فكتب) وهذه محمولة على
الرواية الأخرى (ثم أمر فكتب) ولهذا اشتد الفكير من فقهاء المشرق والمغرب على من
قال بقول الباجي ، وتبرأوا منه وأنشدوا في ذلك أقوالاً وخطبوا به في محافلهم . وإنما أراد الرجل أعنى
الباجي فيما يظهر عنه . أنه كتب ذلك على وجه المعجزة . لأنه كان يحسن الكتابة . وما أورده بعضهم
من الحديث ؛ أنه لم يمت ﷺ حتى تعلم الكتابة ، فضعيف لا أصل له . انتهى .

وقال الشهاب : ومن ذهب إلى أنه كان يحسن الكتابة ، أبو ذر الهروي وأبو الفتح
النيسابوري وأبو الوليد الباجي من المغاربة . وصنف فيه كتاباً ، وسبقه إليه ابن منبه . ولما
قال أبو الوليد ذلك ، طعن فيه ورمى بالزندقة وسب على المنابر ، ثم عقد له مجلس فأقام الحجة
(١) [٧ / الأعراف / ١٥٧] .

(٢) أخرجه في : ٥٤ - كتاب الشروط ، ١٥ - باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع

أهل الحرب ، وكتابة الشروط ، حديث ٨٨١ و ٨٨٢ عن المسور بن مخرمة ومروان .

على مدعاه وكتب به إلى علماء الأطراف . فأجابوا بما يوافقه . وأن معرفة الكتابة بعد أميته لاتنافى المعجزة . بل هي معجزة أخرى ، لكونها من غير تعليم . ورد الإمام محمد بن مفوز كتاب الباجي لما في الحديث الصحيح^(١) (إنا أمة أمية لانكتب ولا نحسب) وقال : كل ماورد في الحديث من قوله (كتب) فعناه أمر بالكتابة . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ، وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ)

[٥٠] (وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ، قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ)

« بَلْ هُوَ » أى القرآن « آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ » أى العلماء به وحفاظه . وهما من خصائص القرآن كون آياته بينات الإعجاز ، وكونه محفوظا في الصدور ، يتلوه أكثر الأمة ظاهرا . بخلاف سائر الكتب . فإنها لم تكن معجزات ، وما كانت تقرأ إلا من المصاحف . ومنه ما جاء في صفة هذه الأمة (صدورهم أناجيلهم) . كذا في الكشف . « وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ » وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ » يعنون ما كانوا يقترحونه في تعنتهم « قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ » أى هو يملك إنزالها ، ولو شاء لفعل « وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ » أى ليس من شأني إلا الإنذار وإبانتة ، لا الإتيان بما تقترحونه . ثم أشار إلى أن في آية تنزيل الكتاب ، غنية عن كل آية مقترحة . لما أن الدور انقلب من الآيات الآفاقية ، إلى الآيات العلمية ، وفاقا لسنة الترقى ، بقوله سبحانه :

(١) أخرجه البخاري في : ٣٠ - كتاب الصوم ، ١٣ - باب قول النبي ﷺ : لانكتب

ولا نحسب ، حديث ٩٦٨ ، عن ابن عمر

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥١] (أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

[٥٢] (قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ يَتَّبِعُنِي وَيَنصَرِّفُ أَعْيُنَ النَّاسِ عَنْ ذِكْرِي هُنَّ حِيلُ الشَّيْطَانِ ، يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

[٥٣] (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ ، وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْضَةٌ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

[٥٤] (يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ)

[٥٥] (يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

[٥٦] (يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ)

« أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ » أى آية مغنية عما اقترحوه « أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ » أى وفيه نفسه من الآيات والمعجزات ما لا يرتاب معه إلا من سفه نفسه ، وكابر حسه « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ » أى الكتاب الذى هو آية مستمرة وحجة بالغة ظاهرة « لَرَحْمَةً » أى لنعمة عظيمة فى هدايته إلى الحق وإلى صراط مستقيم « وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » أى تذكرة لقوم ، همهم الإيمان دون التعمت « قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ يَتَّبِعُنِي وَيَنصَرِّفُ أَعْيُنَ النَّاسِ عَنْ ذِكْرِي هُنَّ حِيلُ الشَّيْطَانِ » أى إني قد بلغتكم ما أرسلت به إليكم وأنذرتكم ، وإنكم قابلتموني بالجحد والتكذيب . يعنى . كفى علمه بذلك . وجوز أن يكون المعنى شهيدا بصدق التأييد والحفظ ، أى هو شاهد على ما جئت به ، مصدق له تصديق الشاهد لدعوى المدعى .

قال ابن كثير : أى فلو كنت غير محق ، لانتقم منى ، كما قال تعالى (١) (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * إِلَّا خَدْنَاهُ مِنْهُ بِأَلِيمِينَ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ) وإنما أنا صادق عليه فيما أخبرتكم به. ولهذا أيدنى بالمعجزات الواضحات والدلائل القاطعات. انتهى « يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى فلا يخفى عليه حالى وحالكهم « وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَطْلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ * وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ » أى استهزاء « وَلَوْ لَا أَجَلٌ مُّسَمًّى » أى لكل عذاب أو قوم، وهو وقته المعين له فيهما « لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ » أى عاجلاً « وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً » أى فجأة في الدنيا. كوقعة بدر. فقد كانوا اغرورهم لا يتوقعون غلبة المسلمين. أو في الآخرة عند نزول الموت بهم (يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ) أى ستحيط بهم. أى يستعجلونك بالعذاب وهو واقع بهم لا محالة. أو هى كالمحيطه بهم. لأن كل آت قريب. « يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » أى جزاءه « يَعْمَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ » هذا خطاب لمن لم تمكنه عبادته تعالى وحده فى أرضه ، لإيذائه فى الله واضطهاده فى جانبه ، أن يهاجر عنها إلى بلد ما ، يقدر أنه فيه أسلم قلباً ، وأصح ديناً ، وآمن نفساً . وأن يتجنب المقام فى بلده على تلك الحالة ، كيلا يفتنه الكافرون . أو يعرض نفسه للتهلكة ، وقد جعل له منها مخرج . وكون أرض الله واسعة ، مذكور للدلالة على المقدر . وهو كالتوطئة لما بعده . لأنها مع سعتها ، وإمكان التفسح فيها ، لا ينبغي الإقامة بأرض لا يتيسر بها للمرء ما يريد . كما قيل : * وكل مكان ينبت العز طيب * . وقال آخر :

إذا كان أصلى من ترابٍ فكُلُّها بلادى ، وكلُّ العالمين أقاربى

(١) [٦٩ / الحاقة / ٤٤ - ٤٧] .

وقد روى الإمام ^(١) أحمد عن الزبير: قال: قال رسول الله ﷺ: البلاد بلاد الله، والعباد عباد الله . فحينما أصبت خيرا فأقم . ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم، خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة ليأمنوا على دينهم هناك فوجدوا خيرا نزل بها، عند ملكها النجاشي رحمه الله . ثم بعد ذلك هاجر رسول الله ﷺ وأصحابه الباقون إلى المدينة المنورة ، عملا بالآية الكريمة . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ)

[٥٨] (وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، نِعَمَ أَجْرَ الْعَمِلِينَ)

[٥٩] (الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)

[٦٠] (وَكَايِن مِّن ذَا بَئَةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ، وَهُوَ السَّمِيعُ

الْعَلِيمُ)

[٦١] (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مِّنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَسَخَّرِ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ

لَيَقُولَنَّ اللَّهُ ، فَاَنىٰ يُؤْفَكُونَ)

« كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ » تحريض على العبادة وإخلاص الدين

بتذكير الموت والرجوع . أو تسلية للمهاجر إلى الله ، وتشجيع له ، بأن لا يثبطه عن هجرته

خوف الموت بسببها . فلا المقام بأرضه يدفعه ، ولا هجرته عنه تمنعه . وفيه استعارة بديعة لتشبيهه

(١) أخرجه في مسنده بالصفحة ١٦٦ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ١٤٢٠

(طبعة المعارف) .

الموت بأمر كربه الطعم، مره « وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرُ الْمُتَعَمِّلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُوا » أى على مفارقة الأوطان والهجرة لأجل الدين. وعلى أذى المشركين وعلى المحن والمصائب « وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » ثم أشار تعالى إلى كفالاته لمن هاجر إليه، من الفقر والضيعة، بقوله سبحانه « وَكَأَيِّنَّ » أى: وكم « مِّنْ دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا » أى لا تطيق أن تحمله لضعفها عن حمله « اللَّهُ يَرْزُقُهَا إِيَّائَكُمْ » أى يقيض لها رزقها على ضعفها، ويرزقكم مع قوتكم واجتهادكم. فهو اليسر والمسهل لكل مخلوق من رزقه ما يصاحبه . فلا يختص رزقه ببقعة دون أخرى، بل خيره عامّ وفضله شامل لخلقه ، حيث كانوا وأنى وجدوا. وقد ظهر مصداق كفالاته تعالى لأولئك المهاجرين ، بما وسع عليهم وبسط لهم من طيب الرزق ورغد العيش وسيادة البلاد فى سائر الأمصار. وهذا معنى ماورد مرفوعا (سافروا تصحوا وتغنموا) رواه البيهقي « وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ » يعنى هؤلاء المشركين الذين يعبدون معه غيره « مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ » أى اعترافا بأنه المنفرد بخلقها « فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ » أى فكيف مع هذا الاعتراف يصرفون عن عبادته وحده، ويشركون بها ما لا يضر ولا ينفع . وكثيرا ما يقرر تعالى مقام الإلهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية . وقد كان المشركون يعترفون بذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٦٢] (اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

[٦٣] (وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ، قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ)

[٦٤] (وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ ، وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

«اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» أى
 فيفعل بعلمه ، ما تقتضيه حكمته . « وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ
 الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ، قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ » أى على أن جعل الحق بحيث لا يترى
 المبتلون على جحدوده . وأنه أظهر حجتك عليهم . والمعنى : احمد الله عند جوابهم المذكور على
 إلزامهم وظهور نعم لا تحصى « بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ » أى فلذلك يتناقضون حيث
 ينسبون النعمة إليه ، ويعبدون غيره . وقوله « وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ »
 إشارة إلى ازدراء الدنيا وتحقير شأنها ، وكونها في سرعة زوالها ، وتقضى أمرها ، كما يلهى
 ويلعب به الصبيان ، ثم يتفرقون عنه . ولا ثمرة إلا التعب . فى الحصر تشبيه بليغ « وَإِنَّ الدَّارَ
 الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ » أى دار الحياة الخالدة . ففيه مضاف مقدر . و(الحيوان) مصدر سى به
 ذو الحياة ، فى غير هذا المحل . وإيثاره على (الحياة) لما فيه من المبالغة . لأن (فعلان) بالفتح
 فى المصادر الدالة على الحركة « لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » أى لم يؤثرواعليها الدنيا التى حياتها عارضة .
 وهذا جواب الشرط المقدر ، لعلمه من السياق . وكونها للتمنى بعيد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى
 الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ)

[٦٦] (لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)

[٦٧] (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيَتَخَفَتُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ،

أَفْبِاطٌ لِّبَطْلٍ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ)

« فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ » أى الدعاء . لعلمهم أنه لا ينجيهم
 من الفرق سواه « فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ » أى من

نعمة النجاة وريح التجارة « فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ » أى عاقبة ذلك حين يعاقبون « أَوَلَمْ يَرَوْا » أى أهل مكة « أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا » أى لا يُغزى أهله، ولا يغار عليهم، مع قلتهم وكثرة العرب « وَيَتَخَفَتُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ » أى يختلسون قتلا ونهباً وسبياً « أَفَبِأَبْطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ » أى: أفعبد هذه النعمة الظاهرة وغيرها من النعم، التى لا يقدر عليها إلا الله تعالى ، يكفرون خيره ، ويشركون معه غيره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ،

أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ)

[٦٩] (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ، وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

« وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا » بأن زعم أن له شريكاً « أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ » يعنى الرسول أو الكتاب « أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ » أى موضع إقامة ، جزاء افتراءهم وكفرهم . بل « وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا » أى جاهدوا النفس والشيطان والهوى وأعداء الدين ، من أجلنا ولوجهنا « لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا » أى سبل السير إلينا والوصول إلى جنابنا . وذلك بالطاعات والمجاهدات « وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ » أى: أعملهم بالنصر والمعونة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٠ - سُورَةُ الرُّومِ

قال المهاجريّ : سميت بها لاشتغال قصتها على معجزة تفيد المؤمنين فرحا عظيما ، بعد طرح
يسير . فتبطل شماتة أعدائهم . وتدل على أن عاقبة الأمر لهم . وهذا من أعظم مقاصد
القرآن .

وهي مكية . وآياتها ستون آية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (اَلَمْ)

[٢] (غَلَبَتِ الرُّومُ)

[٣] (فِي اَدْنَى الْاَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ)

[٤] (فِي بَضْعِ سِنِينَ ، لِلّٰهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ، وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ)

[٥] (يَنْصُرِ اللَّهُ ، يَنْصُرُ مَن يَشَاءُ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

[٦] (وَعَدَ اللَّهُ ، لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

« اَلَمْ غَلَبَتِ الرُّومُ * فِي اَدْنَى الْاَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بَضْعِ

سِنِينَ » اتفق المؤرخون من المسلمين وأهل الكتاب على أن ملك فارس كان غزا بلاد الشام وفتح دمشق وبيت المقدس ، الأولى سنة ٦١٣ ، والثانية سنة ٦١٤ . أى قبل الهجرة النبوية بسبع سنين - فحدث أن بلغ الخبر مكة . ففرح المشركون وشتتوا بالمسلمين ، وقالوا : أنتم والنصارى أهل كتاب . ونحن وفارس وثنيون . وقد ظهر إخواننا على إخوانكم . ولنظهرن عليكم . فزلت الآية ، فتليت على المشركين . فأحال وقوع ذلك بعضهم . وراهن مع الصديق رضى الله عنه على مائة قلوص ، إن وقع مصداقها . فلم يعض من البضع - وهو ما بين الثلاث إلى التسع - سبع سنين إلا وقد نظم هرقل جنود الروم وغزا بهم بلاد فارس سنة ٦٢١ . أى قبل الهجرة بسنة . فدوخوا ، واضطر ملكها للهرب . وعاد هرقل بالغنائم الوافرة . ولا ريب أن ذلك أعظم معجزات القرآن . أعنى إخباره عن غيب وقع مصداقه ،

واستبان للجاحدين من نوره إشراقه . وفي ضمنه ، أن سائر غيوبه كذلك من ظهور الإسلام على الدين كله ، وزهوق الباطل ، وعلو الحق ، وجعل المستضعفين أئمة ، وإيراثهم أرض عدوهم ، إلى غير ذلك . وما ألفت ماقال الزبير الكلأئي : رأيت غلبة فارس الروم . ثم رأيت غلبة الروم فارس . ثم رأيت غلبة المسلمين فارس والروم . كل ذلك في خمس عشرة سنة - من أواخر غلبة فارس إلى أوائل غلبة المسلمين - والأرض (كما قال الزمخشري) أرض العرب . لأن الأرض المهدودة عند العرب أرضهم . والمعنى : غلبوا في أذن أرض العرب أى أقربها منهم ، وهى أطراف الشام « لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ » أى من قبل غلبة فارس على الروم « وَمِنْ بَعْدُ » أى من بعد غلبة الروم على فارس . ويقال : لله العلم والقدرة والمشيئة من قبل إبداء الخلق ، ومن بعد إفناء الخلق . والمعنى : أن كلا من كونهم مغلوبين أولاً ، وغالبين آخرًا ، ليس إلا بأمره وقضائه ، وعلمه ومشيئته . كما قال تعالى ^(١) « وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ » « وَيَوْمَئِذٍ » أى يوم إذ يغلب الروم على فارس ، ويحل ما وعده الله تعالى من غلبتهم « يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * يَنْصُرُ اللَّهُ » أى تغلبه من له كتاب ، على من لا كتاب له . ويغبط من شئت بهم من كفار مكة . ويقال : نصر الله هو إظهار صدق المؤمنين فيما أخبروا به المشركين « يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ » أى من عباده على عدوه « وَهُوَ الْعَزِيزُ » أى القاهر الغالب على أمره ، لا يعجزه من شاء نصره « الرَّحِيمُ » أى فى نصره وتغلبه من يشاء « وَعَدَ اللَّهُ ، لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » أى بحكمته تعالى ، فى كونه وأفعاله المحسمة ، الجارية على وفق العدل ، لجهلهم وعدم تفكرهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ)

(١) [٣ / آل عمران / ١٤٠] .

[٨] (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ، مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى، وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِي رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ) « يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » وهو ما يوافق شهواتهم وأهواءهم « وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ » أى التى هى المطلب الأعلى « هُمْ غَافِلُونَ » أى لا يُحْطِرُونَهَا بيبالهم . فهم جاهلون بها تاركون لعملها .

لطائف :

قال الزمخشريّ : قوله تعالى (يعلمون) بدل من قوله (لا يعلمون) وفى هذا الإبدال من النكتة ، أنه أبدله منه وجعله بحيث يقوم مقامه ويسدّ مسدّه ، ليعلمك أنه لافرق بين عدم العلم الذى هو الجهل ، وبين وجود العلم الذى لا يتجاوز الدنيا . وقوله (ظَهْرًا) يفيد أن للدنيا ظاهراً وباطناً . فظاهرها ما يعرفه الجهال من التمتع بزخارفها والتنعّم بملاذها . وباطنها وحقيقتها أنها مجاز إلى الآخرة ، يتزود منها إليها بالطاعة والأعمال الصالحة . انتهى . وناقش الكرخيّ فى إبدال (يَعْلَمُونَ) قال : إن الصناعة لاتساعد عليه . لأن بدل فعل مثبت ، من فعل منفى لا يصح . واستظهر قول الحوفيّ؛ أن (يَعْلَمُونَ) استئناف فى المعنى . وأشار الناصر إلى جوابه بأن فى تنكير (ظَهْرًا) تقليلاً لمعلومهم . وتقليله يقربه من الغنى . فيطابق المبدل منه .

أقول: التقليل هو الوحدة المشار لها بقول الزمخشريّ (وفى تنكير الظاهر أنهم لا يعلمون إلا ظاهراً واحداً ، من جملة الظواهر) .

وأما قول أبى السعود : وتنكير (ظَهْرًا) للتحقير والتخسيس دون الوحدة كما توهم ، فغفلة عن مشاركتها للتعليل الذى به يطابق البدل المبدل منه . فافهم .

ثم أنكر عليهم قصر نظرهم على ما ذكر من ظاهر الحياة الدنيا ، مع الغفلة عن الآخرة بقوله (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ) أى يحدثوا التفكر فى أنفسهم ، الفارغة من الفكر

والتفكير . فالمجور ظرف للتفكير ، وذكره لزيادة التصوير . إذ الفكر لا يكون إلا في النفس . والتفكير لا متعلق له ، لتزيله منزلة اللازم . وجوز كون المجور مفعول (يتفكروا) لأنه يتعدى بـ (في) أى : أو لم يتفكروا في أمر أنفسهم . فالمعنى حثهم على النظر في ذواتهم وما اشتملت عليه من بديع الصنع ، وقوله تعالى « مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ » متعلق بقول أو علم ، يدل عليه السياق . أى : ألم يتفكروا فيقولوا أو فيعلموا . وقال السمين : (ما) نافية . وفي هذه الجملة وجهان : أحدها - أنها مستأنفة لا تعلق لها بما قبلها . والثاني - أنها معلقة للتفكير . فيكون في محل نصب على إسقاط الخافض . انتهى . والباء في قوله (بِالْحَقِّ) للملابسة . أى ما خلقها باطلا ولا عبثا بغير حكمة بالغة ، ولا لتبقى خالدة . وإنما خلقها مقرونة بالحق ، مصحوبة بالحق «وَأَجَلٍ مُّسَمًّى» أى وبتقدير أجل مسمى ، لا بد لها من أن تنتهى إليه . وهو قيام الساعة ووقت الحساب والثواب والعقاب . ولذا عطف عليه قوله « وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِي رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ، كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ، فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

[١٠] (ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا السُّوْءَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ)

[١١] (اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

[١٢] (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ)

«أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ» أى قلبوها للزراعة واستخراج المعادن وغيرها ، مما كانوا أرقى فيه من أهل مكة «وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ رِمًّا وَعَمَرُوهَا» أى بالأبنية المشيدة . والصناعات الفريدة ، ووفرة العدد والمُدد ، وتنظيم الجيوش والتزین بزخارف أعجبوا بها ، واستطالوا بأبهرتها . ففسدت ملكاتهم ، وطغت شهواتهم ، حتى اقتضت حكمته تعالى إنذارهم بأنبيائهم ، كما قال «وَجَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ» أى الآيات الواضحات على حقيقة ما يدعونهم إليه «فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ» أى فكذبوهم فأهلكهم . فما كان الله ليهلكهم من غير جرم منهم «وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» * ثم كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أَتَوْا «أى عملوا السيئات «الشُّوْأَى» أى العقوبة التى هى أسوأ العقوبات فى الآخرة ، وهى جهنم . (الشُّوْأَى) تأنيث (الأسوأ) ، وهو الأقيح . كما أن (الحسنى) تأنيث (الأحسن) ثم علل سوء عاقبتهم بقوله تعالى «أَن» أى لَأَنَّ «كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ» * اللَّهُ يُبَدِّلُ الْخَلْقَ «أى ينشئهم «ثُمَّ يُعِيدُهُ» أى بعد الموت بالبعث «ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» أى إلى موقف الحساب والجزاء «وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ» أى يسكتون متحيرين يائسين . يقال (أبلس) إذا سكت وانقطعت حجته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاؤُاْ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ)

[١٤] (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِرُونَ)

[١٥] (فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ)

[١٦] (وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ)

[١٧] (فَسُبْحَنَ اللَّهُ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ)

[١٨] (وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ)

«وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ» أي يميزونهم من عذاب الله كما كانوا يزعمون «وَكَانُوا بِشُرُكَائِهِمْ كَافِرِينَ» أي يالهيهم وشركتهم لله تعالى، حيث وقفوا على كنهه أمرهم «وَيَوْمَ يَقُومُ السَّاعَةُ يُبْفَرِقُونَ» أي يميز المؤمنين والكافرين في الحال والأحوال «فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ» أي يسرون «وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُخَضَّرُونَ» أي لا يغيثون عنه ولا يخفف عنهم «فَسُبْحَنَ اللَّهُ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ» * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ » لما ذكر الوعد والوعيد ، تأثره بما هو وسيلة للفوز والنجاة ، من تنزيهه تعالى عما لا يليق به ، والثناء عليه بصفاته الجميلة ، وأداء حق العبودية . و (الفاء) للتفريع فكأنه قيل : إذا صحَّ واتضح عاقبة المطيعين والعاصين ، فقولوا : نسبح سبحان إلخ . والمعنى فسبحوه تسبيحا دائما . و (سبحان) خبر في معنى الأمر بتنزيه الله تعالى وحده . أي الثناء عليه في هذه الأوقات التي تظهر فيها قدرته ، وتتجدد فيها نعمته . وقوله تعالى (وَعَشِيًّا) معطوف على (حِينَ) وتقديمه على (حِينَ تُظْهِرُونَ) لمراعاة الفواصل . وقوله (وَلَهُ الْحَمْدُ) معترض بينهما . والمراد بثبوت حمده فيهما ، استحقاقه الحمد لمن له تمييز من أهلها . قال أبو السعود : والإخبار بثبوت الحمد له ووجوبه على المميزين من أهل السموات والأرض ، في معنى الأمر به على أبلغ وجه وآكده . وتوسيطه بين أوقات التسبيح ، للاعتناء بشأنه ، والإشعار بأن حقهما أن يجمع بينهما . كما ينبي عنه قوله تعالى ^(١) (وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ) وقوله تعالى ^(٢) (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ) وقد روى عن ابن عباس رضي الله عنهما ؛ أن الآية جامعة للصلوات الخمس : (تمسون) صلاة المغرب والعشاء . و (تصبحون)

(١) [٢ / البقرة / ٣٠] . (٢) [١٥ / الحجر / ٩٨] .

صلاة الفجر . و(عشيا) صلاة العصر و(تظهرون) صلاة الظهر . فإن قيل : لم غيّر الأسلوب في (عشيا) ؟ أجيب (كما قال أبو السعود) بأن تغيير الأسلوب لما أنه لا يجي منه الفعل بمعنى الدخول في العشي . كالمساء والصباح والظهيرة . ولعل السرّ في ذلك أنه ليس من الأوقات التي تختلف فيها أحوال الناس ، وتتغير تغيراً ظاهراً مصححاً لوصفهم بالخروج عما قبلها ، والدخول فيها ، كالأوقات المذكورة . فإن كلا منها وقت تتغير فيه الأحوال تغيراً ظاهراً . أما في المساء والصباح فظاهر . وأما في الظهيرة فلائها وقت يعتاد فيه التجرد عن الثياب للقيولة . كما مرّ في سورة النور . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ

[٢٠] (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ)

[٢١] (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

« يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ » أى كالإنسان من النطفة ، والطارئ من البيضة « وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ » كالنطفة والبيضة من الحيوان « وَيُحْيِي الْأَرْضَ » أى بالنبات « بَعْدَ مَوْتِهَا » أى يسبها « وَكَذَلِكَ » أى : ومثل ذلك الإخراج « تُخْرَجُونَ » أى من قبوركم .

وقال المهابي : أى : بالصلاة عن موت القلب إلى حياته ، ومن حياة النفس إلى موتها . ويحيي أرضها بنبات الهيئات الفاضلة ، بعد موتها بالهيئات الرديئة . وبالعكس بتركها . اهـ
وآثر هذا المعنى ، على بعده ، مراعاة لسياق الآية ، من طريق الإشارة « وَمِنْ آيَاتِهِ » أى

الباهرة الدالة على قدرته على البعث « أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ » أى يعنى أصلكم آدم عليه السلام . أو النطفة والمادة . أو على تقدير مضاف . أى ولا مناسبة بين التراب وبين ما أنتم عليه فى ذاتكم وصفاتكم « ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ » أى فى الأرض انتشاراً ملاً البسيطة وشمل الكرة . فأخذتم فى بناء المداين والحصون ، والسفر فى أقطار الأقاليم ، وركوب متن البحار ، والدوران حول كرة الأرض ، وكسب الأموال وجمعها ، مع فكرة ودهاء ، ومكر وعلم ، واتساع فى أمور الدنيا والآخرة . كل بحسبه . فسيحان من خلقهم وسيّرهم ، وصرفهم فى فنون المعاش وفاوت بينهم فى العلوم والمعارف ، والحسن والقبح ، والغنى والفقر ، والسعادة والشقاوة « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ » أى جنسكم « أَزْوَاجًا لَتَسْكُنُوا إِلَيْهَا » أى تأنسوا بها . فإن المجانسة من دواعى التضام والتعارف « وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً » أى توادداً وتراحماً بعصمة الزواج ، بعد أن لم يكن لقاء ولا سبب يوجب التعاطف من قرابة أو رحم « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » أى فى بدائع هذه الأفاعيل المتينة البنية على الحكم البالغة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَلْقُ الْإِنسَانِ مِنَ التُّرَابِ)
وَأَلْوَانِكُمْ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ)

[٢٣] (وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ)
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ)

[٢٤] (وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

[٢٥] (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ، ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ)

«وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ السِّنِينَ وَالْوَلَوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ» أى أولى العلم كقَالَ^(١) (وَمَا يَعْزِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ) «وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ» أى لاستراحة القوى ورد ما فقدته «وَأَبْتِغَاؤُكُمْ مِّن فَضْلِهِ» أى بالسعى فى الأسباب، والأخذ فى فضل الاكتساب «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ» أى سماع تفهم واستبصار «وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا» أى من الصاعقة «وَطَمَمًا» أى فى الغيث والرحمة . أو لتخافوا من قهر سلطانه، وتطمعوا فى عظيم إحسانه «وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ» أى بالنبات «بَعْدَ مَوْتِهَا» أى يسبها «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ» * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ «أى إرادته لقيامهما . قال أبو السعود: والتعبير عنها بالأمر، للدلالة على كمال القدرة، والغنى عن المبادئ والأسباب. وليس المراد بإقامتهما إنشاؤها. لأنه قد بين حاله بقوله تعالى^(٢) (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) ولا إقامتهما بغير مقيم محسوس، كما قيل. فإن ذلك من تمام إنشائهما، وإن لم يصرح به، تعويلا على ما ذكر فى غير موضع من قوله تعالى^(٣) (خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا) الآية . بل قيامهما واستمرارهما على ما هما عليه ، إلى أجلهما الذى نطق به قوله تعالى فيما قبل^(٤) (مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِإِحْقَ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى) وحيث كانت هذه الآية متأخرة عن سائر الآيات المعدادة، متصلة بالبعث فى الوجود، أخرت عنهن وجعلت متصلة به فى الذكر أيضا، فقيل : «ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ» فإنه كلام مسوق للإخبار بوقوع البعث ووجوده، بعد انقضاء أجل قيامهما،

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٤٣] . (٢) [٣٠ / الروم / ٢٢] .

(٣) [٣١ / لقمان / ١٠] . (٤) [٣٠ / الروم / ٨] .

مرتّب على تعداد آياته الدالة عليه ، غير منتظم في سلكها كما قيل . كأنه قيل : ومن آياته قيام السموات والأرض على هياتهما بأمره تعالى ، إلى أجل مسمى قدره الله تعالى لقيامهما . ثم إذا دعاكم ، أى بعد انقضاء الأجل من الأرض وأنتم في قبوركم ، دعوة واحدة ، بأن قال : أيها الموتى ! اخرجوا ، فاجأتهم الخروج منها ، وذلك قوله تعالى ^(١) (يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ) انتهى .

لطائف :

الأولى - الدعاء . إما على حقيقته ، أو الكلام تمثيل . شبه سرعة ترقب حصول ذلك ، على تعلق إرادته بلا توقف ، واحتياج إلى تجشم عمل ، بسرعة ترقب إجابة الداعي المطاع على دعائه . أو هو ممكنة وتخيلية ، بتشبيه الموتى بقوم يريدون الذهاب إلى محل ملك عظيم يهيمون لذلك ، وإثبات الدعوة لهم قربتها .

الثانية - قوله تعالى (مِنَ الْأَرْضِ) متعلق بـ (دعا) كقوله : دعوته من أسفل الوادى فطلع إلى ، لا بد (متخرجون) لأن ما بعد (إذا) لا يعمل فيما قبله .
الثالثة - قال الكرخي : قال هنا (إِذْ آأَنْتُمْ تَخْرُجُونَ) وقال في خلق الإنسان ^(٢) (ثُمَّ إِذَا آأَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ) لأنه هناك يكون خلق وتقدير وتدرّج ، حتى يصير التراب قابلاً للحياة ، فنفخ فيه الروح ، فإذا هو بشر . وأما في الإعادة فلا يكون تدرّج . بل يكون بدء وخروج . فلم يقل هنا : (ثم) . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، كُلٌّ لَهُ قَاسِتُونَ)

[٢٧] (وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ، وَلَهُ الْمَثَلُ

الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(١) [٢٠ / طه / ١٠٨] . (٢) [٣٠ / الروم / ٢٠] .

«وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» أي خلقاً وملكاً وتصرفاً «كُلُّ لَهُ وَقَتُونَ» أي متقادون لتصرفه ، لا يتأبون عليه « وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ » أي بعد موتهم . قال أبو السعود : وتكريره لزيادة التقرير ، والتمهيد لما بعده من قوله تعالى « وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ » أي من البدء . أي بالقياس إلى ما يقتضيه معقول المخاطبين . لأن من أعاد منهم صنعة شيء ، كانت أسهل عليه وأهون من إنشائها . وإلا فهما عليه سبحانه سواء في السهولة .
لطائف :

الأولى - تذكير الضمير ، مع رجوعه إلى الإعادة ، لما أنها مؤولة بـ (أن يعيد) .
الثانية - قال الزمخشري : فإن قلت : لم أخرت الصلة في قوله (وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ) وقدمت في قوله ^(١) (هُوَ عَلَى هَيِّنٍ) ؟ قلت : هناك قصد الاختصاص ، وهو محزه . فقيل (هُوَ عَلَى هَيِّنٍ) وإن كان مستصعباً عندكم أن يولد بين همّ وعافر . وأما ههنا ، فلامعنى للاختصاص كيف؟ الأمر مبني على ما يعقلون ، من أن الإعادة أسهل من الابتداء . فلو قدمت الصلة ، لتغير المعنى . اهـ .

قال الناصر : كلام نفيس يستحق أن يكتب بذوب التبر ، لا بالحبر . وإنما يلحق الاختصاص من تقديم ما حقه أن يؤخر .

الثالثة - قال الزمخشري : فإن قلت ما بال الإعادة استعظمت في قوله ^(٢) (ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ) حتى كأنها فضلت على قيام السموات والأرض بأمره ، ثم هونت بعد ذلك ؟ قلت : الإعادة في نفسها عظيمة . لكنها هونت بالقياس إلى الإنشاء . انتهى .

قال الناصر : إنما يلحق في السؤال تعظيم الإعادة من عطفها بـ (ثم) إيذاناً بتغاير مرتبتها وعلو شأنها . وقوله (في الجواب) : إنها هونت بالنسبة إلى الإنشاء ، لا يخلص . فإن الإعادة ذكرت ههنا عقيب قيام السموات والأرض بأمره . وقيامهما ابتداء وإنشاء أعظم من الإعادة . فيلزم

(٣) [١٩ / مريم / ٩ و ٢١] . (٢) [٣٠ / الروم / ٢٥] .

تعظيم الإعادة بالنسبة إلى ما عطف عليه من الإنشاء. ويعود الإشكال . والمخلص ، والله أعلم ، جعل (ثم) على بابها لتراخي الزمان لا لتراخي المراتب . وإن سلم أنها لتراخي المراتب ، فعلى أن تكون مرتبة المعطوف عليه العليا ، ومرتبة المعطوف هي الدنيا . وذلك نادر في مجيئها لتراخي المراتب . فإن المعطوف حينئذ في أكثر المواضع ، أرفع درجة من المعطوف عليه ، والله أعلم . انتهى .

وفي حواشي القاضى : إن (ثم) إما لتراخي زمان المعطوف فتكون على حقيقتها . أو لعظم مافى المعطوف من إحياء الموتى ، فتكون للتمايز في الرتبة لا للتراخي الزمانى . والمراد عظمه في نفسه وبالنسبة إلى المعطوف عليه . فلا ينافى قوله (وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ) وكونه أعظم من قيام السماء والأرض ، لأنه المقصود من الإيجاد والإنشاء ، وبه استقرار السعداء والأشقياء في الدرجات والدركات . وهو المقصود من خلق الأرض والسموات . فاندفع اعتراض الناصر بأنه ، على تسليمه ، مرتبة المعطوف عليه هنا هي العليا ، مع أن كون المعطوف في مثله أرفع درجة ، أكثرى لا كلى . كما صرح به الطيبي هنا . فلا امتناع فيما منعه . وهي فائدة نقيصة . ويجوز حمله على مطلق البعد الشامل للزمانى والرتبى . كما فى (شرح الكشاف) وقوله تعالى « وَكَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى الوصف الأعلى الذى ليس لغيره ما يدانيه فيهما . كالقدرة العامة والحكمة التامة . وذلك لأنه لما جعل ما ذكر أهون عليه على طريق التمثيل ، عقبه بهذا . فكأنه قيل هذا ، لتفهم العقول القاصرة أن صفاته عجيبة وقدرته عامة وحكمته تامة . فكل شئ بدءاً وإعادةً وإيجاداً وإعداماً ، عنده على حد سواء ، ولا مثل له ولا ند . وقال الزجاج : المراد بالمثل قوله (وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ) فاللام فيه للعهد . فحمل المثل على ظاهره . وعلى ما ذكر أولاً ، هو مجاز عن الوصف العجيب . فيشمل القول وغيره مما هو جار على السنة الدلائل ولسان كل قائل . ١ هـ (وَهُوَ الْمَرْيُومُ) أى الغائب على أمره ، الذى لا يعجزه بدء ممكن وإعادته « الْحَكِيمُ » الذى يجرى أفعاله على سنن الحكمة والمصلحة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ، هَلْ لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ
مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ
أَنفُسَكُمْ ، كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

[٢٩] (بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ،
وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ)

« ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا » أى يتبين به بطلان الشرك « مِّنْ أَنفُسِكُمْ » أى منتزعا من
أحوالها . وهى أقرب الأمور إليكم وأظهر كشفا « هَلْ لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ »
أى من العبيد والإماء « مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ » أى من الأموال وغيرها « فَأَنتُمْ
فِيهِ سَوَاءٌ » أى متساوون فى التصرف فيما ذكر من غير مزية « تَخَافُونَهُمْ » أى تهابون
أن تستبدوا بالتصرف فيه بدون رأيهم . وهو خبر آخر (أنتم) « كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ »
أى كما يخاف بعضهم بعضا من الأحرار المساهمين لكم فيما ذكر . والمعنى نرى مضمون ما فصل
من الجملة الاستفهامية . أى : لا ترضون بأن يشارككم فى هومعاركم ممالئكم ، وهم أمثالكم
فى البشرية ، غير مخلوقين لكم ، بل لله تعالى . فكيف تشركون به سبحانه فى العبودية ،
التي هى من خصائصه الذاتية ، مخلوقه بل مصنوع مخلوقه ، حيث تصنعونه بأيديكم ثم تعبدونه ؟
أفاده أبو السعود « كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ » أى مثل ذلك التفصيل الواضح ، توضيح
الآيات « لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ » أى يقين وبرهان
« فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ » أى سبب صرف اختياره إلى كسبه . أى : لا يقدر على هدايته أحد
« وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ » أى ينصرونهم من الله ، إذا أراد بهم عذابا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ، فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، لَا تَبْدِيلَ

لِخَلْقِ اللَّهِ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

[٣١] (مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

[٣٢] (مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا ، كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ)

« فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ » أى فقومه له ، واجعله مستقيماً متوجهاً له . وفى النظم الكريم

استعارة تمثيلية ، بتشبيه الأمور بالمؤمن بالدين ورعاية حقوقه وعدم مجاوزة حدوده والاهتمام بأموره ، بمن أمر بالنظر إلى أمر ، وعقد طرفه به ، وتسديد نظره وتوجيه وجهه له ، لمراعاته

والاهتمام بحفظه « حَنِيفًا » أى مائلاً عن كل ماسواه ، إليه . قال المهايى : ولا يعسر الرجوع إليه

لكونه « فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا » أى لأن عقل كل واحد يدل على أنه حادث

يفتقر إلى محدث . ولا دلالة على الافتقار إلى متعدد أبداً . فالقول بتعدد تغيير للفطرة . لكن

« لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ » أى لا تغيير لأمر العقل الذى خلقه الله للاستدلال « ذَلِكَ » أى الدين

المأمور بإقامة الوجه له ، أو الفطرة « الدِّينُ الْقَيِّمُ » أى المستقيم الذى لا عوج فيه . قال المهايى :

وإن لم يقم عند المبدلين دليل على استحالة التعدد ، فهذا هو مقتضى الفطرة « وَلَكِنَّ أَكْثَرَ

النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » أى أنه مقتضى الفطرة . وهى أقطع قاطع وأحسم حاسم لشغب المشاغب .

لأنها من الأمور التى لا تدخل تحت الكسب والاختيار . وقوله تعالى « مُنِيبِينَ إِلَيْهِ » أى

راجعين إليه بالتوبة والإنابة^(١) (وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ) وهو حال من فاعل (ائرموا)

المقدر ناصباً لـ (فطرة) أو من فاعل (أقم) على المعنى . إذ لم يرد به واحد بعينه . ولأن الخطاب

له ﷺ ولأمته . أو على أنه على حذف المعطوف عليه . أى : أقم أنت وأمتك . والحال من الجميع

(١) [٣ / آل عمران / ١٣٥] .

« وَأَتَّقُوا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ » أى جعلوه أدياناً مختلفة، لاختلاف أهوائهم « وَكَانُوا شِعْماً » أى فرقاً « كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ » أى كل حزب منهم فرح بمذهبه ، مسرور ، يحسب باطله حقاً .

قال القاشانى: يعنى المفارقين الدين الحقيقى ، المتفرقين شيعاً مختلفة ، كل حزب عند تكدر الفطرة ، وتكاف الحجاب ، يفرح بما يقتضيه استعداده من الحجاب ، لكونه مقتضى طبيعة حجابيه . فيناسب حاله من الاستعداد العارضى ، وإن لم يلائم الحقيقة بحسب الاستعداد . ولهذا يجب به التعذيب عند زوال العارض . اهـ .

ثم احتج عليهم برجوعهم إليه عند الشدائد ، مما يحمل أن يرجع إليه بعبادته دائماً ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا آذَاهُمْ مِنْهُ رَحْمَةٌ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ)

[٣٤] (لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

[٣٥] (أَمْ أَنْزَلْنَاهُمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ)

[٣٦] (وَإِذَا آذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا ، وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ مِنْ بَآئِنَا قَدَمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ)

« وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ » أى شدة « دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ » أى راجعين إليه وحده دون شركائهم « ثُمَّ إِذَا آذَاهُمْ مِنْهُ رَحْمَةٌ » أى خلاصاً من تلك الشدة « إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ » أى بالسبب الذى آتيناهم الرحمة من أجله ، وهو الإنابة . واللام للعاقبة . وقيل : للأمر التهديدى كقوله تعالى « فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ

تَعْلَمُونَ « أى عاقبة تتمتعكم ووباله « أَمْ أُنْزِلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا « أى حجة واضحة قاهرة « فَهَوَ يَتَكَلَّمُ » أى تسكلم دلالة . كما فى قوله ^(١) تعالى (هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ) « بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ » أى بإشراكهم . وهذا استفهام إنكار . أى : لم يكن شئ من ذلك « وَإِذْ آذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً » أى نعمة من صحة وسعة « فَرِحُوا بِهَا » أى بطراً ونفراً ، لاحدا وشكرا « وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ » أى شدة « بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ » أى من المعاصى والآثام « إِذَاهُمْ يَقْنَطُونَ » أى ييأسون من روح الله . قال : هذا إنكار على الإنسان من حيث هو ، إلا من عصمه الله تعالى ووفقه . فإن الإنسان إذا أصابته نعمة بطر وقال ^(٢) (ذَهَبَ أَلْسِيَّتَاتُ عَنِّي إِنَّهُ وَلَفَرِحُ فَخُورٌ) أى يفرح فى نفسه ، يفخر على غيره . وإذا أصابته شدة قنط وأيس أن يحصل بعد ذلك خير بالسكية . قال الله تعالى ^(٣) (إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ) أى : صبروا فى الضراء وعملوا الصالحات فى الرخاء . كما ثبت فى الصحيح ^(٤) : عجبا للمؤمن ، لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيرا له . إن أصابته سراء شكر ، فكان خيرا له . وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيرا له .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ

لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

« أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ » إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » قال الزمخشري : أنكر عليهم بأنهم قد علموا أنه هو الباسط القابض . فإلهم

(١) [٤٥ / الجاثية / ٢٩] . (٢) [١١ / هود / ١٠] . (٣) [١١ / هود / ١١] .

(٤) أخرجه مسلم فى : ٥٣ - كتاب الزهد والرقائق ، حديث رقم ٦٤ (طبعنا)

يقنطون من رحمته ، وما لهم لا يرجعون إليه تائبين من المعاصي التي عوقبوا بالشدة من أجلها ، حتى يعيد إليهم رحمته ؟

ولما بين تعالى أن السيئة أصابتهم بما قدمت أيديهم ، أتبعه ذكر ما يجب أن يفعل ، وما يجب أن يترك ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ، ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

[٣٩] (وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لِّيَرْبُوًّا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوًّا عِنْدَ اللَّهِ ،

وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ)

« فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ » أى من البر والصلة . واستدل به أبو حنيفة رحمه الله على

وجوب النفقة للمحارم إذا كانوا محتاجين عاجزين عن الكسب . لأن (آتِ) أمر للوجوب .

والظاهر من (الحق) بقرينة ما قبله أنه مالى ، وهو استدلال متين « وَالْمِسْكِينَ » وهو الذى لا شئ

له ينفق عليه . أوله شئ لا يقوم بكفايته « وَابْنَ السَّبِيلِ » أى السائل فيه ، والذى انقطع

به . وحقهما هو نصيبهما من الصدقة والمواساة « ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ »

أى النظر إليه يوم القيامة . وهو الغاية القصوى . أو يريدون ذاته بمعرفهم لاراء ولا سمعة ،

ولا مكافأة يد . كما قال تعالى ^(١) (الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى * وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِن

نِعْمَةٍ تُجْزَى * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى) « وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » أى فى الدنيا

والآخرة « وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا » أى مال ترابون فيه « لِّيَرْبُوًّا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ » أى ليزيد

فى أموالهم ، إذ تأخذون فيه أكثر منه « فَلَا يَرْبُوًّا عِنْدَ اللَّهِ » أى لا يزكو ولا ينمو

(١) [٩٢ / الليل / ١٨ - ٢٠] .

ولا يبارك فيه . بل يحقه محق ما لا عاقبة له عنده إلا الوبال والنسكال . وذكر في تفسيرها معنى آخر ، وهو أن يهب الرجل للرجل ، أو يهدي له ليعوضه أكثر مما وهب أو أهدى . فليست تلك الزيادة بحرام . وتسميتها ربا مجاز ، لأنها سبب الزيادة .

قال ابن كثير : وهذا الصنيع مباح وإن كان لا ثواب فيه . إلا أنه نهى عنه رسول الله ﷺ خاصة ، قال الضحاك ، واستدل بقوله تعالى (١) (وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ) أى لا تعط العطاء ، تريد أكثر منه . وقال ابن عباس : الربا رباءان ، قريباً لا يصح ، يعنى ربا البيع ، وربا لا بأس به ، وهو هدية الرجل ، يريد فضلها وإضعافها . انتهى .

وأقول : فى ذلك كله نظر من وجوه :

الأول - أن هذه الآية شبيهة بآية (٢) (يَمَحَقُ اللَّهُ الرِّبَاَ وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ) وهى فى ربا البيع الذى كان فاشيا فى أهل مكة حتى صار ملكة راسخة فيهم ، امتصوا بها ثروة كثير من البؤساء ، مما خرج عن طور الرحمة والشفقة والكمال البشرى . فنعى عليهم حالهم ، طلباً لتركيتهم بتوبتهم منه . ثم أكد ذلك فى مثل هذه الآية . مبالغة فى الزجر .

الثانى - أن الربا ، على ما ذكر ، مجاز . والأصل فى الإطلاق الحقيقة ، إلا لصارف يرشد إليه دليل الشرع ، أو العقل . ولا واحد منهما هنا ، إذ لا موجب له .

الثالث - دعوى أن الهبة المذكورة مباحة ، لا بأس بها بعد كونها هى المرادة من الآية - بعيدة غاية البعد . لأن فى أسلوبها من الترهيب والتحذير ما يجعلها فى مصاف المحرمات . ودلالة الأسلوب من أدلة التنزيل القوية ، كما تقرر فى موضعه .

الرابع - زعم أن المنهى عنه هو الحضرة النبوية خاصة ، لا دليل عليه إلا ظاهر الخطاب . وليس قاطعاً .

لأن اختصاص الخطاب لا يوجب اختصاص الحكم على التحقيق . لا يقال الأصل وجوب

(١) [٧٤ / المذثر / ٦] . (٢) [٢ / البقرة / ٢٧٦] .

حمل اللفظ على حقيقته ، وحمله على المجاز لا يكون إلا بدليل ، وكذا ما يقال إن ثبوت الحكم في غير محل الخطاب يفترق إلى دليل - لأننا نقول: الأصل في التشريعات العموم ، إلا ما قام الدليل القاطع على التخصيص بالتنصيص ، وليس منه شيء هنا . وقد عهد في التنزيل تخصيص مراد به التعميم إجماعاً . كآية (١) (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ) وأماها .

الخامس - أن في هذا المنهى عنه من إصعاد المرء إلى ذروة المحسنين الأعفاء ، الذين لا يتبعون قلوبهم نفقتهم ، ما يبين أنه شامل لسائرهم . لما فيه من تربية إرادتهم وتهذيب أخلاقهم . بل لو قيل إن الخطاب له صلوات الله عليه ، والمراد غيره ، كما قالوه في كثير من الآي - لم يبعد . لما تقرر من عصمته ونزاهته عن هذا الخلق ، في سيرته الزكية . وحينئذ فالوجه في الآية هو الأول ، وعليه المعول . والله أعلم « وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ » أى مال تزكون به من رجس الشح ودنس البخل « تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ » أى ذوو الأضعاف من الثواب . جمع (مضعف) اسم فاعل (من أضعف) إذا صار ذا ضعف ، (بكسر فسكون) بأن يضاعف له ثواب ما أعطاه . (كأقوى وأيسر) إذا صار ذا قوة ويسار . فهو لصيرورة الفاعل ذا أصله . أو الذين ضعفوا ثوابهم وأموالهم ببركة ما أنفقوا . على أنه من (أضعف) والهمزة للتعدي ، ومفعوله محذوف ، وهو ما ذكر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُعِيْثُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ، هَلْ مِن شَرِكَا يَكُم مَّن يَفْعَلُ مِن دَالِكُم مِّن شَيْءٍ ، سُبْحٰنَهُ وَتَعَالٰى عَمَّا يُشْرِكُونَ) «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُعِيْثُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شَرِكَا يَكُم مَّن يَفْعَلُ مِن دَالِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحٰنَهُ وَتَعَالٰى عَمَّا يُشْرِكُونَ» قال القاضى : أثبت له

(١) [٣٣ / الأحزاب / ١] .

تعالى لوازم الألوهية ، ونفاها رأساً عما اتخذوه شركاء له من الأصنام وغيرها . مؤكداً بالإنكار على ما دل عليه البرهان والعيان ، ووقع عليه الوفاق . ثم استنتج من ذلك تقدسه عن أن يكون له شركاء . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[٤٢] (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ ، كَانْ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ)

[٤٣] (فَاقْمْ وَّجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَاسِمِ مِنْ قَبْلُ أَنْ يَأْتِيَنَّ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ، يَوْمَئِذٍ يُصَدَّعُونَ)

«ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ» أى كثرة المضار والمعاصي على وجه الأرض وعلى ظهر السفن فى لجج البحر «بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ» أى من الآثام والموبقات ففسد الفساد وانتشرت عدواه وتوارثه جيل عن جيل أينما حلوا وحيثما ساروا «لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» اللام للعاقبة . أى ظهور الشرور بسببهم ، مما استوجبوا به أن يذيقهم الله وبال أعمالهم ، إرادة الرجوع . وقيل اللام للعلة ، على معنى أن ظهور الجذب والقسط والفرق بسبب شؤم معاصيهم ، ليذيقهم وبال بعض أعمالهم فى الدنيا ، قبل أن يعاقبهم بجميعها فى الآخرة ، لعلمهم يرجون عمام عليه . كقوله تعالى ^(١) (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ) «قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ

(١) [٤٢ / الشورى / ٣٠] .

أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ « أى فأذاقهم سبحانه سوء العاقبة، لشرّكهم المستتبّع لكل إثم وعصيان « فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَاسِمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ وَ «أى لا يقدر أحد على رده. وقوله «مِنَ اللَّهِ» متعلق بـ(يأتى) أو بـ(مرد) لأنه مصدر على معنى لا يردده تعالى، لتعلق إرادته بحجيته . وفيه انتفاء رد غيره بطريق برهاني . وقيل عليه، لو كان كذلك لزم تنوينه لمشابهته للمضاف . وأجيب بأن الشبيه بالمضاف قد يحمل فى ترك تنوينه . كما فى الحديث (لا مانع لما أعطيت) « يَوْمَئِذٍ يَصْدَعُونَ » أى يتفرون كالفراش المبثوث ، أو فريق فى الجنة وفريق فى السعير كقوله ^(١) (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِرُونَ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

- [٤٤] (مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُمْ يَمْهَدُونَ)
 [٤٥] (لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ)
 « مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَ « أى وبال كفره . قال الزمخشري : كلمة جامعة ، لما لا غاية وراءه من المضار . لأن من كان ضارّه كفره ، فقد أحاطت به كل مضرة « وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُمْ يَمْهَدُونَ » أى يسوّون منزلا فى الجنة . أى يوطئونه توطئة الفراش لمن يريد الراحة عليه « لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

- [٤٦] (وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيَذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْزِيَ الْفُلْكَ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)
 [٤٧] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِٱلْبَيِّنَاتِ فَأَنكَرُوا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ، وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

«وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ» أى بالمطر «وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْزِيَ أَلْفُكُ بِأَمْرِهِ» أى فى البحر عند هبوبها «وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ» أى بتجارة البحر «وَأَعْلَمُكُمْ تَشْكُرُونَ» أى ولتشكروا نعمة الله فيما ذكر «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرُموا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ» هذه تسليمة له ﷺ بمن قبله على وجه يتضمن الوعد له والوعيد لمن عصاه. قال الزخشرى : فى قوله تعالى (وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) تعظيم للمؤمنين ، ورفع من شأنهم ، وتأهيل لكرامة سنية ، وإظهار لفضل سابقة ومزية. حيث جعلهم مستحقين على الله أن ينصرهم ، مستوجبين عليه أن يظهرهم ويظهرهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[۴۸] (اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيْحَ فَتُنْفِثُ سَحَابًا فَيُبْسِطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ، فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبِشِرُونَ)

[۴۹] (وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ)

[۵۰] (فَأَنْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُخْرِجُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَجَائِ الْمَوْتِ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

«اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيْحَ فَتُنْفِثُ سَحَابًا فَيُبْسِطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ» إماسا ئرا وواقفا ، مطبقا وغير مطبق ، من جانب دون جانب ، إلى غير ذلك «وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا» أى قطعا تارة أخرى «فَتَرَى الْوَدْقَ» أى المطر «يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ» فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبِشِرُونَ* وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ» أى المطر

«مَنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ» أى لايسين. قال الزمخشري: من قبله، من باب التكرير والتوكيد، كقوله تعالى (١) «فَكَانَ عَاقِبَتُهُمْ مَا أَنَّهُمْ فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا» ومعنى التوكيد فيه، الدلالة على أن عهدهم بالمطر قد تجاوز وبعد، فاستحكم بأسهم وتمادى إبلاسههم. فكان الاستبشار على قدر اغتامهم بذلك . انتهى .

وعكسه ابن عطية رحمه الله فقال : إنه يدل على سرعة تقلب القلوب البشرية من الإبلas إلى الاستبشار .

قال الشهاب : وما ذكره ابن عطية أقرب . لأن المتبادر من القبلية الاتصال . وتأكيده دال على شدة اتصاله «فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ» أى أثر الغيث من النبات والأشجار والحبوب والثمار «كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ» أى العظيم الشأن الذى ذكر بعض شؤونه «لَمَحْضٍ الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» .

القول فى تأويل قوله تعالى :

- [٥١] (وَلَيْنَ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ)
- [٥٢] (فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ)
- [٥٣] (وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ، إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ)

«وَلَيْنَ أَرْسَلْنَا رِيحًا» على الزرع «فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا» أى من تأثيرها فيه «لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ» أى من بعد اصفراره يجحدون ما تقدم إليهم من النعم ، أو يقنطون ولا يصبرون على بلائه . وفيه من ذمهم وعدم تدبرهم وسرعة تزلزلهم لعدم تفكيرهم وسوء رأيهم - ما لا يخفى .

ثم أشار تعالى إلى أن من أنكر قدرته على إحياء الزرع بعد اصفراره ، وقد رأى قدرته على إحياء الأرض بعد موتها ، فهو ميت لا يمكن إسماعه خبر إحياء الموتي ، بقوله سبحانه « فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى » أى لما أن هؤلاء مثلهم ، لانسداد مشاعرهم عن الحق « وَلَا تَسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ » قال أبو السعود: تقييد الحكم بما ذكر ، لبيان كمال سوء حال الكفرة والتنبيه على أنهم جامعون لخصلتي سوء ، نبو أسماعهم عن الحق ، وإعراضهم عن الإصغاء إليه. ولو كان فيهم إحداها ، لكفاهم ذلك. فكيف وقد جمعوها؟ « وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمِعُ » أى ما تسمع « إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ » أى منقادون لما تأمرهم به من الحق .

تنبيه :

قال ابن كثير : وقد استدلت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها بهذه الآية^(١) (فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى) على توهيم^(٢) عبد الله بن عمر في رواية مخاطبة النبي ﷺ القتل الذين ألقوا في قليب بدر ، بعد ثلاثة أيام ، ومعاذته إياهم وتقريبه لهم . حتى قال له عمر : يا رسول الله ! متخاطب من قوم قد جيفوا؟ فقال : والذي نفسى بيده ! ما أتم بأسمع لما أقول ، منهم . ولكن لا يجيبون . وتأولته عائشة على أنه قال : إنهم الآن يعلمون أن ما كنت أقول لهم حق . وقال قتادة : أحياءهم الله له حتى سمعوا مقالته ، تقريبا وتوبيخا ونقمة .

ثم قال ابن كثير : والصحيح عند العلماء رواية عبد الله بن عمر ، لما لها من الشواهد على صحتها من وجوه كثيرة . من أشهر ذلك ، ما رواه ابن عبد البر مصححا له عن ابن عباس مرفوعا (ما من أحد يمر بقبر أخيه المسلم ، كان يعرفه في الدنيا ، فيسلم عليه إلا ردد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام) . انتهى .

وقال ابن الهمام : أكثر مشايخنا على أن الميت لا يسمع استدلالا بهذه الآية ونحوها .

(١) [٣٠ / الروم / ٥٢] . (٢) الحديثان أخرجهما البخارى في : ٢٣ - كتاب

الجنائز ، ٨٧ - باب ما جاء في عذاب القبر ، حديث ٧٢٦ و ٧٢٧

ولذا لم يقولوا : بتلقين القبر . وقالوا : لو حلف لا يكلم فلانا ، فكلمه ميتاً لا يحنث . وأورد عليهم قوله ﷺ في أهل القليب (ما أنتم بأسمع منهم) وأجيب تارة بأنه روى عن عائشة رضي الله عنها أنها أنكرته . وأخرى بأنه من خصوصياته ﷺ معجزة له . أو أنه تمثيل . كإروى عن علي كرم الله وجهه . وأورد عليه ما في مسلم ^(١) من أن الميت يسمع قرع نعالهم إذا انصرفوا . إلا أن يخص بأول الوضع في القبر ، مقدمة للسؤال ، جمعاً بينه وبين ما في القرآن . نقله الشهاب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ)
[٥٥] (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ، كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ)

« اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ » قرئ بفتح الضاد وضمها . أى من أصل ضعيف هو النطفة « ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ » يعنى حال الطفولة والنشء « قُوَّةً » يعنى حال البلوغ والشبيبة إلى الاكتمال وبلوغ الأشد « ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً » أى بالشيخوخة والهرم « يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ » أى من الأشياء . ومنها هذه الأطوار التى يتقلب بها الإنسان « وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ » أى الواسع العلم والقدرة . كيف؟ وهذا التريدينى الأحوال المختلفة والتغير من صفة إلى صفة ، أظهر دليل على علم الصانع سبحانه وقدرته ، المستمع انفراد بالالوهية « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ » أى فى الدنيا أو القبور . وإنما يقدرون وقت لبثهم بذلك على وجه استقصارهم له . أو ينسون أو يكذبون أو يخمنون « كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ » أى مثل ذلك الصرف كانوا يصرفون عن الصدق والتحقيق فى الدنيا . وهكذا كانوا يبتون أمرهم على خلاف الحق . كذا فى الكشف .

(١) أخرجه فى : ٥١ - كتاب الجفة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث رقم ٧١ (طبعنا).

وقال ابن كثير : يخبر تعالى عن جهل الكفار في الدنيا والآخرة. ففي الدنيا فعلوا ما فعلوا من عبادة الأوثان . وفي الآخرة يكون منهم جهل عظيم أيضاً. فمنه إقسامهم بالله أنهم ما لبثوا غير ساعة واحدة في الدنيا . ومقصودهم بذلك عدم قيام الحججة عليهم ، وأنهم لم ينظروا حتى يعذر إليهم . انتهى .

وقال الشهاب : المراد من قوله ^(١) (كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ) تشابه حالهم في الكذب وعدم الرجوع إلى مقتضى العلم . لأن مدار أمرهم على الجهل والباطل . والغرض من سوق الآية وصف المجرمين بالتماذى في الباطل ، والكذب الذى أَلِفُوهُ . انتهى .
وقيل : كان قسمهم استقلالاً لأجل الدنيا ، لما عاينوا الآخرة ، تأسفاً على ما أضعوا في الدنيا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (وَقَالَ الَّذِينَ أَتَوْا آلَ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ ، فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)
[٥٧] (فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ)

« وَقَالَ الَّذِينَ أَتَوْا آلَ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ » ردًا لما حلفوا عليه ، وإطلاعا لهم على الحقيقة « لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ » أى فيما كتبه الله وأوجبه بحكمته « إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » أى أنه حق ، لتفريطكم في طلب الحق واتباعه « فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا » أى بالشرك ، أو إنكار الربوبية ، أو الرسالة ، أو شيء مما يجب الإيمان به « مَعذِرَتُهُمْ » أى بأنهم كفروا عن جهل . لأنه إنما كان عن تقصيرهم في إزالته ، أو عن عناد « وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ » أى ولا يطلب منهم الإعتاب . أى إزالة

العتب بالتوبة والطاعة . لأنهما ، وإن كانتا ماحتين للكفر والمعاصي ، فإنما كان لهما ذلك في مدة الحياة الدنيا ، لا غير .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ، وَلَئِن جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّا أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ)

[٥٩] (كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

[٦٠] (فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، وَلَا يَسْتَخِفَّنَّ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ)

« وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ » أى من كل وصف يوضح الحق ويزيل اللبس . أو من كل دليل على الأمور الأخروية . والحق يجرى مجرى المثل في الظهور « وَلَئِن جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ » أى مما افترحوه أو غيرها « لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّا أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ » أى لا يؤمنون بها . ويعتقدون أنها سحر وباطل « كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ » أى لا يطلبون العلم ولا يتحرون الحق . بل يصرون على خرافات اعتقدوها وترهات ابتدعوها . فإن الجهل المركب يمنع إدراك الحق ، ويوجب تكذيب الحق . قاله أبو السعود « فَاصْبِرْ » أى على ما تشاهد منهم ، من الأقوال الباطلة والأفعال السيئة « إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ » أى في قوله ^(١) (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ) « وَلَا يَسْتَخِفَّنَّ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ » أى لا يحملنك على الخفة والقلق « الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ » أى بما تتلو عليهم من الآيات البينة ، بتكذيبهم إياها ومكرهم فيها . فإنه تعالى منجز لك ما وعدك من نصرك عليهم ، وجعله العاقبة لك ، ولمن اعتمد بما جئت به من المؤمنين .

(١) [٣٧ / الصافات / ١٧١ - ١٧٣] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣١ - سُورَةُ لُقْمَانَ

سميت به لاشتمالها على قصته التي تضمنت فضيلة الحكمة وسر معرفة الله تعالى وصفاته ،
وذم الشرك والأمر بالأخلاق والأفعال الحميدة . والنهي عن الذميمة . وهي معظمت مقاصد
القرآن . قاله المهابي . وهي مكية . ويقال : إله قوله تعالى ^(١) (وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ
شَجَرَةٍ . . .) الآيتين . وآياتها أربع وثلاثون آية . وسيأتي الكلام على لقمان والخلاف فيه .

(١) [٣١ / لقمان / ٢٧ و ٢٨] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

- [١] (الْم) [٢] (تِلْكَ ءَايَةُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ) [٣] (هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ) [٤] (الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ) [٥] (أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ، وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) [٦] (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ، أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ)
- « الْم * تِلْكَ ءَايَةُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ » أى ذى الحكمة الناطق بها « هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ » بيان لإحسانهم، يعنى معاملوه من الحسنات. أو تخصيص لهذه الثلاثة من شعبه، لإظهار فضلها وإناقها على غيرها. والمراد بالزكاة، على أنها مكية، هى مطلق إخراج المال تقربا بالتصدق منه، وتركه للنفس بإيتائه، من وصمة البخل والشح الردى لها. لا أنصباؤها المعروفة. فإنها إنما بينت بالمدينة « أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ » تعريض بالمشركين. وأنهم يستبدلون بهذا الكتاب المفيد الهدى والرحمة والحكمة، ما يلهى من الحديث عن ذلك الكتاب العظيم. ليضلوا أتباعهم عن الدين الحق. قال الزنجشري: و(اللهو) كل باطل أنهى عن الخير، وعما يعنى. وهو الحديث نحو

السمر بالأساطير ، والأحاديث التي لا أصل لها ، والتحدث بالخرافات والمضاحيك وفضول الكلام . وما لا ينبغي ، مما كانوا يؤفكون به عن استماع حكم التنزيل وأحكامه . ويؤثرونه على حديث الحق . وقوله تعالى « بَغَيْرِ عِلْمٍ » أى بما هي الكلات ومنافعها ، والنقائص ومضارها « وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا » الضمير للسبيل ، وهو مما يذكر ويؤنث . « أَوْلَا لَكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَإِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِ ءَايَتُنَا وَلِيٰ مُّسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِيّٰٓ أذْنِهٖ وَقْرًا ، فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

[٨] (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ النّعِيمِ)

[٩] (خٰلِدِينَ فِيهَا ، وَعَدَ اللّٰهُ حَقًّا ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[١٠] (خَلَقَ السَّمٰوٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَّرَوْنَهَا ، وَأَلْقٰٓ فِي الْاَرْضِ رَوٰسِيًا أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ، وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ)

« وَإِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِ ءَايَتُنَا وَلِيٰ » أى أعرض عنها « مُّسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِيّٰٓ أذْنِهٖ وَقْرًا » أى ثقلا ما نعام السماع « فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ النّعِيمِ * خٰلِدِينَ فِيهَا وَعَدَ اللّٰهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * خَلَقَ السَّمٰوٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَّرَوْنَهَا » الضمير للسماوات . وهو استشهاد برؤيتهم لها غير معمودة على قوله (بِغَيْرِ عَمَدٍ) كما تقول لصاحبك : أنا بلا سيف ولا رمح ترانى . والجملة لا محل لها لأنها مستأنفة . أو فى محل الجر ، صفة للعمد . أو بغير عمد مرثية . يعنى أنه عمدها بعمد لا ترى

وهي إمساكها، بقدرته. كذا في (الكشاف) «وَأَتَقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوْسِي» أي جبالاً ثوابت «أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ» أي تميل بكم فتهلككم لما في جوفها من قوة الجيشان «وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ» أي من كل نوع من أنواعها «وَأَنْزَلْنَا» أي لحفظكم وحفظ دوابكم ، وللفرق بكم وبدوابكم «مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ» أي صنف من الأغذية والأدوية «كَرِيمٍ» أي كثير المنافع .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ، بَلِ الظَّالِمُونَ

فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)

[١٢] (وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ ، وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا

يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ)

« هَذَا » أي ما ذكر من السموات والأرض، وما تعلق بهما من الأمور المعدودة « خَلَقُ

اللَّهِ » أي مخلوقه « فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ » أي مما اتخذتموهم شركاء له سبحانه

في العبادة « بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ » إضراب عن تبكيتهم بما ذكر، إلى التسجيل عليهم

بالضلال البين المستدعى للإعراض عن مخاطبتهم بالمقدمات المعقولة الحقة، لاستحالة أن يفهموا

منها شيئاً، فيهدوا به إلى العلم ببطلان ما هم عليه. أو يتأثروا من الإلزام والتبكييت فينزعجوا

عنه . ووضع الظاهر موضع ضميرهم ، للدلالة على أنهم بإشراكهم واضعون للشئ في غير

موضعه . ومتعدون عن الحدود. وظالمون لأنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد. أفاده أبو السعود

ثم أشار تعالى إلى أن بطلان الشرك مقول على لسان ذوى الحكمة . كيف لا؟ والتوحيد

أساس الحكمة، بقوله سبحانه «وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ» يعني استكمال النفس بالعلوم

النظرية ، وملكة الأفعال الفاضلة بقدر الطاقة البشرية ، أمرين له على لسان نبي أو بطريق

الإلهام (على قول الجمهور أنه حكيم) أو الوحي (على قول عكرمة أنه نبي) « أَنْ أَشْكُرَ لِلَّهِ » أى على ما أعطاك من نعمه ، من أوتيتها فقد أوتى خيراً كثيراً . كذا قاله المهايى . والأظهر أن (أن) مفسرة . فإن إبقاء الحكمة فى معنى القول . والشكر كلمة تجمع ما تدور عليه سعادة الدنيا والآخرة . لأنه صرف العبد جميع ما أنعم الله عليه إلى ما خلق لأجله « وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ » لِعَوْدِ ثمرات شكره عليه « وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ » أى غنى عن كل شيء . فلا يحتاج إلى الشكر . وتحقيق بالحمد . بل نطق بحمده كل موجود .

تنبيه :

قال ابن كثير : اختلف السلف فى لقمان . هل كان نبياً أو عبداً صالحاً من غير نبوة ، على قولين : الأكثر على الثانى . ويقال إنه كان قاضياً على بنى إسرائيل ، فى زمن داود عليه السلام . وما روى من كونه عبداً مسه الرق ، وينافى كونه نبياً . لأن الرسل كانت تبعث فى أحساب قومها . ولهذا كان جمهور السلف على أنه لم يكن نبياً ، وإنما يُنقل كونه نبياً عن عكرمة ، إن صح السند إليه . فإنه ^(١) رواه ابن جرير وابن أبى حاتم من حديث وكيع عن إسرائيل عن جابر عن عكرمة . قال : كان لقمان نبياً . وجابر هذا هو ابن يزيد الجعفى . وهو ضعيف . والله أعلم . انتهى .

وزعم بعضهم أن لقمان هو بلعام المذكور فى التوراة ، وكان حكيم شعب وثنى . وكان منبأ عن الله تعالى . وأغرب فى تقريبه ، بأن الفعل العربى وهو (لقم) معناه بالعبرى بلع . والله أعلم .

وقد نظم السيوطى من اختلف فى نبوته ، فقال :

واختلفت فى خضر أهل النقول قيل نبيّ أو وليّ أو رسول
لقمان ، ذى القرنين ، حوا ، مريم والوقف فى الجميع رأى المعظم

(١) انظر الصفحة رقم ٦٨ من الجزء الحادى والعشرين (طبعة الحلبي الثانية)

ثم قرن لقمان، بوصيته إياه بعبادة الله وحده، البرّ بالوالدين، كما قال تعالى^(١) (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) وكثيرا ما يقرن تعالى بين ذلك في القرآن الكريم . وقال ههنا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ ۖ وَهُوَ يَعِظُهُ وَيَبْنِي لَاتُشْرِكْ بِاللَّهِ ، إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)

[١٤] (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصْلُہُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىٰ الْمَصِيرِ)

«وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ ۖ وَهُوَ يَعِظُهُ وَيَبْنِي لَاتُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ * وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ ۖ أَى بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمَا ، لاسيما الوالدة . لأنه « حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ » أى ضعفا فوق ضعف إلى الولادة . و(وهنا) حال من (أُمُّهُ) أى ذات وهن . أو مصدر مؤكد لفعل هو الحال . أى : تهن وهنًا . وقوله (عَلَىٰ وَهْنٍ) صفة للمصدر . أى كأننا على وهن . أى تضعف ضعفا فوق ضعف . فإنها لاتزال يتزايد ضعفها . لأن الحمل كلما عظم ازدادت ثقلا وضعفا « وَفِصْلُہُ » أى فطامه « فِي عَامَيْنِ » ثم فسّر الوصية بقوله سبحانه « أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ » أى بأن تعرف نعمة الإحسان وتقدره قدره . قال في (البصائر) : الشكر مبنى على خمس قواعد : خضوع الشاكر للمشكور . وحبه له . واعترافه بنعمته . والثناء عليه بها . وأن لا يستعملها فيما يكره . هذه الخمسة هى أساس الشكر وبناءؤه عليها . فإن عدم منها واحدة ، اختلّت قاعدة من قواعد الشكر . وكل من تكلم في الشكر ، فإن كلامه إليها يرجع وعليها يدور . انتهى .

(١) [١٧ / الإسراء / ٢٣] .

وقوله تعالى «إِلَى الْمَصِيرِ» تعليل لجوب الامتثال . أى إلى الرجوع ، لا إلى غيرى ، فأجازيك على ما صدر عنك من الشكر والكفر .

تنبيهات

الأول - قال الزمخشري: فإن قلت: قوله تعالى (حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصْلُهَا فِي عَمَامِينَ) كيف اعترض به بين المفسر والمفسر؟ قلت: لما وصى بالوالدين، ذكر ما تكابده الأم وتعبانيه من المشاق والمتاعب في حملها وفصاله هذه المدة المتطاوله، إيجاباً للتوصية بالوالدة خصوصاً، وتذكيراً بحقها العظيم مفرداً. ومن ثم قال رسول الله ﷺ (١) (لمن قال له من أبر؟): أمك ثم أمك ثم أمك . ثم قال بعد ذلك: ثم أباك . وعن بعض العرب (٢) أنه حمل أمه إلى الحج على ظهره وهو يقول في حدائه بنفسه .

أَحْمِلْ أُمِّي وَهِيَ الْحَمْلَاءُ * تَرْضِعُنِي الدَّرَّةَ وَالْعَمَلَاءُ * وَلَا يُجَازَى وَالِدٌ فَعَالَهُ
الثاني - قال الحافظ ابن كثير: وقوله تعالى (وَفِصْلُهَا فِي عَمَامِينَ) كقوله (٣) (وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ) ومن ههنا استنبط ابن عباس وغيره من الأئمة، أن أقل مدة الحمل ستة أشهر. لأنه قال في الآية الأخرى (٤) (وَحَمْلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا) وإنما يذكر تعالى تربية الوالدة وتعبها ومشقتها في سهرها ليلاً ونهاراً، ليذكر الولد بإحسانها المتقدم إليه . كما قال تعالى (٥) (وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا) .

(١) أخرجه البخاري في : ٧٨ - كتاب الأدب ، ٢ - باب من أحق الناس بحسن الصحبة ، حديث رقم ٢٣٠٩ ، عن أبي هريرة .

(٢) انظر السكامل للمبرد ، الصفحة ٢٩٢ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) .

(٣) [٢ / البقرة / ٢٣٣] . (٤) [٤٦ / الأحقاف / ١٥] . (٥) [١٧ / الإسراء / ٢٤] .

الثالث - قال الزخشريّ : فإن قلت : ما معنى توقيت الفصال بالعامين ؟ قلت : المعنى في توقيته بهذه المدة ، أنها الغاية التي لا تتجاوز . والأمر فيما دون العامين موكول إلى اجتهد الأم ، إن علمت أنه يقوى على الفطام ، فلها أن تقطمه . ويدل عليه قوله تعالى (١) «وَأُولَٰئِكَ يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَتِّمَ الرِّضَاعَةَ» .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ، وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ، ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

«وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا» أي في إشراك

ما لا تعلمه مستحقاً للعبادة ، تقليداً لها .

وقال الزخشريّ : أراد بنفي العلم به نفيه ، أي لا تشرك بي ما ليس بشيء ، يريد الأصنام .

كقوله (٢) «مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِي مِنْ شَيْءٍ» .

قال في (الكشف) : ليس هذا من قبيل نفي العلم لنفي وجوده . كما مر في القصص .

وإلا لقال ما ليس بموجود . بل أراد أنه بولغ في نفيه حتى جعل كلا شيء . ثم بولغ في سلك المجهول المطلق .

قال الشهاب : وهذا تقرير حسن ، فيه مبالغة عظيمة «وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا»

أي صحاباً معروفين بارتضاه الشرع وبقضاه الكرم .

قال السيوطي في (الإكليل) : في الآية أن الوالد لا يطاع في الكفر . ومع ذلك يصحب

معروفاً «وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ» أي بالتوحيد والإخلاص في الطاعات ، وعمل

(١) [٢ / البقرة / ٢٣٣] . (٢) [٢٩ / العنكبوت / ٤٢] .

الصالحات « ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجُئِكُمْ فَأَنبِئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » كفاية عن الجزاء ، كما تقدم نظائره .

قال القاضي : والآيتان ، يعنى (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ إِلَىٰ قَوْلِهِ - تَعْمَلُونَ) معترضان في تضاعيف وصية لقمان ، تأكيداً لما فيها من النهى عن الشرك . كأنه قال : وقد وصينا بمثل ما وصى به ، وذكر الوالدين للمبالغة في ذلك . فإنهما ، مع أنهما تلو البارى تعالى في استحقاق التعظيم والطاعة ، لا يجوز أن يطاعا في الإشراك . فما ظنك بغيرها ؟ انتهى .
ثم بين تعالى بقية وصايا لقمان ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (يَبْنِئْ إِنهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي

السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ)

[١٧] (يَبْنِئْ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ

مَا أَصَابَكَ ، إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)

« يَبْنِئْ إِنهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ » أى إن الخصلة من الإساءة أو الإحسان ، إن تك مثلاً في الصغر كحبة الخردل « فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ » أى فتسكن مع كونها في أقصى غايات الصغر ، في أخفى مكان وأحرزه ، كجوف الصخرة . أو حيث كانت في العالم العلوى أو السفلى « يَأْتِ بِهَا اللَّهُ » أى يحضرها ويحاسب عليها « إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ » أى ينفذ علمه وقدرته في كل شيء « خَبِيرٌ » أى يعلم كنه الأشياء ، فلا يعسر عليه . والآية هذه كقوله تعالى ^(١) (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تَظْلِمُ نَفْسٌ

(١) [٢١ / الأنبياء / ٤٧] .

شَيْئًا) الآية ، وقوله^(١) (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) .

لطيفة :

قوله تعالى (فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ) الآية ، من البديع الذى يسمى التتميم . فإنه تم خفاءها فى نفسها بخفاء مكانها من الصخرة . وهو من وادى قولها^(٢) (كأنه علم فى رأسه نار) . « يَدْنِيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ » أى بحدودها وفروضها وأوقاتها ، لتكميل نفسك بعبادة ربك « وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ » لتكميل غيرك « وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ » أى من المحن والبلايا . أو فيما أمرت به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأن الداعى إلى الحق معرض لإيصال الأذى إليه . وهو أظهر . ويطابقه آية^(٣) (وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) « إِنَّ ذَلِكَ » إشارة إلى الصبر . أو إلى كل ما أمر به « مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ » أى مما عزمه الله من الأمور . أى قطعه قطع إيجاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ)

(١) [٩٩ / الزلزلة / ٧ و ٨] .

(٢) قائلته الخنساء ، ترى أخاها صخرًا . ومطلع القصيدة :

ما هاج حزنك أم بالعين عوارُ أم ذرفت ، أم خلت من أهلها الدارُ

وصدر البيت :

* أغرَّ أبلجُ تأتمَّ الهداةُ بهِ *

(٣) [١٠٣ / العصر / ٣] .

[١٩] (وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ ، إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ)

«وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ» أى لا تعرض بوجهك عنهم ، إذا كلمتهم أو كلموك ، احتقارا منك لهم ، واستكبارا عليهم . ولكن أَلِنْ جانبك ، وابسط وجهك إليهم . كما جاء في الحديث^(١) (ولو أن تلقى أخاك ووجهك منبسط) «وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا» أى خيلاء متكبرا «إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ» أى معجب في نفسه «فَخُورٍ» أى على غيره «وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ» أى توسط بين الديب والإسراع «وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ» أى انتقص من رفعه ، وأقصر ، فإنه يقبح بالرفع حتى ينكره الناس ، إنكارهم على صوت الحمير . كما قال «إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ» معللا للأمر على أبلغ وجه وآكده و(أنكر) بمعنى أوحش . من قولك (شئ نكر) إذا أنكرته النفوس واستوحشت منه ونفرت . كما يقال في العرف للقبيح (وحش) وأصله ضد الأنس والألفة . فهو إما مجاز أو كناية .

قال الزخشرى : الحمار مثل في الذم البليغ والشتيمة وكذلك نهاقه . ومن استفحاشهم لذكركه مجردا ، وتقاديبهم من اسمه ، أنهم يكونون عنه ويرغبون عن التصريح به . فيقولون (الطويل الأذنين) كما يكنى عن الأشياء المستعذرة . وقد عُذَّ في مساوى الآداب ، أن يجرى ذكر الحمار في مجلس قوم من أولى المروءة . ومن العرب من لا يركب الحمار استنكافا ، وإن بلغت منه الرحلة . فتشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير ، وتمثيل أصواتهم بالنهاق ، ثم إخلاء الكلام من لفظ التشبيه ، وإخراجه مخرج الاستعارة ، وأن جعلوا حميرا ، وصوتهم نهاقا- مبالغة

(١) أخرجه الترمذى في : ٢٥ - كتاب البر والصلة ، ٤٥ - باب ما جاء في طلاقة الوجه وحسن البشر ، ونصه : كل معروف صدقة . وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق ، وأن تفرغ من دلوك في إناء أخيك ، عن جابر بن عبد الله .

شديدة في الذم والتهجين . وإفراط في التشبیط عن رفع الصوت والترغيب عنه . وتنبیه على أنه من كراهة الله بمكان . انتهى .

تنبيه :

جاء ذكر لقمان في أحاديث مرفوعة . منها ما رواه الإمام أحمد^(١) عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : إن لقمان الحكيم كان يقول : إن الله إذا استودع شيئاً حفظه . وروى ابن أبي حاتم عن القاسم بن خيمرة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : قال لقمان الحكيم لابنه وهو يعظه : يا بني إياك والتقنع ، فإنه خوفاً بالليل ، مذمة بالنهار .

ومن الآثار فيه ما رواه ابن أبي حاتم عن السريّ بن يحيى قال : قال لقمان لابنه : يا بني إن الحكمة أجلس المساكين مجالس الملوك .

وعن عون بن عبد الله قال : قال لقمان لابنه : يا بني ! إذا أتيت نادى قوم فارمهم بسهم الإسلام (يعنى السلام) ثم اجلس في ناحيتهم ، فلا تنطق حتى تراهم قد نطقوا . فإن أفاضوا في ذكر الله فأجل سهمك معهم . وإن أفاضوا في غير ذلك فتحول عنهم إلى غيرهم . نقله ابن كثير رحمه الله .

ثم نبه تعالى خلقه على نعمه الوافرة المستتبعة انفراده بالألوهية ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (الَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ، وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ)

(١) أخرجه بالصفحة رقم ٨٧ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي)

[٢١] (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ
ءَابَاءَنَا، أَوْ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ)

« أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » أى من النجوم
والشمس والقمر ، التى ينتفعون من ضيائها وما تؤثره فى الحيوان والنبات والجماد بقدرته تعالى .
وكذا من الأمطار والسحب والكوائن العلوية التى خلقها تعالى لنفع من سخرت له .
وكذا ما أوجد فى الأرض من قرار وأشجار وأنهار وزروع وثمار ، ليستعملها من سخرت له
فيما فيه حياته وراحته وسعادته « وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ وَظَهَرَهُ بِبَاطِنِهِ » أى محسوسة
ومعقولة . كإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وإزاحة الشبه والعلل « وَمِنَ النَّاسِ » يعنى
الجاحدين نعمته تعالى « مَن يُجَادِلْ فِي اللَّهِ » أى فى توحيده وإرساله الرسل « بِغَيْرِ عِلْمٍ »
أى برهان قاطع مستفاد من عقل « وَلَا هُدًى » أى دليل مأثور عن نبي « وَلَا كِتَابٍ
مُّنِيرٍ » أى منزل من لدنه تعالى ، بل لمجرد التقليد . و (المنير) بمعنى المنقذ من ظلمة الجهل
والضلال « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ » أى لمن يجادل . والجمع باعتبار المعنى « اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ
قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ »
أى يدعو آباءهم إلى اعتقادات وأعمال ، هى أسباب العذاب . كأنه يدعوهم إلى عين العذاب .
فهم متوجهون إليه حسب دعوته . ومن كان كذلك فأنى يتبع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ - إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ
وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ)

[٢٣] (وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ - ، إَلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَتُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ،
إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

- [٢٤] (نَمَتَّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ)
- [٢٥] (وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ، قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)
- [٢٦] (لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)
- [٢٧] (وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)
- [٢٨] (مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَحْكُمُكُمْ إِلَّا كَفَافٌ وَاحِدٌ ، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)
- [٢٩] (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)
- «وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ» أى فى أعماله «فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى» أى تعلق بأوثق ما يتعلق به من الأسباب . وهو تمثيل لحال المؤمن المخلص المحسن ، بحال من أراد رقى شاهق ، فتمسك بأوثق عرى الجبل المتدلى منه « وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ * وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ وَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا » أى من الأعمال للظاهرة والباطنة «إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * نَمَتَّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ * وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ » أى على أن جعل دلائل التوحيد بحيث لا يكاد ينكرها المكابرون أيضا « بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » أى شيئا ما . فذلك لا يعملون بمقتضى اعترافهم « لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى فلا يستحق العبادة فيهما غيره « إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ » أى عن العالمين ، وهم فقراء إليه جميعا « الْحَمِيدُ » أى الحمود فيما خلق وشرع ، بلسان الحال والمقال « وَلَوْ أَنَّمَا

فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمَ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ « أَى من بعد نفاذه » سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَتُ اللَّهِ « أَى التى أوجد بها الكائنات، وسيوجد بها مالا غاية لحصره ومنتهاه. والسبعة ، إنما ذكرت ، على سبيل المبالغة لا الحصر . « إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ « أَى إلا كخلقها وبعثها فى سهولته « إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى « أَى أمد قدره الله تعالى لجرهما ، وهو يوم القيامة » وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ « أَى لَأَن من شاهد مثل ذلك الصنع الرائق ، والتدبير الفائق ، لا يكاد يغفل عن كون صانعه عز وجل محيطا بما يأتى ويذر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (ذَلِكَ بَانَ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبُطْلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ)

[٣١] (أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)

[٣٢] (وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَاجٌ كَاطِلٌ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ ، وَمَا يَحْدُبُ بَأَيْتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ)

« ذَلِكَ » إشارة إلى ما ذكر من سعة العلم وشمول القدرة وعجائب الصنع واختصاص البارى بها « بَانَ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ » أى بسبب أنه الحق ، وجوده وإلهيته « وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبُطْلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ » أى بإحسانه فى تهيمته أسبابه « لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ » إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ

صَبَّارٍ « أى عظيم الصبر على البأساء والضراء » شَكُورٍ « أى كثير الشكر للنعم ، بالقيام بحقها » وَإِذَا غَشِيَهُمْ « أى علاهم وأحاط بهم » مَوْجٌ كَأُظْلَلٍ « أى كالسحب والحجب » دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ « أى التَّجَنُّوا إليه تعالى وحده ، لزوال ما ينافزع الفطرة من الهوى والتقليد ، بما دهاهم من الضر » فَلَمَّا نَجَّيَهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ « قال ابن كثير : قال مجاهد : أى كافر . كأنه فسر (المقتصد) ههنا بالجاحد كما قال تعالى ^(١) (فَلَمَّا نَجَّيَهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ) وقال ابن زيد : هو المتوسط فى العمل . وهذا الذى قاله ابن زيد هو المراد فى قوله ^(٢) تعالى (فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ) الآية ، فالقصد ههنا هو المتوسط فى العمل . ويحتمل ، أن يكون مراداً هنا أيضاً ، ويكون من باب الإنكار على من شاهد تلك الأحوال والأمور العظام ، والآيات الباهرات فى البحر . ثم من بعد ما أنعم الله عليه بالخلاص ، كان ينبغى أن يقابل ذلك بالعمل التام ، والدؤوب فى العبادة ، والمبادرة إلى الخيرات . فمن اقتصد بعد ذلك ، كان مقصراً والحالة هذه . والله أعلم . انتهى « وَمَا يَجْحَدُ بِثَأْنِنَا إِلَّا كَأُلْكُتٍ خَتَّارٍ » أى غَدَّار ، نافض للعهد الفطرى ولعقد العزيمة وقت المحول البحرى « كَفُورٍ » أى مبالغ فى كفران نعمه تعالى . لا يقضى حقوقها ، ولا يستعملها فى محابته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ)

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا » أى ليس بمن أحدهما عن الآخر شيئاً ، لاقطاع الوصل فى

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٦٥] . (٢) [٣٥ / فاطر / ٣٢] .

ذلك اليوم الرهيب . قال أبو السموذ : وتغيير النظم - في الثانية - للدلالة على أن المولود أولى بأن لا يجزى . وقطع طمع من توقع من المؤمنين أن يرفع أباه الكافر في الآخرة « إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ » أى بالثواب والعقاب . لا يمكن إخلافه . « فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ » أى الشيطان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] « إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ »

« إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ » أى علم وقت قيامها « وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ » أى فى وقته الذى قدره ، وإلى محله الذى عينه فى علمه « وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ » أى من ذكر أو أنثى ، سعيد أو شقي « وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا » أى من خير أو شر « وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ » أى فى بلدها أو غيره . لاستئثار الله تعالى بعلم ذلك . وقد جاء فى الخبر تسمية هذه الخمس ، مفاتيح الغيب « إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ » أى بما كان ويكون ، وبظواهر الأشياء وبواطنها ، لا إله إلا هو .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٢ - سُورَةُ السَّجْدَةِ

سميت بها ، لأن آية السجدة منها ، تدل على أن آيات القرآن من العظمة بحيث تخرو وجوه السكل ، لسماع مواظها ، وتنزه منزلها عن أن يعارض في كلامه . وبشكره على كمال هدايته . وهذا أعظم مقاصد القرآن ، أفاده المهايى . وهى مكية ، وآيها ثلاثون .

روى البخارى^(١) فى (كتاب الجمعة) عن أبى هريرة قال : كان النبى ﷺ يقرأ فى الفجر ، يوم الجمعة ، آلم * تنزيل السجدة ، وهل أتى على الإنسان . ورواه مسلم^(٢) أيضا .

وروى الإمام أحمد عن جابر قال : كان النبى ﷺ لا ينام حتى يقرأ الم . تنزيل السجدة ، وتبارك الذى بيده الملك .

قال ابن كثير : تفرد به أحمد رحمه الله تعالى .

(١) أخرجه البخارى فى : ١١ - كتاب الجمعة ، ١٠ - باب ما يقرأ فى صلاة الفجر يوم الجمعة ، حديث ٥٢٢ .

(٢) أخرجه فى : ٧ - كتاب الجمعة ، حديث رقم ٦٦ و ٦٥ (طبعتنا)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (الَمْ)

[٢] (تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[٣] (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِّنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ)

« الَمْ » تقدم أن هذه الفواتح أسماء للسور « تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ » أى فى كونه منزلاً « مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ » أى اختلقه من تلقاء نفسه « بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِّنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ » أى يتبعون الحق . وذلك أن قريشاً لم يبعث إليهم رسول، قبله ﷺ . فطاف تعالى بهم وبعث فيهم رسولا منهم ﷺ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ

عَلَى الْعَرْشِ ، مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ، أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ)

[٥] (يُذَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ)

« اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى

الْعَرْشِ «تقدم الكلام في ذلك» مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ «أى ما لكم عنده ناصر ولا شفيع من الخلق» أَفَلَا تَعْدُّوْنَ «أى تتعظون بالقرآن فتؤمنوا» يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ «أى يدبر أمر الدنيا بأسباب سماوية ، من الملائكة وغيرها ، نازلة آثارها وأحكامها إلى الأرض» ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ «أى يصعد إليه ، أى مع الملك للعرض عليه» فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ «أى مقدار صعوده على غير الملك ، ألف سنة من سنى الدنيا .

قال ابن كثير : أى يتنزل أمره من أعلى السموات إلى أقصى تخوم الأرضين . كما قال تعالى (١) (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ) الآية . وترفع الأعمال إلى ديوانها فوق السماء . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (ذَٰلِكَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

[٧] (الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ)

[٨] (ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ)

[٩] (ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ، قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ)

« ذَٰلِكَ » أى المدبر « عِلْمُ الْغَيْبِ » أى ما غاب عن العباد وما يكون « وَالشَّهَادَةِ » أى ما علمه العباد وما كان « الْعَزِيزُ » أى الغالب على أمره « الرَّحِيمُ » أى بالعباد فى تدبره « الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ » أى أحكم خلق كل شىء . لأنه ما من شىء خلقه إلا وهو مرتب على ما اقتضته الحكمة « وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ » يعنى آدم « مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ

(١) [٦٥ / الطلاق / ١٢] .

نَسْلُهُ « أى ذريته » مِنْ سُلَالَةٍ « أى من نطفة » مِنْ مَاءٍ مَّهِينٍ « أى ضعيف ممتن .
والسلالة الخلاصة . وأصلها مايسل ويخلص بالتصفية » ثُمَّ سَوَّاهُ « أى قومه فى بطن أمه
» وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ « أى جعل الروح فيه ، وأضافه إلى نفسه تشریفاله » وَجَعَلَ لَكُمُ
السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ « أى خلق لكم هذه المشاعر ، لتدركوا بها الحق والهدى
» قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ « أى بأن تصرفوها إلى ما خلقت له .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَقَالُوا أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَءَنَّا لَفِيَ خَلْقٍ جَدِيدٍ ، بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ
كَافِرُونَ)

[١١] (قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ)
[١٢] (وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا
وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ)

« وَقَالُوا » أى كفار مكة « أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ » أى صرنا ترابا مخلوطا بتراب
الأرض لا تتميز منه ، أو غبنا فيها « أَءَنَّا لَفِيَ خَلْقٍ جَدِيدٍ » أى نجد بعد الموت « بَلْ
هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ » أى بالبعث بعد الموت للجزاء والحساب « كَافِرُونَ » أى جاحدون .
قال أبو السعود : إضراب وانتقال من بيان كفرهم بالبعث ، إلى بيان ما هو أبلغ وأشنع منه ،
وهو كفرهم بالوصول إلى العاقبة ، وما يلقونه فيها من الأحوال والأحوال جميعا « قُلْ » أى
بيانا للحق وردا على زعمهم الباطل « يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ » أى يقبض
أرواحكم « ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ » أى بالبعث للحساب والجزاء .

فائدة :

قال ابن الحديد فى (شرح نهج البلاغة) فى هذه الآية : مذهب جمهور أصحابنا

أن الروح جسم لطيف بخارىّ يتكوّن من ألطف أجزاء الأغذية ، ينفذ في العروق ، حالة فيها . وكذلك للقلب ، وكذلك للكبد .

وعندهم أن ملك الموت أعوانا تقبض الأرواح بحكم النياية عنه . لولا ذلك لتعذر عليه وهو جسم أن يقبض روحين في وقت واحد في المشرق والمغرب، لأن الجسم الواحد لا يكون في مكانين . في وقت واحد .

قال أصحابنا : ولا يبعد أن يكون الحفظة السكاتبون هم القابضون للأرواح عند انقضاء الأجل .

قالوا : وكيفية القبض ، ولوج الملك من الفم إلى القلب ، لأنه جسم لطيف هوائيّ ، لا يتعذر عليه النفوذ في المخارق الضيقة، فيخالط الروح، التي هي كالشبيهة بها، لأنها بخارىّ. ثم يخرج من حيث دخل ، وهي معه .

وإنما يكون ذلك في الوقت الذي يأذن الله تعالى له فيه وهو حضور الأجل .
فألزموا على ذلك أن يغوص الملك في الماء مع الغريق ليقبض روحه تحت الماء . فالتزموا ذلك ، وقالوا : ليس بمستحيل أن يتخلل الملك الماء في مسامّ الماء ، فإن فيه مسامّ ومنافذ وفي كل جسم . على قاعدتهم في إثبات المسامّ في الأجسام .

قالوا : ولو فرضنا أنه لا مسامّ فيه ، لم يبعد أن يلججه الملك فيوسع لنفسه مكانا، كما يلججه الحجر والسّمك ، وغيرها . وكالريح الشديدة التي تفرع ظاهر البحر فتقرعه وتحفره . وقوة الملك أشدّ من قوة الريح . انتهى .

والأولى الوقوف، فيما لم تعلم كيفيةته، عند متلوّه وعدم مجاوزته، أدباً عن التّهجم على الغيب وتورعاً عن محاولة ما لا يبلغ كنهه ، وأسوة بما مضى عليه من لم يخض فيه ، وهم الخيرة والأسوة ، والله أعلم .

«وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُعْجِرُونَ» وهم القائلون تلك المقالة الشفعاء «نَا كِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ» أي مطأطؤوها من الحياء والخزي، لما قدمت أيديهم «رَبَّنَا» أي يقولون ربنا «أَبْصَرْنَا

وَسَمِعْنَا « أَى عَلَّمْنَا مَا لَمْ نَعْلَمْ ، وَأَيَّقْنَا بِمَا لَمْ نَكُنْ بِهِ مَوْقِنِينَ « فَأَرْجِعْنَا » أَى إِلَى الدُّنْيَا « نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ » أَى مُقَرِّونَ بِكَ وَبكِتَابِكَ وَرَسُولِكَ وَالْجَزَاءِ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَكَلِمَةً وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ

جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)

[١٤] (فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ

الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

« وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَكَلِمَةً » أَى تَقْوَاهَا « وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي » أَى

فِي الْقَضَاءِ السَّابِقِ « لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » أَى سَبَقَ الْقَوْلَ حَيْثُ

قُلْتُ لِإِبْلِيسَ ، عِنْدَ قَوْلِهِ ^(١) (لَا أَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ) ^(٢) (فَالْحَقُّ

وَالْحَقُّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ) أَى فَبِمَوْجِبِ ذَلِكَ الْقَوْلِ

لَمْ نَشَأْ إِعْطَاءَ الْهُدَى عَلَى الْعَمُومِ . بَلْ مَنَعْنَاهُ مِنْ أَتْبَاعِ إِبْلِيسَ الَّذِينَ هُوَ لَاءٌ مِنْ جَهَنَّمَ حَيْثُ

صَرَفُوا اخْتِيَارَهُمْ إِلَى الْغَىِّ وَالْفُسَادِ . وَمَشِئَتُهُ تَعَالَى لِأَفْعَالِ الْعِبَادِ مَنُوطَةٌ بِاخْتِيَارِهِمْ إِيَّاهَا .

فَلَمَّا لَمْ يَخْتَارُوا الْهُدَى ، وَاخْتَارُوا الضَّلَالَةَ ، لَمْ يَشَأْ إِعْطَاءَهُ لَهُمْ . وَإِنَّمَا آتَاهُ الَّذِينَ اخْتَارُوهُ مِنَ

النَّفُوسِ الْبَرَّةِ ، وَهُمْ الْمَعْنِيُّونَ بِمَا سَمِئْتُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى ^(٣) (إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا) الْآيَةُ . فَيَكُونُ

مِنَاطُ عَدَمِ مَشِئَةِ إِعْطَاءِ الْهُدَى ، فِي الْحَقِيقَةِ ، سُوءُ اخْتِيَارِهِمْ ، لَا تَحَقُّقُ الْقَوْلِ . أَفَادَهُ

أَبُو السَّعُودِ . « فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا » أَى تَرَكْتُمْ الْإِقْرَارَ بِهِ ، وَالْإِيمَانَ

بِصَدَقِ مَوْعُودِهِ ، وَعَامِلَاتِ مَوْعِدِهِ مَعَ الْمُنْسَى الْمُهْجُورِ « إِنَّا نَسِينَاكُمْ » أَى جَازَيْنَاكُمْ جَزَاءَ

(١) [١٥ / الحجر / ٣٩ و ٤٠] . (٢) [٣٨ / ص / ٨٤ و ٨٥] .

(٣) [٣٢ / السجدة / ١٥] .

نسيانكم . أو تركناكم في العذاب ترك النفس « وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » أى من الموبات . والتكرير للتأكيد والتشديد . وتعيين الفعل المطوى ، للذوق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ)

[١٦] (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ)

« إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا » أى وعظوا « خَرُّوا سُجَّدًا » لسرعة قبولهم لها بصفاء فطرتهم ، وذلك تواضعاً لله وخشوعاً وشكراً على ما رزقهم من الإسلام « وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ » أى عن الانقياد لها ، كما يفعله الجهلة من الكفرة الفجرة . قال تعالى ^(١) (إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) « تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ » أى ترتفع وتنحى عن الفرش ومواضع النوم . والجملة مستأنفة لبيان بقية محاسنهم ، وهم المتعبدون بالليل « يَدْعُونَ رَبَّهُمْ » أى داعين له « خَوْفًا » من عذابه « وَطَمَعًا » فى رحمته « وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ » أى من المال « يُنْفِقُونَ » أى فى وجوه البرّ والحسنات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِّمَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[١٨] (أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ، لَا يَسْتَوُونَ)

(١) [٤٠ / غافر / ٦٠] .

[١٩] (أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[٢٠] (وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ، كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابِ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْكَدِبُونَ) « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم » أى ماذخر وأعدأى لهؤلاء الذين عدت مناقبهم « مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ » أى مما تقرّ به عينهم من طيبة النفس والثواب والكرامة فى الجنة « جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » أى فى الدنيا من الأعمال الصالحة « أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا » أى كافر أجاددا « لَا يَسْتَوُونَ » أى فى الآخرة بالثواب والكرامة . كما لم يستووا فى الدنيا بالطاعة والعبادة . ثم فصل مراتب الفريقين بقوله « أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا » أى ثوابا « بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا » وبقوله (١) تعالى (كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا) كناية عن دوام عذابهم واستمراره « وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابِ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْكَدِبُونَ » أى يقال لهم ذلك ، تشديداً عليهم وزيادة فى غيظهم ، وتقرّيعا وتوبيخا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذْيِ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[٢٢] (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ، إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ)

(١) [٢٢ / الحج / ٢٢] .

« وَلَنَذِيقَنَّهِنَّ » أى أهل مكة « مِّنَ الْعَذَابِ الْأَذْنَى » أى عذاب الدنيا والجذب والقتل والأسر « دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ » يعنى عذاب الآخرة « لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » أى يتوبون عن الكفر أى يرجعون إلى الله عند تصفية فطرتهم بشدة العذاب الأدنى، قبل الرين بكثافة الحجاب « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا » أى جحدها وكفر بها « إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ » أى بالعذاب ، وإظهار المتقين عليهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ ، وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ)

[٢٤] (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا، وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ)

« وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ » أى التوراة « فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ » أى لقاء الكتاب الذى هو القرآن . وعودُ الضمير إلى الكتاب المتقدم ، والمراد غيره على طريق الاستخدام ، أو إرادة العهد ، أو تقدير مضاف ، أى تلقى مثله ، أى فلا تكن فى مرية من كونه وحيًا متلقى من لدنه تعالى . والمعنى : إنا آتيناه موسى مثل ما آتيناه من الكتاب . ولقينا من الوحي مثل ما لقيناك . فلا تكن فى شك من أنك لقيت مثله . ونهيه ﷺ عن الشك ، المقصود به نهى أمته . والتعريض بمن صدر منه مثله « وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ » أى من الضلالة « وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا » أى قادة بالخير يدعون الخلق إلى أمرنا وشرعنا « لَمَّا صَبَرُوا » أى على العمل به والاعتصام بأوامره « وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ » أى يصدقون أشد التصديق وأبلغه . والمعنى : كذلك لنجعلن الكتاب الذى آتيناه ، هدى لأمتك ، ولنجعلن منهم أمة يهدون مثل تلك الهداية . ويؤخذ من فحوى الآية ، أن بنى إسرائيل لما نبذوا الاعتصام بالكتاب ، ونبذوا الصبر على الأمر بالمعروف والنهى

عن المنكر ، وفقدوا الاستيقان بحقبة الإيمان ، فغيروا وبدلوا ، سلبوا ذلك المقام ، وأدبيل عليهم انتقاما منهم . وتلك سنته تعالى (١) (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ) ففي طي هذا الترغيب ، ترهيب وأى ترهيب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

[٢٦] (أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ ، أَفَلَا يَسْمَعُونَ)

[٢٧] (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنعَامُهُمْ وَانفُسُهُمْ ، أَفَلَا يُبْصِرُونَ)

« إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ » أى يقضى « بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » أى فيميز الحق من الباطل ، بتمييز الحق من المبطل « أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ » أى يتبين لكفار مكة « كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ » أى الماضية بعذاب الاستئصال « يَمْشُونَ فِي مَسْكِينِهِمْ » أى منازلهم . كمنازل قوم شعيب وهود وصالح ولوط عليهم السلام . فلا يرون فيها أحداً ممن كان يعمرها ويسكنها . ذهبوا كأن لم يغمثوا فيها . كما قال (٢) (فَتِلْكَ أَيْمُونُهُمْ حَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا) « إِنَّ فِي ذَلِكَ » أى فيما فعلنا بهم « لَآيَاتٍ » أى عبرا ومواعظ ودلائل متناظرة « أَفَلَا يَسْمَعُونَ » أى أخبار من تقدم ، كيف صار أمرهم بسبب تكذيبهم الرسل ، وبغيهم الفساد في الأرض ، فيحملهم ذلك على الإيمان « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ » وهى التى جزر نباتها ، أى قطع « فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنعَامُهُمْ وَانفُسُهُمْ » يعنى العشب والثمار والبقول « أَفَلَا يُبْصِرُونَ » أى فيستدلون به على كمال قدرته ووجوب

(١) [١٣ / الرعد / ١١] . (٢) [٢٧ / النمل / ٥٢] .

انفراده بالإلهية . وهذا كآية^(١) (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا) الآية .

القول في تأويل قوله تعالى:

[٢٨] (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

[٢٩] (قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ)

« وَيَقُولُونَ » أى كفار مكة « مَتَى هَذَا الْفَتْحُ » أى الانتصار علينا . استعجال
لوقوع البأس الربانى عليهم ، الذى وعدوا به ، واستبعاد له « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ يَوْمَ
الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ » لخلول ما ينفى الأبصار ويعمى
البصائر . وظهور منار الإيمان وزهوق الفريق الكافر .

قال ابن كثير : أى إذا حل بكم بأس الله وسخطه وغضبه فى الدنيا والأخرى ، لا ينفع
الذين كفروا بإيمانهم ولا هم ينظرون ، كما قال تعالى^(٢) (فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِأُكْبَرِ
فَرَحٍ عِنْدَهُمْ مِّنَ الْعِلْمِ) الآيتين . ومن زعم أن المراد من هذا الفتح فتح مكة ، فقد
أبعد النجعة ، وأخطأ فأخش ، فإن يوم الفتح ، قد قبل رسول الله ﷺ إسلام الطلقاء وقد كانوا
قريبا من ألفين . ولو كان المراد فتح مكة ، لما قبل إسلامهم لقوله تعالى^(٣) (قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ
لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ) وإنما المراد الفتح الذى هو القضاء والفصل كقوله^(٤)
(فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا) وكقوله^(٥) (قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ)
الآية وقال تعالى^(٦) (وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ) وقال تعالى^(٧) (إِنْ تَسْتَفْتِحُوا
فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ) .

(١) [٨٠ / عبس / ٢٤ و ٢٥] . (٢) [٤٠ / غافر / ٨٣] .

(٣) [٣٢ / السجدة / ٢٩] . (٤) [٢٦ / الشعراء / ١١٨] .

(٥) [٣٤ / سبأ / ٢٦] . (٦) [١٤ / إبراهيم / ١٥] .

(٧) [٨ / الأنفال / ١٩] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَضِرُونَ)

« فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ » أى عن المشركين ، ولا تبال بهم ، وبلغ ما أنزل إليك من ربك « وَانْتَظِرْ » أى النصره عليهم . فإن الله سينجز لك ما وعدك ، إنه لا يخلف الميعاد « إِنَّهُمْ مُنْتَضِرُونَ » أى ما فى نفوسهم . كقوله تعالى ^(١) (أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ) ^(٢) (وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَّاءُ) أى وسيجدون مغبة انتظارهم من وييل عقابه تعالى وأليم عذابه بهم .

(١) [٥٢ / الطور / ٣٠] . (٢) [٩ / التوبة / ٩٨] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٣ - سُورَةُ الْأَحْزَابِ

سميت بها ، لأن قصتها معجزة لرسول ﷺ . متضمنة لنصره بالريح والملائكة . بحيث كفى الله المؤمنين القتال . وقد ميز بهم بين المؤمنين والمنافقين . وهذا من أعظم مقاصد القرآن . أفاده المهايى .

وهى مدنية . وآياتها ثلاث وسبعون آية . وروى الإمام أحمد عن أبى بن كعب قال : لقد رأيتها وإنها تعادل سورة البقرة . ولقد قرأنا فيها (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم) .

قال ابن كثير : وهو يقتضى أنه قد كان فيها قرآن ثم نسخ لفظه وحكمه أيضاً . والله أعلم . انتهى .

قلت : كان يصح هذا الاقتضاء ، لو كان هذا الأثر صحيحاً . أما ولم يخرجه أرباب الصحاح ، فهو من الضعف بمكان .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا)

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ » نودي صلوات الله عليه بوصفه دون اسمه ، تعظيماً له . وباب المخاطبة يعدل فيها عن النداء بالاسم تكريماً للمخاطب . ولا كذلك باب الأخبار فقد يصرح فيها بالاسم ، والتعظيم باق كآية (٢) (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ) لتعليم الناس بأنه رسول الله وتلقيهم أن يسموه بذلك ويدعوه به . وأمره عليه السلام بالتقوى تفخياً وتعظيماً للتقوى نفسها ، حيث أمر بها مثله . فإن مراتبها لا تنتهي . مع أن المقصود الدوام والثبات عليها . ولم يجعل الأمر لأتمته كما في نظائره ، لأن سياق ما بعده لأمر يخصه . كقصة زيد رضي الله عنه « وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ » أي لا توافقهم على أمر . ولا تقبل لهم رأياً ولا مشورة ، وجانبهم واحترس منهم . فإنهم أعداء الله وأعداء المؤمنين . لا يريدون إلا المضادة والمضادة « إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا » أي فهو أحق بأن تتبع أوامره ويطاع ، لأنه العليم بعواقب الأمور وبالمصالح من المفسد . والحكيم الذي لا يفعل شيئاً ، ولا يأمر به ، إلا بداعي الحكمة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا)

(١) [٤٨ / الفتح / ٢٩] .

[٣] (وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا)

[٤] (مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّنْ قَلْبَيْنِ فِيْ جَوْفِهِ ، وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ، وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ، ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ، وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ)

«وَأَتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» أى فى ترك طاعة الكافرين والمنافقين وغير ذلك «إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا* وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا» أى أسند أمرك إليه ، وكله إلى تدبيره . فكفى به حافظاً موكولاً إليه كل أمر «مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّنْ قَلْبَيْنِ فِيْ جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ» قال الرخشى: أى ما جمع الله قلبين فى جوف ، ولا زوجية وأمومة فى امرأة ، ولا بنوة ودعوة فى رجل . والمعنى : إن الله سبحانه ، كما لم ير فى حكمته أن يجعل للإنسان قلبين ، لأنه لا يخلو إما أن يفعل بأحدهما مثل ما يفعل بالآخر من أفعال القلوب ، فأحدها فضلة غير محتاج إليها - وإما أن يفعل بهذا غير ما يفعل بذاك ، فذلك يؤدى إلى اتصاف الجملة بكونه مریداً كارهاً ، علماً ظاناً ، موقناً شاكاً ، فى حالة واحدة - لم ير أيضاً أن تكون المرأة الواحدة أمّاً لِرَجُلٍ زوجاً له . لأن الأم مخدومة ، مخفوض لها جناح الذل ، والزوجة مستخدمة متصرف فيها بالاستفراش وغيره ، كالمملوكة . وهما حالتان متنافيتان . وأن يكون الرجل الواحد دعياً لرجل ، وابناً له . لأن البنوة أصالة فى النسب ، وعراقة فيه . والدعوة إلصاق عارض بالتسمية لا غير . ولا يجتمع فى الشيء الواحد أن يكون أصيلاً غير أصيل . وهذا مثل ضربه الله فى (زيد بن حارثة) وهو رجل من كلب سبي صغيراً . وكانت العرب فى جاهليتها يتغاورون ويتسابون . فاشترى حكيم بن حزام لعمته خديجة . فلما تزوجها رسول الله ﷺ وهبته له . وطلبه أبوه وعمه فخبر . فاختار رسول الله ﷺ فأعتقه . وكانوا يقولون (زيد بن محمد) فأنزل الله

هذه الآية . وقوله ^(١) (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ) .

والتنكير في (رجل) وإدخال (من) الاستغراقية على (قلبين) تأكيد لما قصد من المعنى .

كأنه قال : ما جعل الله لأمة الرجال ، ولا لواحد منهم ، قلبين البتة في جوفه .

وفائدة ذكر (الجوف) كالفائدة في قوله ^(٢) (الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) وذلك ما يحصل للسامع

من زيادة التصوّر والتجلى للدلول عليه . لأنه إذا سمع به ، صور لنفسه جوفاً يشتمل على قلبين

فكان أسرع إلى الإنكار . ومعنى (ظاهر من أمراته) قال لها : أنت على كظهر أمي . وكان

الظهار طلاقاً عند أهل الجاهلية . فكانوا يتجنبون المرأة المظاهر منها ، كما يتجنبون المطلقة .

وهو في الإسلام يقتضي الطلاق والحرمة إلى أداء الكفارة .

قال الأزهري : وخصوا (الظَّهْر) ، لأنه محل الركوب . والمرأة تركب إذا غشيت . فهو كناية

تلويحية ، انتقل من الظهر إلى الركوب ، ومنه إلى المغشي . والمعنى : أنت محرمة على لا تركبين ،

كما لا تركب الأم . كذا في (الكشف) .

وقوله تعالى « ذَا لِكُمْ » إشارة إلى كل ما ذكر . أي من كونه ليس لأحد قلبان ، وليس

الأزواج أمهات ، ولا الأدعياء أبناء . أو إلى الأخير فقط وهو الدعوة « قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ »

أي لا حقيقة له فلا يقتضي دعواكم ذلك ، أن يكون ابناً حقيقياً . فإنه مخلوق من صلب رجل آخر

فلا يمكن أن يكون له أبوان ، كما لا يمكن أن يكون لبشر واحد قلبان « وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ »

أي الثابت المحقق في نفس الأمر « وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ » أي سبيل الحق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ، فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٤٠] . (٢) [٢٢ / الحج / ٤٦] .

فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ، وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ ، وَلَكِنْ
مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا)

« ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ » أى انسبواهم إليهم . وهو أفراد المقصود من أقواله تعالى الحقّة
« هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ » أى أعدل وأحكم .

قال ابن كثير: هذا الأمر ناسخ لما كان في ابتداء الإسلام، من جواز ادعاء الأبناء الأجانب
وهم الأدعياء . فأمر تبارك وتعالى برّد نسبهم إلى آبائهم في الحقيقة . وأن هذا هو العدل والقسط
والبر . روى البخارى^(١) عن ابن عمر قال: إن زيد بن حارثة رضى الله عنه، مولى رسول الله ﷺ ،
ما كنا ندعوه إلا (زيد بن محمد) حتى نزل القرآن (ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ) وأخرجه
مسلم^(٢) وغيره . وقد كانوا يعاملونهم معاملة الأبناء من كل وجه، في الخلوة بالمحارم وغير ذلك .
ولهذا قالت سهيلة^(٣) بنت سهيل ، امرأة أبى حذيفة رضى الله عنها: يا رسول الله! إنا ندعوسالما
ابنا . وإن الله قد أنزل ما أنزل . وإنه كان يدخل على . وإنى أجد فى نفس أبى حذيفة من ذلك
شيئا . فقال ﷺ: أَرْضِعِيهِ تَحْرِمُ عَلَيْهِ . الحديث . ولهذا لما نسخ هذا الحكم ، أباح تبارك وتعالى
زوجة الدعى . وتزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش ، مطلقة زيد بن حارثة رضى الله عنه .
وقال عز وجل^(٤) (لَكَى لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ
وَطَرًا) وقال تبارك وتعالى^(٥) فى آية التحريم (وَحَدَّيْلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ)
احترازاً عن زوجة الدعى ، فإنه ليس من الصلب .

(١) أخرجه فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٣٣ - سورة الأحزاب ، ٢ - باب ادعواهم

لأبائهم ، حديث ٢٠٣٠

(٢) أخرجه فى : ٤٤ - كتاب فضائل الصحابة ، حديث رقم ٦٢ (طبعتنا)

(٣) أخرجه مسلم فى : ١٧ - كتاب الرضاع ، حديث رقم ٢٦ (طبعتنا)

(٤) [٣٣ / الأحزاب / ٣٧] . (٥) [٤ / النساء / ٢٣] .

فأما الابن من الرضاعة ، فنزل منزلة ابن الصلب شرعاً ، بقوله ﷺ في الصحيحين^(١) :
 حرموا من الرضاعة ما يحرم من النسب .

فأما دعوة الغير ابناً ، على سبيل التكريم والتجيب ، فليس مما نهى عنه في هذه الآية ،
 بدليل ما رواه الإمام أحمد وأهل السنن . إلا - الترمذی - عن ابن عباس رضي الله عنهما^(٢) :
 قال : قدمنا رسول الله ﷺ أغيلةً بنى عبد المطلب على جهرات لنا من (جمع) فجعل يلطخ
 أنفأذنا ويقول : أبنئي ! لا ترموا الجرة حتى تطالع الشمس .
 قال أبو عبيدة وغيره (أبنئي) تصغير (ابني) وهذا ظاهر الدلالة . فإن هذا في حجة الوداع
 سنة عشر .

وفي مسلم^(٣) عن أنس قال : قال لي رسول الله ﷺ : يا بني . ورواه أبو داود
 والترمذی . انتهى كلام ابن كثير . وفي ذهابه إلى أن الأمر في الآية ناسخ - نظر ، لأن الناسخ لا بد
 أن يرفع خطاباً متقدماً . وأما ما لا خطاب فيه سابقاً ، بل ورد حكماً مبتدأ رفع البراءة الأصلية ،
 فلا يسمى نسخاً اصطلاحاً . فاحفظه . فإنه مهم ومفيد في عدة مواضع .

(١) أخرجه البخاري في : ٥٢ - كتاب الشهادات ، ٧ - باب الشهادة على الأنساب
 والرضاع ، حديث رقم ١٢٨٥ عن عائشة

وأخرجه مسلم في : ١٧ - كتاب الرضاع ، حديث رقم ١ (طبعتنا)

(٢) أخرجه النسائي في : ٢٤ - كتاب المناسك ، ٢٢٢ - باب النهي عن رمي جرة

العقبة قبل طلوع الشمس

وأخرجه ابن ماجه في : ٢٥ - كتاب المناسك ، ٦٢ - باب من تقدم من جمع إلى

منى لرمي الجمار ، حديث رقم ٣٠٢٥ (طبعتنا)

(٣) أخرجه في : ٣٨ - كتاب الآداب حديث رقم ٣١ (طبعتنا)

ولما أمر تعالى برد أنساب الأدعياء إلى آبائهم، إن عرفوا، أشار إلى دعوتهم بالأخوة والمولوية إن لم يعرفوا، بقوله سبحانه « فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ » أى فتنسبوا إليهم « فَأَخَوَانُكُمْ » أى فهم إخوانكم « فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ » أى أولياؤكم فيه. أى فقولوا: هذا أخى، وهذا مولى. وبأخى ويا مولى « وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ » أى إثم « فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ » أى فيما فعلتموه من نسبة بعضهم إلى غير أبيه فى الحقيقة، مخطئين بالسهو أو النسيان. أو سبق اللسان، لأن الله تعالى قد وضع الحرج فى الخطأ ورفع إثم « وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ » أى ففيه الجناح، لأن من تمعد الباطل كان آثماً « وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا » أى لعفوه عن المخطئ.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (الَّذِينَ أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَأَزْوَاجُهُمْ وَأُمَمَاتُهُمْ، وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا ، كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا)

«الَّذِينَ أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ» أى فى كل شئ من أمور الدين والدنيا. فيجب عليهم أن يكون أحب إليهم من أنفسهم، وحكمه أئخذ عليهم من حكمها، وحقه أثر لديهم من حقوقها، وشفقتهم عليه أقدم من شفقتهم عليها. وأن يبذلوا دونه، ويحملوها فداه إذا أعضل خطب، ووقاه إذا لقت حرب. وأن لا يتبعوا ما تدعوهم إليه نفوسهم، ولا ماتصرفهم عنه. ويتبعوا كل ما دعاهم إليه رسول الله ﷺ وصرفهم عنه. لأن كل مادعا إليه فهو إرشاد لهم إلى نيل النجاة والظفر بسعادة الدارين. وما صرفهم عنه، فأخذ بحجزهم لثلايتها فتوا فيما يرى بهم إلى الشقاوة وعذاب النار. أفاده الزمخشري.

وهذا كما قال تعالى ^(١) (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ

لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) وفي الصحيح: والذي نفسى بيده! لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين « وَأَزْوَاجُهُ وَأُمَّهَاتُهُمْ » أى فى وجوب تعظيمهم واحترامهم ، وتحريم نكاحهن . وفيما عدا ذلك كالأجنبيات ، ولذا قال ابن كثير : ولكن لا تجوز الخلوة بهن . ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن وأخواتهن بالإجماع . وإن سمي بعض العلماء بناتهن ، أخوات المؤمنين . كما هو منصوص الشافعى رضى الله عنه فى (المختصر) وهو من باب إطلاق العبارة ، لإثبات الحكم . وهل يقال لمعاوية وأمثاله ، خال المؤمنين ، فيه قولان : وعن الشافعى أنه يقال ذلك . وهل يقال له ﷺ : أبو المؤمنين ، فيه قولان : فصح عن عائشة المنع ، وهو أصح الوجهين للشافعية لقوله تعالى (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ) وروى عن أبى بن كعب وابن عباس رضى الله عنهما ، أنهما قرآ : النبىؐ أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم . وروى نحو هذا عن معاوية ومجاهد وعكرمة والحسن . واستأنسوا عليه بالحديث الذى رواه أبو داود^(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إنما أنا لكم بمنزلة الوالد ، أعلمكم . فإذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها ولا يستطيب بيمينه . أفاده ابن كثير .

«وَأُولُوا الْأَرْحَامِ» أى ذوو القربات «بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ» أى فيما فرضه ، أو فيما أوحاه إلى نبيه عليه السلام «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ» بيان لأولى الأرحام ، أو صلة (أولى) «إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ» أى إخوانكم المؤمنين والمهاجرين غير الرحم «مَعْرُوفًا» أى من صدقة ومواساة وهدية ووصية . فإن بسط اليد فى المعروف مما حث الله عباده عليه ، ويشارك فيه مع ذوى القربى غيرهم .

(١) أخرجه فى : ١ - كتاب الطهارة ٤ - باب كراهية استقبال القبلة عند قضاء الحاجة ،

تنبيه :

قال في (الإكليل) : استدل بقوله تعالى (وَأُولُوا الْأَرْحَامِ) الآية ، من ورث ذوى الأرحام . انتهى .

وهو استدلال متين . وليس مع المخالف ما يقاومه . بل فهم كثيرون أن المعنى بها ، أن القربات أولى بالتوارث من المهاجرين والأنصار ، وأنها ناسخة لما كان قبلها من التوارث بالهلف والمواخاة ، التي كانت بينهم . ذهابا إلى ما روى عن الزبير وابن عباس : أن المهاجرى كان يرث الأنصارى ، دون قراباته وذوى رحمه . للأخوة التي آخى بينهما رسول الله ﷺ . حتى أنزل الله الآية . فرجعنا إلى موارثنا .

إلا أن الاستدلال بذلك هو من عموم الأولوية . لا أنها خاصة بالمدعى فيها ، كما أسلفنا بيانه مرارا « كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا » أى فى القرآن . أو فى قضائه وحكمه وما كتبه وفرضه ، مقررًا لا يعتريه تبديل ولا تغيير .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا)

« وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ » أى أخذنا عهودهم بتبليغ الرسالة والدعاء إلى الحق والتعاون والتناصر والاتفاق وإقامة الدين وعدم التفرق فيه . كقال تعالى (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ وَقَالَ أَعْقَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا) وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ . قال أبو السعود : وتخصيصهم بالذكر ، يعنى قوله (وَمِنْكَ) الخ مع اندراجهم

في النبيين ، للإيدان بمزيد مزيهم وفضلهم وكونهم من مشاهير أرباب الشرائع وأساطين أولى العزم . وتقديمُ نبينا عليهم ، عليهم الصلاة والسلام ، لإبانة خطره الجليل . انتهى .
وقال في (الانتصاف) : وليس التقديم في الذكر بعقترض لذلك . ألا ترى إلى قوله :
بِهَالِيلٍ مِنْهُمْ جَعْفَرُ بْنُ أُمِّهِ عَلِيٌّ وَمِنْهُمْ أَحْمَدُ الْمُتَحَيَّرُ
فَأَخَّرَ ذِكْرَ النَّبِيِّ ﷺ لِيُخْتَمَ بِهِ تَشْرِيفًا لَهُ .

وإذا ثبت أن التفضيل ليس من لوازمه التقديم ، فيظهر ، والله أعلم في سر تقديمه عليه الصلاة والسلام على نوح ومن بعده في الذكر ، أنه هو المخاطب من بينهم ، والمنزل عليه هذا المتلو ، فكان تقديمه لذلك .

ثم لما قدم ذكره عليه الصلاة والسلام ، جرى ذكر الأنبياء ، صلوات الله عليهم بعده على ترتيب أزمنة وجودهم . والله أعلم . انتهى .

وقد صرح بأولى العزم هنا وفي آية (١) (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ) . قال ابن كثير : فهذه هي الوصية التي أخذ عليهم الميثاق بها . «وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا» أي عهداً عظيم الشأن . وكيف لا؟ وقد يعترضه من الماكرين والمحادين والمشاقين ، ما تزول منه الجبال ، لولا الاعتصام بالصبر عليه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (لَيْسَ لِلصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ ، وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا)

[٩] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ

فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ، وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا)

«لَيْسَ لِلصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ» أي فعل الله ذلك ليسأل يوم القيامة الأنبياء . ووضع

الصادقين موضع ضميرهم ، للإيذان من أول الأمر ، بأنهم صادقون فيما سئلوا عنه . وإنما السؤال لحكمة تقتضيه . أى ليسأل الأنبياء الذين صدقوا عهودهم عما قالوه لقومهم . أو عن تصديقهم إياهم بتكيتاً لهم . كفى قوله تعالى (١) «يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَأَ أُجِبْتُمْ» أو المصدقين لهم عن تصديقهم . أفاده أبو السعود «وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا» أى لمن كفر من أممهم عذاباً موجعاً . ونحن - كما قال ابن كثير - نشهد أن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم ، ونصحوا الأمم ، وأفصحوا لهم عن الحق المبين الواضح الجلى ، الذى لا لبس فيه ولا شك ولا امتراء . وإن كذبهم من كذبهم من الجهلة والمعاندين والمارقين والفاستين . فما جاءت به الرسل هو الحق ، ومن خالفهم فهو على الضلال . انتهى . «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ» أى ما أنعم به عليكم يوم الأحزاب وهو يوم الخندق «إِذْ جَاءَ تَكُمْ جُنُودٌ» وهم الأحزاب «فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا» وهم الملائكة . أو ما أتى من الريح من طيور الجوِّ وجراثيمه ، المشوشة للقارّ المقلقة للهادئ «وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا» .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (إِذْ جَاءَكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا)

[١١] (هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا)

[١٢] (وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا)

[١٣] (وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ،

(١) [٥ / المائة / ١٠٩] .

وَيَسْتَفْزِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ،
إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا)

« إِذْ جَاءَكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ » أى من أعلى الوادى وأسفله ، بقصد التحيز على أن يكونوا جملة واحدة على استئصال النبي ﷺ وصحبه « وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ » أى مالت عن سننها ومستوى نظرها ، حيرة وشخوصاً « وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ » أى منتهى الحلقوم لأن بالفزع تنفخ الرئة فترتفع . وبارتفاعها ترتفع القلوب . وذلك من شدة الغم . أو هو مثل فى اضطراب القلوب « وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا » أى أنواع الظنون المختلفة « هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ » أى اختبروا ليميز الثابت من المترزل ، والمؤمن من المنافق « وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا » أى أزعجوا أشد الإزعاج من شدة الخوف والفزع ، أو من كثرة الأعداء .

فائدة :

قرأ نافع وابن عامر وأبو بكر (الظنوناً) بإثبات ألف بعد النون، وبعد لام الرسول ، فى قوله^(١) (وَأَطَعْنَا أَرْسُولًا) ولام السبيل ، فى قوله^(٢) (فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا) وصلاً ووقفاً ، موافقة للرسم . لأن هذه الثلاثة رسمت فى المصحف ، كذلك . وأيضاً فإن هذه الألف تشبه هاء السكت لبيان الحركة . وهاء السكت تثبت وفقاً للحاجة إليها . وقد تثبت وصلاً إجراء للوصل مجرى الوقف ، فكذلك هذه الألف . وقرأ أبو عمرو وحزمة بحذفها فى الحالين . لأنها لا أصل لها . وقولهم (أجريت الفواصل مجرى القوافى) غير معتد به . لأن القوافى يلزم الوقف عليها غالباً . والفواصل لا يلزم ذلك فيها ، فلا تشبه بها . والباقون بإثباتها وقفاً ، وحذفها وصلاً ، إجراء للفواصل مجرى القوافى ، فى ثبوت ألف الإطلاق . ولأنها كهاء السكت . وهى تثبت وقفاً ، وتحذف وصلاً . أفاده السمين .

ثم أشار تعالى إلى ما ظهر من المنافقين فى تلك الشدة ، بقوله سبحانه : « وَإِذْ يَقُولُ

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٦٦] . (٢) [٣٣ / الأحزاب / ٦٧] .

الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ « أى شبهة . تنفساً بما يجدونه من الوسواس في نفوسهم ، وفرصة لانطلاق ألسنتهم ، بما تكن صدورهم . لضعف إيمانهم وشدة ما هم فيه من ضيق الحال ، وحصر العدو لهم » مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَ « أى من النصر » إِلَّا غُرُورًا « أى باطلا » وَإِذْ قَاتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ « أى المنافقين » يَأْهَلُ يَثْرِبَ « وهى أرض المدينة » لَا مَقَامَ لَكُمْ « بضم الميم وفتحها ، قراءتان . أى لإقامة لكم بعد اليوم بالمدينة أونواحها لغلبة الأعداء » فَأَرْجِعُوا « أى إلى منازلكم من المدينة هارين . أو فارجعوا عن الإسلام كفاراً ليمكنكم المقام .

فائدة :

(يثرب) من أسماء المدينة . كما فى الصحيح ^(١) : أريت فى المنام دار هجرتكم . أرض بين حرتين . فذهب وهلى أنها هجر . فإذا هى يثرب (وفى لفظ : المدينة) .

قال ابن كثير : فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد ^(٢) عن البراء قال : قال رسول الله ﷺ من سعى المدينة (يثرب) فليستغفر الله تعالى ، إنما هى طابة هى طابة . تفرد به الإلام أحمد ، وفى إسناده ضعف . انتهى : « وَيَسْتَلْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ أَلْمَسِيَّ » أى فى الرجوع « يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ » أى غير حصينة يخشى عليها « وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُلِواُ الْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا وَمَا تَلْبَثُوا فِيهَا إِلَّا يَسِيرًا)

(١) أخرجه البخارى فى : ٦١ - كتاب المناقب ، ٢٥ - باب علامات النبوة فى الإسلام ،

حديث رقم ١٧٠٣ .

(٢) أخرجه فى مسنده بالصفحة رقم ٢٨٥ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

[١٥] (وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤْلَوْنَ الْأَذْبَرَ، وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا)

[١٦] (قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُتَمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا)

« وَلَوْ دُخِيتَ » أى يثرب « عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا » أى بأن دخل عليهم العدو من سائر جوانبها ، وأخذ في النهب والسلب « ثُمَّ سُمِّلُوا الْفِتْنَةَ » أى الرجعة إلى الكفر « لَأَتَوْهَا » أى لفعلوها « وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا إِلَّا بَسِيرًا » أى وما توقفوا بإعطائها إلا ربما يكون السؤال والجواب. أى فهم لا يحافظون على الإيمان ولا يستمسكون به ، مع أدنى خوف وفزع. وهذا منتهى الذم لهم. ثم ذكرهم تعالى بما كانوا عاهدوه من قبل بقوله « وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ » أى من قبل هذا الخوف « لَا يُؤْلَوْنَ الْأَذْبَرَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا » أى عن الوفاء به « قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ » أى لأنه لا يؤخر آجالهم ولا يطول أعمارهم . بل ربما كان ذلك سببا في تعجيل أخذهم غرة انتقاماً منهم . ولهذا قال : « وَإِذَا » أى إن فررتم « لَا تُتَمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا » أى في الدنيا بعد فراركم . أو لأنهم فقدوا بذلك حظهم الأخرى . فهما متعوا في الدنيا ، فإنه قليل بجانب نعيم الآخرة للصابرين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً، وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا)

[١٨] (قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هُمْ أَيْنَا، وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا)

[١٩] (أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ، فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ، فَإِذَا زَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالنِّسَةِ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ، أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ ، وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا)

« قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ » أى يجبركم « مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا » أى هلاكاً أو هزيمة « أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا » أى مجيراً ولا مغيثاً يدفع عنهم الضرر « قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْكُمْ » أى المتبطين عن رسوله الله ﷺ . وهم المنافقون . قال الشهاب : (قد) للتحقيق ، أو لتقليله باعتبار متعلقه ، وبالنسبة لغير معلوماته . انتهى . « وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ » أى من ساكنى المدينة « هَلُمَّ إِلَيْنَا » أى أقبلوا إلى مانحن فيه من الظلال والثمار « وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ » أى القتال « إِلَّا قَلِيلًا » أى إلا إيماناً قليلاً . لأنهم يتشبثون بما أمكن لهم « أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ » أى بخلاء بالمعونة والنفقة والمودة عليكم ، أو أضناء بكم ظاهراً ، إن لم يحضر خوف « فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ » أى فى أحداقهم « كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ » أى كمنظره أو كدورانه « فَإِذَا زَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالنِّسَةِ حِدَادٍ » أى بالغوا فيكم بالكلام طعناً وذماً . فأحرقوكم وأذوكم . وأصل (السلق) بسط العضو ومدّه للقهر . سواء كان يداً أو لساناً . ويجوز أن يشبه اللسان بالسيف على طريق الاستعارة المكنية ، وثبت له السلق وهو الضرب تخميلاً « أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ » أى على فعله « أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا، وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَاءِكُمْ، وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا) [٢١] (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا)

«يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا» أى لم ينهزموا بما أرسل عليهم من الرمح والجنود. وأن لهم عودة إليهم لخورهم واضطرابهم «وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ» أى مرة أخرى «يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ» أى فلا يذهبون إلى قتالهم ، ولا يستقرون في المدينة ، بل يتمنون أنهم خارجون إلى البدو بين الأعراب ، وإن لحقهم عار جبنهم «يَسْأَلُونَ» أى القادمين «عَنْ أَنْبَاءِكُمْ» أى عما جرى لكم . ثم أشار تعالى إلى أنه لا يضر خروجهم عن المدينة ، لو أتى الأحزاب ، بقوله «وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ» أى فى حدوث واقعة ثانية «مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا» أى رياء وخوفاً من التعيير «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ» أى فى أخلاقه وأفعاله قدوة حسنة ، إذ كان منها ثباته فى الشدائد وهو مطلوب . وصبره على البأساء والضراء وهو مكروب ومحروب . ونفسه فى اختلاف الأحوال ساكنة ، لا يخور فى شديدة ولا يستكين لعظيمة أو كبيرة . وقد لقي بمكة من قريش ما يشيب النواصي ، ويهدد الصياصي . وهو مع الضعف يصابر صبر المستعلى ، ويثبت ثبات المستولى . ومن صبر على هذه الشدائد فى الدعاء إلى الله تعالى ، وهو الرفيع الشأن ، كان غيره أجدر إن كان ممن يتبع بإحسان «لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ» أى رضوان الله ورحمته وثواب اليوم الآخر ونجاته . فإنه يؤثرها على الحياة الدنيا ، فلا يجبن . إذ لا يصح الجبن لمن صح اقتداؤه برسول الله ﷺ ، لغاية قبجه «وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا» أى وقرن بالرجاء ذكره تعالى بكثرة . أى ذكر أمره

ونبيه ووعده ووعيده. فأدرك مواطن السمادة ومهاوى الشقاوة. وعلم أن في الثبات على قتل العدو ، تطهير الأرض من الفساد ، وتزيينها بالحق والصلاح والساداد . مما جزاؤه سمادة الدارين ، والفوز بالحسنين . ثم بين تعالى ما كان من المؤمنين المخلصين في تلك الشدة ، بمد بيان ما كان من غيرهم ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ

وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا)

[٢٣] (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ، فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ

نَحْبَهُ وَ مِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ ، وَمَا بَدَّلُوا بَدِيلًا)

«وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ» أي لأنه تعالى

وعدهم أن يزلزلوا حتى يستغيثوه ويستنصروه ، في قوله ^(١) (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ

وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ) وكذلك حدثهم الرسول صلوات الله عليه بالابتلاء

والامتحان الذي يعمقه النصر والأمان « وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ » أي ظهر صدقهما فيما

وعدانا به « وَمَا زَادَهُمْ » أي هذا الخطب والبلاء ، عند تزلزل المنافقين وبث أراجيفهم « إِلَّا

إِيمَانًا » أي بالله ورسوله ومواعيدها « وَتَسْلِيمًا » أي لأمر الله ومقاديره « مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ » في الصبر والثبات ، والقيام بما كتب عليهم من

القتال ، لإعلاء كلمة الحق ، ومن العمل بالصالحات ، ومجانبة السيئات « فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ

نَحْبَهُ » أي أدى ما التزمه ووفى به ، فقاتل مع الرسول عليه الصلاة والسلام ، صادقاً حتى

قتل شهيداً .

(١) [٢ / البقرة / ٢١٤] .

قال الشهاب : أصل معنى (النحْب) النذر . وقضاؤه الوفاء به . وقد كان رجال من الصحابة رضى الله عنهم نذروا أنهم إذا شهدوا معه ﷺ حرباً ، قاتلوا حتى يستشهدوا . وقد استعير (قضاء النحْب) للموت ، لأنه لكونه لا بد منه ، مشبّه بالنذر الذى يجب الوفاء به . فيجوز أن يكون هنا حقيقة ، أو استعارة مع المشاكلة فيه . انتهى .

« وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ » أى ما وعد الله به من نصره والشهادة على ماضى عليه أصحابه « وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا » أى ما غيروا شيئاً من العهد ، ولا نقضوه كمنقض المنافقين فى توليهم (وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤْلَوْنَ الْأَذْبَرَ)^(١) ففيه كناية تعريضية تفهم من تخصيصهم به . والتصريح بالمصدر لإفادة العموم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ

أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا)

[٢٥] (وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ، وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ

الْقِتَالَ ، وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا)

« لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ » أى فى عهودهم « بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا » * وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ « أى مع كمال غضبهم بما أرسله من الريح والجنود ، بفضلته ورحمته « لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا » أى نصراً ولا غنيمة « وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ » أى فلم يحوجهم إلى مبارزتهم ليجلوهم عن المدينة . بل تولى كفاية ذلك وحده . ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول : لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، فلا شيء بعده « وَكَانَ اللَّهُ »

(١) [٣٣ / الأحزاب / ١٥] .

قَوْرِيًّا « أى فلا يعارض قوته قوة شيء » عَزِيزًا « أى غالبا على أمره

(ذكر تفصيل نباء الأحزاب المسمى بغزوة الخندق)

قال الإمام ابن القيم (زاد المعاد) : كانت غزوة الخندق في سنة خمس من الهجرة ، في شوال على أصح القولين . إذ لا خلاف أن أخذاً كانت في شوال سنة ثلاث ، وواعد المشركون رسول الله ﷺ في العام المقبل وهي سنة أربع . ثم أخلفوه لأجل جذب السنة ، فرجعوا . فلما كانت سنة خمس جاءوا لحربه . هذا قول أهل السير والمغازي . وخالفهم موسى بن عقبة وقال : بل كانت سنة أربع . قال أبو محمد بن حزم : وهذا هو الصحيح الذي لا شك فيه . واحتج عليه بحديث ابن عمر في الصحيحين ^(١) أنه عرض على النبي ﷺ يوم أُحُد وهو ابن أربع عشرة سنة فلم يجزه . ثم عرض عليه يوم الخندق وهو ابن خمس عشرة سنة فأجازه . قال : وصح أنه لم يكن بينهما إلا سنة واحدة . وأجيب عن هذا بجوابين : أحدهما - أن ابن عمر أخبر أن النبي ﷺ رده لما استبصره عن القتال ، وأجازه لما وصل إلى السن التي رآه فيها مطيقا . وليس في هذا ما ينفي تجاوزها بسنة أو نحوها . والثاني - أنه لعله كان يوم أُحُد في أول الرابع عشرة . ويوم الخندق في آخر الخامس عشرة .

ثم قال ابن القيم رحمه الله : وكان سبب غزوة الخندق ، أن اليهود لما رأوا انتصار المشركين على المسلمين يوم أُحُد ، وعلموا ببيعة أبي سفيان لغزو المسلمين ، فخرج لذلك ثم رجع للعام المقبل ، خرج أشرافهم كسلام بن أبي الحقيق ، وسلام بن مشكم ، وكنانة بن الربيع وغيرهم إلى قريش بمكة . يحرضونهم على غزو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويوالونهم عليه . ووعدوهم من أنفسهم بالنصر لهم . فأجابتهم قريش . ثم خرجوا إلى غطفان فدعوهم فاستجابوا لهم . ثم طافوا في قبائل العرب يدعونهم إلى ذلك . فاستجاب لهم من استجاب . فخرجت

(١) أخرجه البخاري في : ٦٤ - كتاب المغازي ، ٢٩ - باب غزوة الخندق ، حديث

رقم ١٢٩٥ وأخرجه مسلم في : ٣٣ - كتاب الإمارة ، حديث رقم ٩١ (طبعنا) .

قريش وقائدهم أبو سفيان في أربعة آلاف . ووافاهم بنو سليم بعرّ الظهران . وخرجت بنو أسد وفزارة وأشجع وبنو مرة . وجاءت غطفان وقائدهم عيينة بن حصن . وكان قد وافى الخندق من الكفار عشرة آلاف . فلما سمع رسول الله ﷺ بمسيرهم إليه ، استشار الصحابة ، فأشار عليه سلمان الفارسيّ بحفر خندق يحول بين العدو وبين المدينة . فأمر به رسول الله ﷺ فبادر إليه المسلمون . وعمل بنفسه فيه وبادروا . وهجم الكفار عليهم . وكان في حفره من آيات نبوته وأعلام رسالته ما قد تواتر الخبر به . وكان حفر الخندق أمام سلع . وسلع جبل خلف ظهور المسلمين . والخندق بينهم وبين الكفار . وخرج رسول الله ﷺ في ثلاثة آلاف من المسلمين . فتحصن بالجبل من خلفه وبالخندق أمامهم .

وقال ابن إسحاق : خرج في سبعمائة . (وهذا غلط من خروجه يوم أُحُد) .

وأمر النبي ﷺ بالنساء والذرائع فجعلوا في أطام المدينة . واستخلف عليها ابن أم مكتوم وانطلق حيّ بن أخطب إلى بني قريظة . فدنا من حصنهم . فأبى كعب بن أسد أن يفتح له . فلم يزل يكلمه حتى فتح له . فلما دخل عليه قال : لقد جئكم بعزّ الدهر . جئتك بقريش وغطفان وأسد على قادتها ، لحرب محمد . قال : قال كعب : جئني ، والله ! بذل الدهر وبجهام قد أراق ماءه . فهو رعد وبرق . فلم يزل به حتى نقض العهد الذي بينه وبين رسول الله ﷺ . ودخل مع المشركين في محاربتة ، فسرّ بذلك المشركون . وشرط كعب على حيّ أنّه ، إن لم يظفروا بمحمد ، أن يجيء حتى يدخل معه في حصنه ، فيصيبه ما أصابه . فأجابه إلى ذلك ، ووفى له به . وبلغ رسول الله ﷺ خبر بني قريظة ونقضهم للعهد . فبعث إليهم السعدين وخوات ابن جبير وعبد الله بن رواحة ليعرفوه : هل هم على عهدهم أو قد نقضوه . فلما دنوا منهم فوجدوهم على أخبث ما يكون ، وجأهروهم بالسب والعداوة ، ونالوا من رسول الله ﷺ . فانصرفوا عنهم ، ولحنوا لرسول الله ﷺ لحنًا يخبرونه أنهم قد نقضوا العهد وغدروا . فعظم ذلك على المسلمين . فقال رسول الله ﷺ عند ذلك : الله أكبر ! أبشروا يا معشر المسلمين .

واشتد البلاء وتجهر الففاق . واستأذن بعض بنى حارثة رسول الله ﷺ في الذهاب إلى المدينة وقالوا : بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً . وهم بنو سامة بالفشل . ثم ثبت الله الطائفتين . وأقام المشركون محاصرين رسول الله ﷺ شهراً . ولم يكن بينهم قتال . لأجل ما حال الله به من الخندق . بينهم وبين المسلمين . إلا أن فوارس من قريش منهم عمرو بن عبدود وجماعة معه ، أقبلوا نحو الخندق . فلما وقفوا عليه قالوا : إن هذه مكيدة ما كانت العرب تعرفها . ثم تيمموا مكاناً ضيقاً من الخندق فاقتحموه . وجالت بهم خيلهم في السبخة بين الخندق ولسع . ودعوا إلى البراز . فانتدب لعمر بن أبي طالب رضي الله عنه . فبارزه فقتله الله على يديه . وكان من شجعان المشركين وأبطالهم . وانهزم الباقون إلى أصحابهم . وكان شعار المسلمين يومئذ (حم لا ينصرون) ولما طالت هذه الحال على المسلمين ، أراد رسول الله ﷺ أن يصالح عُمَيَّةَ بن حصن والحارث بن عوف ، رئيسي غطفان على ثلث ثمار المدينة ، وينصرفا بقومهم . وجرت المفاوضة على ذلك . فاستشار السعديين في ذلك فقالوا : يا رسول الله ! إن كان الله أمرك بهذا ، فسمعاً وطاعة . وإن كان شيء تصنعه لنا ، فلا حاجة لنا فيه . لقد كنا نحن هؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان ، وهم لا يطعمون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرئ أوبيعا . فحين أكرمنا الله بالإسلام ، وهدانا له ، وأعزنا بك ، نعطيهم أموالنا؟ والله ! لا نعطيهم إلا السيف . فصوب رأيهما وقال : إنما هو شيء أصنعه لكم ، لما رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة .

ثم إن الله عز وجل ، وله الحمد ، صنع أمراً من عنده . خذله بين العدو وهزم جموعهم ، وفلَّ حَدَثَهُمْ . فكان مما هيا من ذلك ، أن رجلاً من غطفان يقال له نعيم بن مسعود بن عامر ، رضي الله عنه ، جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ! إنني قد أسلمت . فمرني بما شئت . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما أنت رجل واحد . نخذل عنا لما استطعت : فإن الحرب خدعة . فذهب من فوره ذلك إلى بني قريظة ، وكان عشيراً لهم

في الجاهلية ، فدخل عليهم وهم لا يعلمون بإسلامه فقال : يا بني قريظة ! إنكم قد حاربتم محمداً . وإن قريشا إن أصابوا فرصة انتهزوها ، وإلا انشمروا إلى بلادهم راجعين وتركوكم ومحمداً ، فانتقم منكم . قالوا : فما العمل ؟ يا نعيم ! قال : لا تقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهائن . قالوا : لقد أشرت بالرأى . ثم مضى على وجهه إلى قريش . قال لهم : تعلمون ودّي لكم ونصحى لكم . قالوا : نعم قال : إن يهود قد ندموا على ما كان منهم من نقض عهد محمد وأصحابه . وإنهم قد راسلوه أنهم يأخذون منكم رهائن يدفعونها إليه ثم يوالونه عليكم . فإن سألوكم رهائن فلا تعطوهم . ثم ذهب إلى غطفان فقال لهم مثل ذلك . فلما كان ليلة السبت من شوال ، بعثوا إلى يهود : إنا لسنا بأرض مقام ، وقد هلك الكراع والخفّ . فانهضوا بناحتي نناجز محمداً فأرسل إليهم اليهود : إن اليوم يوم السبت وقد علمتم ما أصاب من قبلنا حين أحدثوا فيه . ومع هذا ، فإننا لا نقاتل معكم حتى تبعثوا لنا رهائن . فلما جاءتهم رسالتهم بذلك ، قالت قريش صدقكم ، والله ! نعيم . فبعثوا إلى يهود : إنا ، والله ! لا نرسل إليكم أحداً . فاخرجوا معنا حتى نناجز محمداً . فقالت قريظة : صدقكم ، والله ! نعيم . فتخاذل الفريقان : وأرسل الله عز وجل على المشركين جنداً من الريح في ليال شاتية باردة شديدة البرد . فجعلت تقوّض خيامهم ، ولا تدع لهم قدراً إلا كفأتها ، ولا طنباً إلا قلعته ، ولا يقر لهم قرار . وجند الله من الملائكة يزلزلونهم ويلقون في قلوبهم الرعب والخوف . وأرسل رسول الله ﷺ حذيفة بن اليمان يأتيه بخبرهم ، فوجدهم على هذه الحال وقد تهيأوا للرحيل . فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرهم برحيل القوم . فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ردّ الله عدوّه بغيظه ، لم ينالوا خيراً وكفى الله قتالهم . فصدق وعده . وأعز جنده ونصر عبده . وهزم الأحزاب وحده . ثم لما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة مؤيداً منصوراً والمسلمون معه ، ووضعوا السلاح ، وكانت الظُّهر ، أتى جبريلُ النبي ﷺ فقال : إن الله عز وجل يأمرُك بالمشير إلى بني قريظة - وهم قبيلة من يهود خيبر - فإني عامدٌ إليهم فزّلزلهم . فأمر رسول الله ﷺ مؤذناً فأذن في

الناس : من كان سامعا مطيعا ، فلا يصلين العصر إلا ببني قريظة . واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم . وقدّم رسول الله ﷺ على بن أبي طالب ، رضوان الله عليه ، برأيته إلى بني قريظة . وابتدروا الناس . فسار على ، حتى إذا دنا من الحصون سمع منها مقالة قبيلة لرسول الله ﷺ . فرجع حتى لقي رسول الله ﷺ بالطريق . فقال : يا رسول الله ! لا عليك أن لا تدنو من هؤلاء الأخاب . قال : لم ؟ أظنك سمعت منهم لى أذى . قال : نعم . يا رسول الله ! قال : لورأونى لم يقولوا من ذلك شيئا . وتلاحق به الناس ، وحاصروهم خمسا وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار ، وقذف الله فى قلوبهم الرعب . ثم نزلوا على حكم رسول الله ﷺ ، فتوالت الأوس فقالوا : يا رسول الله ! صلى الله عليك وسلم . إنهم كانوا مواليينا دون الخزرج ، وقد فعلت فى موالى إخواننا بالأمس ما قد علمت .

وقد كان رسول الله ﷺ ، قبل بني قريظة ، قد حاصر بني قينقاع وهم شعب من اليهود كانوا بالمدينة ، وكانوا حلفاء الخزرج ، فنزلوا على حكمه ، فسأله إياهم عبد الله بن أبي ابن سلول فوجههم له .

فلما كلمته الأوس قال رسول الله ﷺ : ألا ترضون ، يامعشر الأوس ! أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ قالوا : بلى . قال رسول الله ﷺ : فذاك إلى سعد بن معاذ .

وكان رسول الله ﷺ قد جعل سعد بن معاذ فى خيمة لامرأة من أسلم ، يقال لها ربيعة فى مسجده ، كانت تداوى الجرحى وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين . وكان رسول الله ﷺ قد قال لقومه حين أصابه السهم بالخذق : اجعلوه فى خيمة ربيعة حتى أعوده من قريب . فلما حكمه رسول الله ﷺ فى بني قريظة ، أتاه قومه فخلوه على حمار . وكان رجلا جسيما جميلا . ثم أقبلوا معه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، قال صلى الله عليه وسلم : قوموا إلى سيدكم . فقاموا إليه فأنزلوه .

قال ابن كثير : إعظماً وإكراماً ، واحتراماً له ، في محل ولايته ، ليكون أنفذ لحكمه فيهم .

فلما جلس ، قال له رسول الله ﷺ : إن هؤلاء قد نزلوا على حكمك . فاحكم فيهم بما شئت . وصارت تعرض له الأوس أن يحسن إليهم ، وتقول : يا أبا عمرو ! إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم .

فقال رضى الله عنه : عليكم عهد الله وميثاقه ، أن الحكم فيهم لما حكمت . قالوا : نعم . قال : وعلى من ههنا (في الناحية التي فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهو معرض عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إجلالاً له) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم . قال سعد : فإني أحكم فيهم أن تقتل الرجال ، وتقسم الأموال ، وتُسبي الذراري والنساء . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد : لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة . وفي رواية : لقد حكمت بحكم الملك (أى لأن هذا جزاء الخائن الغادر) وكان سعد أصيب يوم الخندق . رماه رجل من قريش يقال له ابن العرقعة . رماه في الأكل .

فكواه رسول الله صلى الله عليه وسلم في أكله . وقال سعد : اللهم ! إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً ، فأبقني لها : فإنه لا قوم أحب إلي أن أجاهد ، من قوم آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه . اللهم ! وإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم ، فأجعل لي شهادة ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة . فاستجاب الله تعالى دعاءه وقدر عليهم أن نزلوا على حكمه باختيارهم ، طلباً من لقاء أنفسهم .

ثم لما استنزلوا من حصونهم ، حبسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة في دار . ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سوق المدينة فخندق بها خنادق ، ثم بعث إليهم فضرب أعناقهم في تلك الخنادق ، يخرج بهم إليه أرسالا ، وفيهم عدو الله حُيَّ بن أخطب وكعب بن أسد رأس القوم . وهم ستمائة أو سبعمائة . وسُبي من لم ينبت منهم مع النساء وأموالهم ، وهذا ما ذكره تعالى من أمر بني قريظة ، إثر أمر الخندق بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا)

[٢٧] (وَأَوْزَكَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدَيْرَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَّوْهَا، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا)

[٢٨] (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا)

« وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ » أى عاونوا الأحزاب وساعدوهم على حرب الرسول صلى الله عليه وسلم « مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ » يعنى بنى قريظة . وهم طائفة من اليهود ، كان نزل أبائهم الحجاز لما فروا من الاضطهاد وتشتتوا كل شتات فى أطراف البلاد « مِنْ صَيَاصِيهِمْ » أى حصونهم وآطامهم التى كانوا فيها « وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ » أى الخوف ، جزاء وفاقا . قال ابن كثير : لأنهم كانوا مآلثوا المشركين على حرب النبي صلى الله عليه وسلم - وليس من يعلم كمن لا يعلم - وأخافوا المسلمين وراموا قتلهم ليعزوا فى الدنيا . فانعكس عليهم الحال وانقلب إليهم القتال ، لما انشمر المشركون وراحوا بصفقة المغبون . فسكروا العز ذلوا . وأرادوا استئصال المسلمين فاستؤصلوا . ولهذا قال تعالى « فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا » يعنى قتل الرجال المقاتلة ، وسبي الذراري والنساء .

روى الإمام أحمد^(١) عن عطية القرظى قال : عُرِضَتْ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ قَرِيظَةَ فَشَكَوْا فِي . فَأَمَرَ بِي النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَنْظُرُوا : هَلْ أُنْتُبْتُ بَعْدُ ؟ فَنَظَرُونِي فَلَمْ يَجِدُونِي أُنْتُبْتُ . فَنُحِلِّي عَنِّي ، وَأَلْحَقَنِي بِالسَّبْيِ .

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣١٠ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي)

وكذا رواه أهل السنن كلهم : وقال الترمذی : حسن صحيح « وَأَوْزَنْكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَرَهُمْ » حصونهم « وَأَمْوَالَهُمْ » أى نقودهم وأثاثهم ومواشيهم « وَأَرْضاً لَمْ تَطَّوْهَا » أى أرضاً لم تقبضوها بعد ، يعنى خيبر ، وقيل مكة . رواه مالك عن زيد بن أسلم . وقيل : فارس والروم ، وقال ^(١) ابن جرير : يجوز أن يكون الجميع مراداً . قال الزخشرى : ومن بدع التفاسير أنه أراد نساءهم . وبتمام هذه الغزوة أراح الله المسلمين من شر مجاورة اليهود الذين تعودوا الغدر والخيانة ، ولم يبق إلا بقية من كبارهم بخيبر مع أهلها ، وهم الذين كانوا السبب في إثارة الأحزاب . قال بعضهم : يا الله ! ما أسوأ عاقبة الطيش ! فقد تكون الأمة مرتاحة البال هادئة الخواطر ، حتى تقوم جماعة من رؤسائها بعمل غدر يظنون من ورائه النجاح . فيجلب عليهم الشرور ويشتتهم من ديارهم . وهذا ما حصل لليهود في الحجاز . فقد كان بينهم وبين المسلمين عهود يأمن بها كل منهم الآخر . ولكن اليهود لم يوفوا بتلك العهود حسداً منهم وبنغياً . فتم عليهم ماتم . سنة الله في المفسدين . فإن الله لا يصلح أعمالهم « وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا » أى وقد شاهدتم بعض مقدوراته فاعتبروا بغيرها « يَسْأَلُهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تَرْضْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا » أى السعة والتنعيم فيها « وَزَيْنَتَهَا » أى زخارفها « فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ » أى أعطكن المتعة وأطلقكن . والمتعة ما يعطى للمرأة المطلقة على حسب السعة والإقتار . من ثياب أو دراهم أو أثاث ، تطوعاً لا وجوباً . وقوله تعالى « سَرَّاحًا جَمِيلًا » أى طلاقاً من غير ضرار ولا بدعة . وقد روى أنهم سألن النبي ﷺ ثياب الزينة وزيادة النفقة مما ليس عنده . فنزلت الآية . ولما نزلت ، بدأ ﷺ بمائشة رضى الله عنها . وكانت أحبهن إليه . فخيرها وقرأ عليها القرآن ، فاختارت الله ورسوله والدار الآخرة . ثم اختار جميعهن اختيارها . قيل : وكان تحته يومئذ تسع نسوة ، خمس من قريش : عائشة وحفصة وأم حبيبة وسودة وأم سلمة رضى الله عنهن . ثم صفية بنت حُيى النضرية وميمونة بنت الحارث الهلالية وزينب بنت جحش الأسدية وجويرية بنت الحارث المصطلقية رضى الله عنهن .

(١) انظر الصفحة ١٥٥ من الجزء الحادى والعشرين (طبعة الحلبي الثانية)

لطيفة :

قال الرازي: وجه التعلق، وهو أن مكارم الأخلاق منحصرة في شيئين: التعظيم لأمر الله، والشفقة على خلق الله. وإلى هذا أشار عليه السلام بقوله: الصلاة وما ملكت أيمانكم. ثم إن الله تعالى لما أرشد نبيه إلى ما يتعلق بجانب التعظيم لله، بقوله^(١) (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ) ذكر ما يتعلق بجانب الشفقة. وبدأ بالزوجات، فإنهن أولى الناس بالشفقة، ولذا قدمهن في النفقة. انتهى.

القول في تأويل قوله تعالى:

[٢٩] (وَإِنْ كُنْتُمْ تُرَدُّنَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالْذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا)

[٣٠] (يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ، وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا)

«وَإِنْ كُنْتُمْ تُرَدُّنَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالْذَّارَ الْآخِرَةَ» أي تردن رسوله. قال أبو السعود: وذكر الله عز وجل، للإيدان بجلالة محله عليه السلام، عنده تعالى «فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا» أي لا يقدر قدره. ولما خيّرهن النبي ﷺ، واختارن الله ورسوله، أدبهن الله وهددهن، للتوق عما يسوء النبي صلى الله عليه وسلم، ويقبح بهن من الفاحشة. وأوعدهن بتضعيف العذاب بقوله تعالى «يُنَاسِئُ النَّبِيَّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ» أي بين الشرع والعقل قبحها. إن قرئ بالفتح. أو مبينة قبحها بنفسها من غير تأمل، إن قرئ بالكسر «يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ» أي ضعف عذاب غيرها. قال القاضي: لأن الذنب منهن أقبح. فإن زيادة قبحه تتبع زيادة فضل المذنب والنعمة عليه، ولذلك جعل حدّ

(١) [٣٣ / الأحزاب / ١].

الحرّ ضعفى حد العبد، وعوتب الأنبياء بما لا يعاتب به غيرهم «وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا»
لعموم قدرته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَمَّلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا)

[٣٢] (يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ ، إِنْ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ
بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا)

[٣٣] (وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ، وَأَقِمْنَ
الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ
لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا)

«وَمَنْ يَقْنُتْ» أى يدم مطيعا «مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ» أى فى إتيان الواجبات وترك
الحرمات والمكروهات «وَتَعَمَّلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ» أى مرة على الطاعة
والتقوى، وأخرى على طلبهن رضا رسول الله صلى الله عليه وسلم، بحسن الخلق وطيب المعاشرة
والقناعة «وَأَعْتَدْنَا لَهَا» أى زيادة على أجرها المضاعف فى الجنة ، أو فيها وفى الدنيا «رِزْقًا
كَرِيمًا» أى حسنا مرضيا «يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ» إِنْ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ
بِالْقَوْلِ» أى عند مخاطبة الناس . أى فلا تُجِبْنَ بقولكن ليئا خشنا، مثل كلام المربيات والمومسات
«فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ» أى ريبة وفجور «وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا» أى بعبدا
من طمع المريب بجدّ وخشونة ، من غير تخفيف . أو قولا حسنا مع كونه خشنا «وَقَرْنَ فِي
بُيُوتِكُنَّ» أى اسكنن ولا تخرجن منها . من (وقر يقر وقارا) إذا سكن . أو من (قرّ

يقر من باب ضرب) حذفت الأولى من رأى (اقرن) ونقلت كسرتها إلى القاف ، فاستغنى عن همزة الوصل . ويؤيده قراءة نافع وعاصم بالفتح . من (قررت أقر) من باب علم . وهى لغة قليلة « وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى » أى تبرج النساء أيام جاهلية الكفر الأولى . إذ لا دين يمنعهن ولا أدب يزعهن . والتبرج ، فسّر بالتبختر والتكسّر فى المشى . وبإظهار الزينة وما يستدعى به شهوة الرجل . ولبس رقيق الثياب التى لاتوارى جسدها . وبإبداء محاسن الجيد والقلأد والقرط . وكل ذلك مما يشمل النهى ، لما فيه من المفسدة والتعرّض لكبيرة . فائدة - قيل (الأولى) بمعنى القديمة مطلقا من غير تقييد بزمن . فيستدل بذلك لمن قال : إن الأول لا يستلزم ثانيا .

قال فى (الإكمال) : وهو الأصح عند العلماء . فلو قال : أول ولد تلديه فأت طالق ، لم يحتج إلى أن تلد ثانيا . انتهى .

وقال الزمخشريّ : الأولى هى القديمة التى يقال لها الجاهلية الجاهلاء . من الزمن الذى ولد فيه إبراهيم ، أو ما قبله ، إلى زمن عيسى . والجاهلية الأخرى ما بين عيسى ومحمد صلوات الله عليهما . ويجوز أن تكون الجاهلية الأولى جاهلية الكفر قبل الإسلام ، والجاهلية الأخرى جاهلية الفسوق والفجور فى الإسلام . ويعضده ما روى ^(١) أن رسول الله ﷺ قال لأبى ذرّ ، لما عيّ رجلا بأمه وكانت أعجمية : إنك امرؤ فيك جاهلية . والمعنى نهيه عن إحداث جاهلية فى الإسلام ، تشبه جاهلية الكفر قبله « وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ » أى موافقة أمرهما ونهيهما . ثم أشار إلى أن مخالفةهما رجس لا يناسب فضل أهل البيت بقوله « إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَ كُفْرَ تَطْهِيرًا » أى ما أمركنّ ونهاكنّ ، ووعظكنّ ، إلا خيفة مقارفة المآثم والحرص على التصوّن عنها بالتقوى . فالجملّة تعليمية لأمرهنّ ونهيهنّ على سبيل الاستئناف .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٢ - كتاب الإيمان ، ٢٢ - باب المعاصى من أمر الجاهلية ،

حديث رقم ٢٨ .

قال الزمخشريّ . استعمار للذنوب (الرجس) وللمتقوى (الطاهر) . لأن عرض المقترف للمقبحات يتلوّث بها ويتدنس كما يتلوّث بدنه بالأرجاس . وأما المحسنات فالعرض معها نقّ مصون كالثوب الطاهر . وفي هذه الاستعارة ما ينفّر أولى الألباب عما كرهه الله لعباده ونهاهم عنه . ويرغبهم فيما رضىه لهم وأمرهم به . و (أَهْلَ الْبَيْتِ) نصب على النداء أو على المدح . والمراد بهم من حوالم بيت النبيّ صلى الله عليه وسلم .

قال ابن كثير : وهذا نص في دخول أزواج النبيّ ﷺ في أهل البيت ههنا ، لأنهم سبب نزول هذه الآية ، وسبب النزول داخل فيه قولاً واحداً . إما وحده على قول ، أو مع غيره على الصحيح . وأما قول عكرمة ، إنها نزلت في نساء النبيّ ﷺ خاصة ، ومن شاء باهله في ذلك ، فإن كان المراد أنهم كنّ سبب النزول دون غيرهن ، فصحيح . وإن أريد أنهم المراد فقط دون غيرهن ، ففي هذا نظر . فإنه قد وردت أحاديث تدل على أن المراد أعم من ذلك . وأنه ﷺ (١) جمع علياً وفاطمة والحسن والحسين ، ثم جملهم بكساء كان عليه . ثم قال : هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس . وقد ساق ابن كثير طرق هذا الحديث ومخرجه . إلا أن الشيخين لم يصحّحاه ، ولذا لم يخرجاه . وأما ما رواه مسلم (٢) عن حصين بن سبرة ، عن زيد بن أرقم ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما بعد ، أيها الناس ! إنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربّي فأجيب . وأنا تارك فيكم ثقلين : أولهما كتاب الله ، فيه الهدى والنور . فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به فحثّ على كتاب الله عز وجل ورغّب فيه . ثم قال : وأهل بيتي . أذكركم الله في أهل بيتي . قالها ثلاثاً . فقال له حصين : ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال : نساؤه من أهل بيته . ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده . قال : ومن هم؟ قال : آل عليّ وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس رضى الله عنهم -

(١) أخرجه الترمذيّ في : ٤٦ - كتاب المناقب ، ٦٠ - باب فضل فاطمة بنت محمد ﷺ

(٢) أخرجه في : ٤٤ - كتاب فضائل الصحابة ، حديث رقم ٣٦ (طبعنا)

فإنما مراد زيد، آله الذين حرموا الصدقة. أو أنه ليس المراد بالأهل الأزواج فقط، بل هم مع آله. قال ابن كثير : وهذا الاحتمال أرجح ، جمعا بين القرآن والأحاديث المتقدمة، إن صحّت. فإن في بعض أسانيدنا نظراً. انتهى .

وقال أبو السعود : وهذه كما ترى آية بيّنة ، وحجة نيرة ، على كون نساء النبي صلى الله عليه وسلم من أهل بيته ، قاضية ببطلان رأى الشيعة في تخصيصهم أهلية البيت بفاطمة وعليّ وابنهما رضوان الله عليهم. وأما ما تمسكوا به من حديث الكساء وتلاوته صلى الله عليه وسلم الآية بعده، فإنما يدل على كونهم من أهل البيت، لا على أن من عداهم ليسوا كذلك. ولو فرضت دلالته على ذلك لما اعتدّ بها ، لكونها في مقابلة النص . انتهى .

بقى أن الشيعة ، تمسكوا بالآية أيضا على عصمة عليّ رضي الله عنه ، وإمامته دون غيره .

قال ابن المطهر الحلي منهم : وفي هذه الآية دلالة على العصمة مع التأكيد بلفظ (إنما) وإدخال اللام في الخبر ، والاختصاص في الخطاب بقوله (وَيُطَهَّرُكُمْ تَطْهِيراً) وغيرهم ليس بمعصوم الخ . وأجاب ابن تيمية رحمه الله في (منهاج السنة) بقوله : ليس في هذا دلالة على عصمتهم ولا إمامتهم. وتحقيق ذلك في مقامين : أحدهما - أن قوله ^(١) (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً) كقوله ^(٢) (مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ) وكقوله ^(٣) (يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ) وكقوله ^(٤) (يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) * وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا) فإن إرادة الله في هذه الآيات متضمنة لحبة الله لذلك المراد ورضاه به ، وأنه شرعه

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٣٣] . (٢) [٥ / المائدة / ٦] .

(٣) [٢ / البقرة / ١٨٥] . (٤) [٤ / النساء / ٢٦ و ٢٧] .

للمؤمنين وأمرهم به . ليس في ذلك أنه خلق هذا المراد ، ولا أنه قضاء وقدره ، ولا أنه يكون لاحالة . والدليل على ذلك ، أن النبي صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية قال (اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا) فطلب من الله لهم إذهاب الرجس والتطهير . فلو كانت الآية تتضمن إخبار الله بأنه قد أذهب عنهم الرجس وطهرهم ، لم يحتج إلى الطلب والدعاء .

وهذا على قول القدرية أظهر . فإن إرادة الله عندهم لا تتضمن وجود المراد ، بل قد يريد مالا يكون ويكون مالا يريد . فليس في كونه تعالى مريداً لذلك ، ما يدل على وقوعه . وهذا الرافضي وأمثاله قدرية ، فكيف يحتجون بقوله (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ) على وقوع المراد ؟ وعندهم أن الله قد أراد إيمان من على وجه الأرض . فلم يقع مراده . وأما على قول أهل الإثبات ، فالتحقيق في ذلك أن الإرادة في كتاب الله نوعان : إرادة شرعية دينية تتضمن محبته ورضاه . وإرادة كونية قدرية تتضمن خلقه وتقديره . الأولى مثل هؤلاء الآيات . والثانية مثل قوله تعالى ^(١) (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعْدُ فِي السَّمَاءِ) وقول نوح ^(٢) (وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ) وكثير من المثبتة والقدرية يجعل الإرادة نوعاً واحداً ، كما يجعلون الإرادة والمحبة شيئاً واحداً . ثم القدرية ينفون إراداته لما بين أنه مراد في الآيات التشريعية . فإنه عندهم كل ما قيل إنه مراد . فلا يلزم أن يكون كائناً ، والله قد أخبر أنه يريد أن يتوب على المؤمنين وأن يطهرهم . وفيهم من تاب وفيهم من لم يتب . وفيهم من تطهر وفيهم من لم يتطهر . وإذا كانت الآية دالة على وقوع ما أراده من التطهير وإذهاب الرجس ، لم يلزم بمجرد الآية ثبوت ما ادعاه . ومما يبين ذلك ، أن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم مذكورات في الآية . والكلام في الأمر بالتطهير بإيجابه

(١) [٦ / الأنعام / ١٢٥] . (٢) [١١ / هود / ٣٤] .

ووعده الثواب على فعله والعقاب على تركه . قال تعالى (١) (يُنَسِّأُ النَّبِيَّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُمْ بِفَحْشَةٍ مُبِينَةٍ يُضَعَفُ لَهَا أَلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا) إلى قوله (٢) (وَأَطِئِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَإِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) فالخطاب كله لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم ومعهم الأمر والنهي والوعد والوعيد . لكن لما تبين ما في هذا من المنفعة التي تعمهم وتعم غيرهم من أهل البيت ، جاء التطهير بهذا الخطاب وغيره ليس مختصاً بأزواجه . بل هو متناول لأهل البيت كلهم . وعلى فاطمة والحسن والحسين أخص من غيرهم بذلك . ولذلك خصهم النبي صلى الله عليه وسلم بالدعاء لهم . وهذا كما أن قوله (٣) (لَمَسْجِدُ أُسَسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ) نزلت بسبب (مسجد قباء) لكن الحكم يتناوله ويتناول ما هو أحق منه بذلك ، وهو (مسجد المدينة) وهذا يوجه ما ثبت في الصحيح (٤) عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن المسجد الذي أسس على التقوى فقال : هو مسجدى هذا . وثبت عنه في الصحيح (٥) أنه كان يأتي قباء كل سبت ماشياً وراكباً . فكان يقوم في مسجده يوم الجمعة ويأتي قباء يوم السبت . وكلاهما مؤسس على التقوى . وهكذا أزواجه . وعلى فاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم أخص بذلك من أزواجه . ولهذا خصهم بالدعاء . وقد تنازع الناس في آل محمد من هم ؟ فقيل : أمته . وهذا قول طائفة من أصحاب محمد ومالك وغيرهم . وقيل : المتقون من أمة . ورووا حديثاً (آل محمد كل مؤمن

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٣٠] . (٢) [٣٣ / الأحزاب / ٣٣] .

(٣) [٩ / التوبة / ١٠٨] .

(٤) أخرجه مسلم في : ١٥ - كتاب الحج ، حديث رقم ٤١٥ (طبعتنا) .

(٥) أخرجه البخاري في : ٢٠ - كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة ، ٣ -

باب من أتى مسجد قباء كل سبت ، حديث ٦٤٧ ، عن ابن عمر .

وأخرجه مسلم في : ١٥ - كتاب الحج ، حديث رقم ٥١٥ (طبعتنا) .

تقى (رواه الخلال ، وتام في (الفوائد) له . وقد احتج به طائفة من أصحاب أحمد وغيرهم . وهو حديث موضوع . وبني على ذلك طائفة من الصوفية . أن آل محمد هم خواص الأولياء . كما ذكر الحكيم الترمذي . والصحيح أن آل محمد هم أهل بيته . وهذا هو المنقول عن الشافعي وأحمد . وهو اختيار الشريف أبي جعفر وغيرهم . لكن هل أزواجه من أهل بيته ؟ على قولين هما روايتان عن أحمد . أحدهما - أنهن لسن من أهل البيت . ويروى هذا عن زيد ابن أرقم . والثاني - وهو الصحيح أن أزواجه من آله . فإنه قد ثبت في الصحيحين ^(١) عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه علمهم الصلاة عليه : اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته . ولأن امرأة إبراهيم من آله وأهل بيته . وامرأة لوط من آله وأهل بيته . بدلالة القرآن . فكيف لا يكون أزواج محمد من آله وأهل بيته ؟ ولأن هذه الآية تدل على أنهن من أهل بيته ، وإلا لم يكن لذكر ذلك في الكلام معنى . وأما الأتقياء من أمتهم فهم أولياؤه . كما ثبت في الصحيح ^(٢) أنه قال : إن آل بنى فلان ليسوا لى بأولياء ، وإنما ولي الله صالح المؤمنين . فبين أن أولياءه صالح المؤمنين . وكذلك في حديث آخر : إن أولياى المتقون حيث كانوا وأين كانوا . وقد قال تعالى ^(٣) (وَإِنْ تَظْهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ) وفي الصحاح ^(٤) عنه أنه قال : وددت أنى رأيت إخوانى . قالوا : أو لسن إخوانك ؟ قال : (١) أخرجه البخارى في : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ١٠ - باب حدثنا موسى بن إسماعيل حديث ١٥٩٠ ، عن أبي حميد الساعدي .

ومسلم في : ٤ - كتاب الصلاة ، حديث رقم ٦٩ (طبعنا) .

(٢) أخرجه البخارى في : ٧٨ - كتاب الأدب ، ١٤ - باب يبلى الرحم بيلالها ،

حديث ٢٣١٥ ، عن عمرو بن العاص .

وأخرجه مسلم في ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٣٦٦ .

(٣) [٦٦ / التحريم / ٤] .

(٤) أخرجه مسلم في : ٢ - كتاب الطهارة ، حديث رقم ٣٩ (طبعنا) .

بل أنتم أصحابي ، وإخواني قوم يأتون من بعدى يؤمنون بي ولم يروني . وإذا كان كذلك ، فأولياؤه المتقون ، بينه وبينهم قرابة الدين والإيمان والتقوى . وهذه القرابة الدينية أعظم من القرابة الطبيعية . والقرب بين القلوب والأرواح أعظم من القرب بين الأبدان . ولهذا كان أفضل الخلق أولياؤه المتقون . وأما أقاربه ففهم المؤمن والكافر والبرّ والفاجر . فإن كان فاضل منهم ، كعلى رضى الله عنه وجعفر والحسن والحسين ، ففضلهم بما فيهم من الإيمان والتقوى . وهم أولياؤه بهذا الاعتبار لا بمجرد النسب . فأولياؤه أعظم درجة من آله . وإن صلى على آله تبعاً ، لم يقتض ذلك أن يكونوا أفضل من أوليائه . الذين لم يصلّ عليهم . فإن الأنبياء والمرسلين هم من أوليائه . وهم أفضل من أهل بيته . وإن لم يدخلوا في الصلاة معه تبعاً ، فالفضل قد يختص بأمرو ولا يلزم أن يكون أفضل من الفاضل . ودليل ذلك أن أزواجه هم ممن يصلّى عليه كما ثبت ذلك في الصحيحين . وقد ثبت باتفاق الناس كلهم أن الأنبياء أفضل منهن كلهن . فإن قيل : فهب أن القرآن لا يدل على وقوع ما أريد من التطهير وإذهاب الرجس ، لكن دعاء النبي صلى الله عليه وسلم بذلك يدل على وقوعه . فإن دعاءه مستجاب . قيل : المقصود أن القرآن لا يدل على ما ادعاه بثبوت الطهارة وإذهاب الرجس ، فضلاً عن أن يدل على العصمة والإمامة . وأما الاستدلال بالحديث فذاك مقام آخر . ثم نقول في المقام الثاني : هب أن القرآن دلّ على طهارتهم وعلى ذهاب رجسهم ، كما أن الدعاء المستجاب لا بد أن يستحق معه طهارة المدعو لهم وإذهاب الرجس عنهم . لكن ليس في ذلك ما يدل على العصمة من الخطأ . والدليل عليه أن الله لم يرد بما أمر به أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أن لا يصدر من واحدة منهن خطأ . فإن الخطأ مغفور لهن ولغيرهن . وسياق الآية يقتضي أنه يريد ليذهب عنهم الرجس الذي هو الخبث . كالفواحش ويظهرهم تطهيراً من الفواحش وغيرها من الذنوب . والتطهير من الذنب على وجهين ، كما في قوله ^(١) (وَتَيْبَاكَ فَطَهِّرْ) وقوله ^(٢) (إِنَّهُمْ

(١) [٧٤ / المثر / ٤] . (٢) [٧ / الأعراف / ٨٢] و [٢٧ / النمل / ٥٦] .

أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ) فإنه قال فيها^(١) (مَن يَأْتِ مِنْكَ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ) والتطهير من الذنب إما بأن لا يفعله العبد ، وإما بأن يتوب منه كافي قوله^(٢) (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا) ما أمر الله به من الطهارة ابتداء وإرادة . فإنه يتضمن نهيه عن الفاحشة ، لا يتضمن الإذن فيها بحال . لـكن هو سبحانه ينهى عنها ، ويأمر من فعلها بأن يتوب منها . وفي الصحيح^(٣) عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول : اللهم ! باعد بيني وبين خطاياي ، كما باعدت بين المشرق والمغرب . واغسلني بالماء البارد . اللهم ! نقني من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس . وبالجملة ، لفظ (الرجس) أصله القذر . ويراد به الشرك . كقوله^(٤) (فَأَجْتَمِعُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْتَانِ) ويراد به الخبائث المحرمة ، كالمطعمات والمشروبات كقوله^(٥) (قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا) وقوله^(٦) (إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ) وإذهاب ذلك إذهاب لـكله . ونحن نعلم أن الله أذهب عن أولئك السادة الشرك والخبائث . ولفظ (الرجس) عام يقتضي أن الله يذهب جميع الرجس . فإن النبي صلى الله عليه وسلم دعا بذلك . وأما قوله (وطهرهم تطهيراً) فهو سؤال مطلق بما يسمى طهارة . وبعض الناس يزعم أن هذا مطلق فيكتفى فيه بفرد من أفراد الطهارة . ويقول مثل ذلك في قوله^(٧) (فَأَعْتَبُوهَا بِلَاؤِي

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٣٠] . (٢) [٩ / التوبة / ١٠٣] .

(٣) أخرجه البخاري في : ١٠ - كتاب الأذان ، ٨٩ - باب ما يقول بعد التكبير ،

حديث ٤٥٤ ، عن أبي هريرة

وأخرجه مسلم في : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ١٤٧ (طبعتنا)

(٤) [٢٢ / الحج / ٣٠] . (٥) [٦ / الأنعام / ١٤٥] .

(٦) [٥ / المائدة / ٩٠] . (٧) [٥٩ / الحشر / ٢] .

أَلَا بُصِّرَ) ونحو ذلك. والتحقيق أنه أمر بمسمى الاعتبار الذى يقال عند الإطلاق . كما إذا قيل : أكرم هذا ، أى افعل معه ما يسمى عند الإطلاق إكراماً . وكذلك ما يسمى عند الإطلاق اعتباراً . والإنسان لا يسمى معتبراً إذا اعتبر فى قصة ، وترك ذلك فى نظيره . وكذلك لا يقال (هو طاهر) أو (متطهر) أو (مطهر) إذا كان متطهراً من شىء ، متنجساً بنظيره . ولفظ (الطاهر) كلفظ (الطيب) قال تعالى ^(١) (وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ) كما قال ^(٢) (الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ) وقد روى أنه قال لعمار : ائذنوا له . مرحباً بالطيب الطيب . وهذا أيضاً كلفظ (المتقى) و (المزكى) قال تعالى ^(٣) (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا) * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا وقال ^(٤) (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا) وقال ^(٥) (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا) وقال ^(٥) (وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَسَّازَكَاكُمْ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ) وليس من شرط المتقين ونحوهم أن لا يقع منهم ذنب ، ولا أن يكونوا معصومين من الخطأ والذنوب . فإن هذا ، لو كان كذلك ، لم يكن فى الأمة متقى ، بل من تاب من ذنوبه دخل فى المتقين . كما قال ^(٦) (إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا) فدعاء النبى صلى الله عليه وسلم بأن يطهرهم تطهيراً ، كدعائه بأن يزكهم ويطيهم ويجعلهم متقين ، ونحو ذلك ومعلوم أن من استقر أمره على ذلك ، فهو داخل فى هذا . لا تكون الطهارة التى دعا بها لهم بأعظم مما دعا به لنفسه . وقد قال ^(٧) : اللهم ! طهرنى من خطاياى بالثلج والبرد والماء البارد .

(١) [٢٤ / النور / ٢٦] . (٢) [٩١ / الشمس / ٩ ، ١٠] .

(٣) [٩ / التوبة / ١٠٣] . (٤) [٨٧ / الأعلى / ١٤] .

(٥) [٢٤ / النور / ٢١] . (٦) [٤ / النساء / ٣١] .

(٧) أخرجه مسلم فى : ٤ - كتاب الصلاة ، حديث ٢٠٤ (طبعتنا) عن عبد الله بن

أبى أوفى .

فمن وقع ذنبه مغفوراً أو مكفراً ، فقد طهره الله منه تطهيراً . ولكن من مات متوسخاً بذنوبه ، فإنه لم يطهر منها في حياته . وقد يكون من تمام تطهيرهم صيانتهم عن الصدقة التي هي أوساخ الناس . والنبي صلى الله عليه وسلم ، إذا دعا بدعاء ، أجابه الله بحسب استعداد المحل . فإذا استغفر للمؤمنين والمؤمنات ، لم يلزم أن لا يوجد مؤمن مذب ، فإن هذا ، لو كان واقفاً ، لما عُدَّ مؤمن ، لافي الدنيا ولا في الآخرة . بل يغفر الله لهذا بالتوبة ، ولهذا بالحسنات الماحية . ويغفر الله لهذا ذنوباً كثيرة ، وإن واحدة بأخرى ، وبالجملة ، فالتطهير الذي أراده الله والذي دعا به النبي صلى الله عليه وسلم ، ليس هو العصمة بالاتفاق ، فإن أهل السنة عندهم ، لا معصوم إلا النبي صلى الله عليه وسلم . والشيعَةُ يقولون : لا معصوم غير النبي صلى الله عليه وسلم والإمام . فقد وقع الاتفاق على انتفاء العصمة المختصة بالنبي صلى الله عليه وسلم والإمام عن أزواجه وبناته وغيرهن من النساء ، وإذا كان كذلك امتنع أن يكون التطهير المدعوى به للأربعة ، متضمناً للعصمة التي يختص بها النبي صلى الله عليه وسلم ، والإمام عندهم . فلا يكون دعاء النبي صلى الله عليه وسلم بهذا ، العصمة ، لالعلّ ولاغيره . فإنه دعاء لأربعة مشتركين ، لم يختص بعضهم بدعوة ، وأيضاً فالدعاء بالعصمة من الذنوب ممتنع على أصل القدرية . بل وبالتطهير أيضاً . فإن الأفعال الاختيارية التي هي فعل الواجبات وترك المحرمات عندهم غير مقدورة للرب . ولا يمكنه أن يجعل العبد مطيعاً ولا عاصياً . ولا متطهراً من الذنوب ولا غير متطهر . فامتنع على أصلهم أن يدعوا لأحد بأن يجعله فاعلاً للواجبات تاركاً للمحرمات . وإنما المقدور عندهم قدرة تصلح للخير والشر . كالسيف الذي يصلح لقتل المسلم والكافر . والمال الذي يمكن إنفاقه في الطاعة والمعصية ، ثم العبد يفعل باختياره ، إما الخير وإما الشر بتلك القدرة . وهذا الأصل يبطل حجّتهم ، والحديث حجة عليهم في إبطال هذا الأصل ، حيث دعا النبي صلى الله عليه وسلم بالتطهير . فإن قالوا : المراد بذلك أنه يغفر لهم ولا يؤاخذهم ، كان ذلك أدل على البطلان من دلالة على العصمة . فتبين أن الحديث لا حاجة لهم فيه بحالٍ على ثبوت العصمة . والعصمة

مطلقا التي هي فعل المأمور وترك المحذور ، ليست مقدورة عندهم لله ، ولا يمكنه أن يجعل أحدا فاعلا لطاعةٍ ولا تاركا لمعصيةٍ . لا لنبي ولا لغيره . ويعتنع عندهم أن من يعلم أنه إذا عاش بطيعه باختيار نفسه ، لا بإعانة الله وهدايته . وهذا مما يبين تناقض قولهم في مسائل العصمة . كما تقدم . ولو قدر ثبوت العصمة ، فقد قدمنا أنه لا يشترط في الإمام العصمة ، والإجماع على انتفاء العصمة في غيرهم . وحينئذ تبطل حججهم بكل طريق . انتهى . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَإِذْ كُرِّنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا)

«وَإِذْ كُرِّنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ» أمر لهن بأن يذكرن ولا يُغفلن ما يقرأ في بيوتهن من آيات كتابه تعالى ، وسنة نبيه اللتين فيهما حياة الأنفس وسعادتها وقوام الآداب والأخلاق . وذكر ذلك مستوجب لتصوّر عظمته ومكانته وثمره ومنفعته . وذلك يجرّ إلى العمل به . فمن تأوّل (أُذْ كُرِّنَ) بأعلن به ، أراد ذلك تعبيراً عن المسبب باسم السبب . وجوز أن يكون المعنى : اذكرن هذه النعمة حيث جعلتن أهل بيت النبوة ومهبط الوحي ، مما يوجب قوة الإيمان والحرص على الطاعة ، حتّى على الانتهاء والانتثار فيما كلفنه . قال أبو السعود : والتعرض للتلاوة في البيوت دون النزول فيها ، مع كونها مهبط الوحي لعمومها لجميع الآيات ووقوعها في كل البيوت وتكررها الموجب لتمكّنهن من الذكر والتذكير . بخلاف النزول وعدم تعيين التلاوة لجبريل وتلاوة النبي صلى الله عليه وسلم وتلاوتهن وتلاوة غيرهن ، تعلما وتعلما «إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا» أي يعلم ويدبر ما يصلح في الدين . ولذلك أمر ونهى .

[٣٥] (إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنَاتِ وَالْقَنَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّامِينَ وَالصَّامَاتِ وَالْحَفِظِينَ وَالْحَفِظَاتِ وَالَّذِينَ كَرِهَ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَالْحَفِظَاتِ وَالَّذِينَ كَرِهَ اللَّهُ كَثِيرًا وَالَّذِينَ كَرِهَ اللَّهُ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا)

« إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ » أى المنقادين فى الظاهر لحكم الله من الذكور والإناث « وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ » أى المصدقين بما يجب أن يصدق به فى القلب « وَالْقَنَاتِ وَالْقَنَاتِ » أى بإدامة شغل الجوارح فى الطاعات « وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ » فى القول بمجانبة الكذب والعمل بتجريد الإخلاص لوجهه تعالى فلا يكون فى طاعتهم رياء « وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ » أى على البأساء والضراء والنوائب ، وعلى القيام بالعبادة والثبات عليها « وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ » أى المتواضعين لله بقلوبهم وجوارحهم . و (الخشوع) السكون والطمأنينة والتؤدة والوقار والتواضع . والحامل عليه الخوف منه تعالى ومراقبته « وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ » أى بالإحسان إلى الفقراء والبؤساء الذين لا كسب لهم ولا كاسب . فيعطون من فضول أموالهم طاعة لله وإحسانا إلى خلقه وإتماما للخشوع « وَالصَّامِينَ وَالصَّامَاتِ » أى الآتين بما طلب منهم من الصيام المورث للتقوى والرحمة على من يتضور جوعا ويتصبر فقرا « وَالْحَفِظِينَ وَالْحَفِظَاتِ » أى عن إبدائها وإدائها ، حياء وكفا عن مثار الشهوة المحرمة أو عن الحرام والفجور « وَالَّذِينَ كَرِهَ اللَّهُ كَثِيرًا وَالَّذِينَ كَرِهَ اللَّهُ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً » أى بسبب ما عملوا من الحسنات المذكورة غفرانا وألسنهم « أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً » أى بسبب ما عملوا من الحسنات المذكورة غفرانا لما اقترفوا من الصغائر لأنها مكفرة بذلك « وَأَجْرًا عَظِيمًا » أى ثوابا وافرا فى الجنة ، وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ، وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا) «وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ» أى ما صح لهما «إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ» أى قضى الله ورسوله في أنفسهم قضاء، أن يتخيروا من أمرهم غير الذى قضى فيهم ويخالفوا أمر الله وأمر رسوله وقضاءهما ويعصوهما ، لما فى ذلك من المأثم ، كما قال تعالى « وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَ » أى فيما أمرا أو نهيا « فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا » أى جار عن قصد السبيل ، وسلك غير الهدى والرشاد . وقد ذكر أن هذه الآية نزلت فى زينب بنت جحش ، حين خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد بن حارثة . فأبت لكونه مولى لا يماثلها فى الشرف . فنزلت الآية فرضيت وتزوجها .

قال المهايمى : الظاهر أن الخطبة كانت بطريق الوجوب . ويحتمل أن تكون لابطريق الوجوب ، لكن اعتبار العار فى مقابلة خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم معصية ، لما فيه من ترجيح قول أهل العرف على قول رسول الله صلى الله عليه وسلم مع كونه قول الله بالحقيقة . اهـ .

وقال بعضهم : إنما عدّ التنزيل إباءها عصيانا ، وكأنه أرغمها على زواجه ، لما أوقع الله من المصلحة لها وللمسلمين فى ذلك . وهو هدم تحریم زوجة المتبنّى ، الفاشى فى الجاهلية . كما سيأتى سياقه .

وذكر أيضاً أنها نزلت فى أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط . وكانت أول من هاجر من النساء - بعد صلح الحديبية - فوهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم ، فزوجها زيدا - أى بعد فراقه زينب - فسخطت ، فنزلت الآية ، فرضيت . وروى الإمام أحمد^(١) عن أنس قال :

(١) أخرجه بالصفحة رقم ١٣٦ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

خطب النبي صلى الله عليه وسلم على جليبيب رضى الله عنه ، امرأة من الأنصار إلى أبيها . فقال : حتى أستمراً معها . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : نعم إذاً . قال : فانطلق الرجل إلى امرأته ، فذكر ذلك لها ، فأبت أشد الإباء . فقالت الجارية : أتريدون أن تردوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره ؟ إن كان قد رضى لكم ، فأتركوه . قال : فكأنها جلت عن أبيها وقالوا : صدقت . فذهب أبوها إلى رسول الله ﷺ فقال : إن كنت رضىته فقد رضىناه . قال ﷺ : فإنى قد رضىته . قال : فزوجها . ثم ذهب مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزاة ، فقتل . ورئى حوله ناس من المشركين قد قتلهم . قال أنس : فلقد رأيتها وإنها لمن أتق بيت في المدينة (وفي رواية : فما كان في الأنصار أيتهم أتق منها) .

وذكر الحافظ ابن عبد البر في (الاستيعاب) أن الجارية لما قالت في خدرها : أتردون على رسول الله ﷺ أمره ، نزلت هذه الآية ^(١) (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مَوْمِنَةٍ) الخ . ولا يخفى شمول الآية لما ذكر ولغيره ، إلا أن تأثر هذه الآية بقصة زيد وزوجه ، الآتية ، يؤيد أنها نزلت في زوجه زينب ، لتناسق نظام الآيات حينئذ وظهور هذه الآية كالطليعة لهذه القصة الجليلة .

وقد قدمنا مراراً أن معنى قولهم (نزلت الآية في كذا) أنها مما تشمله لمعوم مساقها . ولذا سأل طاوس ابن عباس عن ركعتين بعد العصر فنهاه . وقرأ له هذه الآية .

قال ابن كثير : هذه الآية عامة في جميع الأمور . وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء فليس لأحد مخالفته ، ولا اختيار لأحد ههنا ، ولا رأى ولا قول . كما قال تبارك وتعالى ^(٢) : (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) وفي الحديث : والذي نفسى بيده ! لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به . ولهذا شدد في خلاف ذلك فقال ^(٣) (وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَ

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٣٦] . (٢) [٤ / النساء / ٦٥] .

(٣) [٣٣ / الأحزاب / ٣٦] .

فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا) كقوله تعالى (١) (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) .

لطائف :

الأولى - قالوا على الروايات السالفة : إن ذكر الله في الآية ، مع أن الأمر لهم الرسول صلى الله عليه وسلم ، للدلالة على أنه بمنزلة من الله ، بحيث تعد أواصره أوامر الله تعالى . أو أنه لما كان ما يفعله بأمره ، لأنه لا ينطق عن الهوى ، ذكرت الجلالة وقدمت للدلالة على ذلك . انتهى .

وهذا وقوف مع ما روى . وإلا فظاهر الآية يعم ما إذا قضى الله في كتابه ، ورسوله في سنته .

الثانية - (الْخَيْرَةُ) هذا مصدر ، وذكروا أنه لم يجىء من المصادر على وزنه غير (طَيْرَةٍ) الثالثة - جمع الضمير الأول - وهو لهم - لعموم مؤمن ومؤمنة من حيث إيهما في سياق النفي . قال الشهاب : واعتبر عمومه ، وإن كان سبب نزوله خاصا ، دفعا لتوهم اختصاصه بسبب النزول . أو ليؤذن أنه كما لا يصح ما اختاروه مع الانفراد ، لا يصح مع الجمع أيضا كيلا يتوهم أن للجمعية قوة تصححه . انتهى .

وجمع الثانى - وهو ضمير من أمرهم - مع أنه للرسول صلى الله عليه وسلم ، أو له والله تعالى ، للتعظيم . هذا ما أشار له القاضى وغيره . مع أنه لا يظهر امتناع عوده على ما عاد عليه الأول ، مع ترجيحه بعدم التفكيك فيه ، على أن يكون المعنى : ناشئةً من أمرهم . والمعنى دواعيهم السابقة إلى اختيار خلاف ما أمر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم . أو المعنى الاختيار فى شيء من أمرهم ، أى دواعيهم . وردّ هذا ، بأنه قليل الجدوى ، ضرورة أن الخيرة ناشئة من دواعيهم .. أو واقعة فى أمورهم . وهو بين مستغن عن البيان . بخلاف ما إذا كان المعنى بدل

أمره الذى قضاءه صلى الله عليه وسلم . أو متجاوزين عن أمره لتأكيده وتقريره للنفي . فهذا هو المانع من عوده إلى ما عاد عليه الأول .

قال الشهاب : وهو كلام حسن . ثم أشار تعالى إلى ما من به على المسلمين من هدم تحريم زوجة الدعى والمتبنى الذى كان فاشيا فى الجاهلية ، بما جرى بين زيد متبنى النبى صلى الله عليه وسلم وزوجه من الفراق . ثم تزويجه تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم إياها ، رفعا للخرج فيه . فقال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ، فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ، وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا)

[٣٨] (مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا)

[٣٩] (الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا)

« وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ » أى بالإسلام ومتابعة النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو زيد بن حارثة « وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ » أى بالعتق والحرية والاصطفاء بالولاية والمحبة ، وتزويجه بنت عمته زينب بنت جحش .

قال ابن كثير : كان سيِّداً كبير الشأن جليل القدر ، حبيباً إلى النبي صلى الله عليه وسلم يقال له (الحَب) ويقال لابنه أسامة (الحَب ابن الحَب) قالت عائشة رضى الله عنها : ما بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم في سرية إلا أمره عليهم . ولو عاش بعده لاستخلفه . رواه الإمام أحمد^(١) . « أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ » أى لا تطلقها « وَأَتَّقِ اللَّهَ » أى اخشهِ في أمرها فإن الطلاق يشينها وقد يؤذى قلبها وارع حق الله في نفسك أيضاً . فربما لا تجد بعدها خيراً منها . وكانت تعظم عليه بشرفها ، وتؤذيه بلسانها . فرام تطليقها متعللاً بتكبرها وأذاها فوعظه صلى الله عليه وسلم وأرشدته إلى الصبر والتقوى « وَتُخْفِي » أى تضرر « فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ » أى من الحكم الذى شرعه . أى تقول ذلك ، وأنت تعلم أن الطلاق لا بد منه ، وأن لا منتدح عن امتثال أمر الله بنفسك ، لتكون أسوة لمن معك ولمن يأتي بعدك . وإنما غلبك في ذلك الحياء وخشية أن يقولوا تزوج محمد مطلقة متبناه . وهذا معنى قوله تعالى « وَتَخْشَى النَّاسَ » أى قاتهم وتعييرهم الجاهلي « وَاللَّهُ » أى الذى ألهمك ذلك وأمرك به « أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ » أى فكان عليك أن تمضى في الأمر من أول وهلة تعجيلاً بتنفيذ كلمته وتقرير شرعه ، ثم زاده بيانا بقوله « فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا » أى حاجةً بالزواج « زَوْجَنكِهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ » أى ضيق من العار في نكاح زوجات أدعيائهم « إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا » أى بموت أو طلاق أو فسخ نكاح . « وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا » أى قضاؤه واقعا ، ومنه تزويجك زينب « مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ » أى مأثم وضيق « فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ » أى كتبته له من الزوج وأباحه له وسن شريعة مُثْلِي في وقوعه « سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ » أى الرسل عليهم السلام . وهو أن لا حرج عليهم في الإقدام على ما أباح لهم ووسع عليهم في باب النكاح وغيره . فإنه كان لهم الحرائر والسراى وتناول المباحات والطيبات وبهدهم

(١) أخرجه بالصفحة رقم ٢٢٧ من الجزء السادس (طبعة الحلبي) .

القدوة « وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا » أى قضاء مقضياً . أى لاحرج على أحد فيما أحل له . ثم وصف شأنهم بقوله « الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ » أى أحكامه وأوامره ونواهيه ويصدعون بها « وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ » أى لا يخافون قالة الناس ولا عنهم ولا يبالون بها فى تشريعه ولا ريب أن سيّد الناس فى هذا المقام ، بل وفى كل مقام ، حضرة نبينا عليه الصلاة والسلام . كما علم من قيامه بالتبليغ بالقول والفعل أبلغ قيام « وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا » أى حافظاً لأعمال خلقه . وكافياً للمخاوف .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ، وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا)

« مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ » هذا دفعٌ لتعمير من جهل ، فقال : تزوج محمد زوج ابنه زيد . فدفعه تعالى بأنه إنما يتصور لو كان صلى الله عليه وسلم أباً لزيد على الحقيقة ، لكنه ليس أباً لأحد من أصحابه ، حتى يثبت بينه وبينه ، ما يثبت بين الأب وولده من حرمة الصهر والنكاح ، وزيدٌ واحد منهم ، الذين ليسوا بأولاده حقيقة . فكان حكمه حكمهم . والادعاء والتبني من باب الاختصاص والتقريب لا غير « وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ » أى ولكن كان رسول الله مبلغاً رسالاته « وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ » بفتح التاء وكسرهما ، قراءتان . أى فهذا نعته وهذه صفته . فليس هو فى حكم الأب الحقيقى ، وإنما ختمت النبوة به ، لأنه شرع له من الشرائع ما ينطبق على مصالح الناس فى كل زمان وكل مكان . لأن القرآن الكريم لم بدع أمماً من أممات المصالح إلا جلاها ، ولا مكreme من أصول الفضائل إلا أحيها . فتمت الرسالات برسالاته إلى الناس أجمعين ، وظهر مصداق ذلك بخيمة كل من ادعى النبوة بعده ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين « وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا » أى فلا يقضى إلا بما سبق به علمه ، ونفذت فيه مشيئته ، واقتضته حكمته .

تنبيهان في لطائف هذه القصة وفوائدها الباهرات :

الأول - لم تختلف الروايات أنها نزلت في قصة زيد بن حارثة وزوجه زينب بنت جحش .
ورواه البخاري^(١) عن أنس في التفسير . ورواه عنه في التوحيد قال : جاء زيد بن حارثة يشكو . فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول : اتق الله وأمسك عليك زوجك . وأخرجه^(٢)
أحمد بلفظ أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم منزل زيد بن حارثة . فجاءه زيد يشكوها إليه .
فقال له : أمسك زوجك واتق الله . فنزلت .

وقد أخرج ابن أبي حاتم هذه القصة من طريق السدي . فساقها سياقاً حسناً واضحاً
ولفظه : بلغنا أن هذه الآية نزلت في زينب بنت جحش ، وكانت أمها أمة بنت عبد المطلب
عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يزوجه زيد بن
حارثة مولاه فكرهت ذلك ، ثم إنها رضيت بما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فزوجه
إياه ، ثم أعلم الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم بعد ، أنها من أزواجه . فكان يستحي أن
يأمره بطلاقها ، وكان لا يزال يكون بين زيد وزينب ما يكون من الناس ، فأمره رسول الله
صلى الله عليه وسلم أن يمسك عليه زوجته ، وأن يتقى الله . وكان يخشى الناس أن يعيبوا عليه
ويقولوا تزوج امرأة ابنه . وكان قد تبني زيدا .

وعنده ، من طريق علي بن زيد بن جدعان عن علي بن الحسين بن علي ، قال : أعلم الله
نبيه صلى الله عليه وسلم ؛ أن زينب ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها . فلما أتاه زيد
يشكوها إليه ، وقال له : اتق الله وأمسك عليك زوجك . قال الله تعالى : قد أخبرتك أني
مزوجكها ، وتخفى في نفسك ما الله مبديه .

(١) أخرجه في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٣٣ - سورة الأحزاب ، ٦ - باب قوله وتخفى

في نفسك ما الله مبديه ، حديث رقم ٢٠٣٢ .

وأخرجه في : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ٢٢ - باب : وكان عرشه على الماء ، حديث رقم ٢٠٣٢

أخرجه بالصفحة ١٥٠ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

قال الحافظ ابن حجر في (الفتح) بعد نقل ماتقدم : ووردت آثار أخرى أخرجها ابن أبي حاتم والطبري ، ونقلها كثير من المفسرين ، لا ينبغي التشاغل بها . والذي أورده منها هو المعتمد . انتهى .

وقال الحافظ ابن كثير : ذكر ابن أبي حاتم وابن جرير ههنا آثارا ، أحببنا أن نضرب عنها صفحا ، لعدم صحتها ، فلا نوردتها . انتهى .

الثاني - قال القاضي عياض رحمه الله في (الشفاء) في بحث أقواله صلى الله عليه وسلم الدنيوية : ولا يجوز عليه صلى الله عليه وسلم أن يأمر أحدا بشيء أو ينهاه أحدا عن شيء ، وهو يبطن خلافه وقد قال عليه السلام ^(١) : ما كان لنبى أن تكون له خائنة الأعين ، فكيف أن تكون له خائنة قلب ؟ فإن قلت : فما معنى قوله في قصة زيد (وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ) الآية . فاعلم أكرمك الله ولا تسترب في تنزيه النبى عليه السلام عن هذا الظاهر ، وأن يأمر زيدا بإمسكها وهو يحب تطليقه إياها ، ذكر عن جماعة من المفسرين . وأصح ما في هذا ما حكاه أهل التفسير عن علي بن حسين . أن الله تعالى كان أعلم بنيه أن زينب ستكون من أزواجه . فلما شكها إليه زيد ، قال له النبى صلى الله عليه وسلم : أمسك عليك زوجك واتق الله ، وأخفى منه في نفسه ما أعلمه الله به أنه سيزوجها مما الله بمبديه ومظهره بتمام التزويج وطلاق زيدا لها .

وروى نحوه عمر بن قائد عن الزهري قال : نزل جبريل عليه السلام على النبى صلى الله عليه وسلم يعلمه أن الله يزوجه زينب بنت جحش . فذلك الذى أخفى في نفسه ، ويصحح هذا قول المفسرين في قوله بعد هذا (وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا) أى لا بد لك أن تزوجها . ويوضح هذا أن الله تعالى لم يبد من أمره معها غير زواجه لها . فدل أنه الذى أخفاه عليه السلام ، مما كان

(١) أخرجه أبو داود في : ٣٧ - كتاب الحدود ، ١ - باب الحكم فيمن ارتد ،

حديث ٤٣٥٩ .

أعلمه به تعالى ، وقوله تعالى في القصة (مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ) دل على أنه لم يكن عليه حرج في الأمر. ولو كان على ما قيل من وقوعها في قلبه، وعجة طلاق زيد لها، لكان فيه أعظم الحرج. وكيف يقال: رآها فأعجبته وهي بنت عمته. ولم يزل يراها منذ ولدت. ولا كان النساء يحتجن منه عليه السلام، وهو زوجها لزيد، وإنما جعل الله طلاق زيد لها وتزوج النبي صلى الله عليه وسلم إياها، لإزالة حرمة التبنّي وإبطال سببه. كما قال ^(١) (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ) وقال (لَكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ) قال ابن فورك: وليس معنى الخشية هنا الخوف. وإنما معناه الاستحياء. أي يستحي منهم أن يقولوا تزوج زوجة ابنه. وأن خشيته عليه السلام من الناس كانت من إرجاف المنافقين واليهود، وتشغيهم على المسلمين بقولهم: تزوج زوجة ابنه بعدهم عن نكاح حلائل الأبناء، كما كان. فعتبه الله تعالى على هذا، أو تزهره عن الالتفات إليهم فيما أحله له. كما عتبه على مراعاة رضا أزواجه في سورة التحريم ^(٢) بقوله (لَمْ تَحْرِمُوا مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ) الآية. كذلك قوله ههنا. انتهى ملخصا.

الثالث - قال الإمام ابن حزم في (الفصل) ردّ على من استدلل بتثل هذه الآية على جواز وقوع الصغائر من الأنبياء، مأمثاله: وأما قوله تعالى (وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ) الآية فقد اتقنا من ذلك. إذ لم يكن فيه معصية أصلا ولا خلاف فيما أمره الله تعالى به وأن ما كان أرادته زواج. مباح له فعله ومباح له تركه ومباح له طيه ومباح له إظهاره. وإنما خشى النبي صلى الله عليه وسلم الناس في ذلك خوف أن يقولوا قولنا ويظنوا ظنا، فيهلكوا. كما قال عليه السلام ^(٣) للأَنْصَارِيِّينَ: إنها صفة. فاستعظما ذلك، فأخبرها النبي صلى الله عليه وسلم أنه إنما

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٤٠] . (٢) [٦٦ / التحريم / ١] .

(٣) أخرجه البخاري في: ٩٣ - كتاب الأحكام ، ٢١ - باب الشهادة تكون عند

الحاكم في ولاية القضاء ، حديث رقم ١٠٣١

يخشى أن يلقى الشيطان في قلوبهما شيئاً. وهذا الذى خشيه عليه السلام على الناس من هلاك أديانهم ، بظن يظفونه به عليه السلام ، هو الذى يحققه هؤلاء المخذلون المخالفون لنا في هذا الباب. وكان مراد الله عز وجل أن يبدى ما فى نفسه، لما كان سلف فى علمه من السعادة لأمننا زينب رضى الله عنها . انتهى .

الرابع - للإمام مفتى مصر رحمه الله مقالة على هذه الآية. رأيت نقلها هنا تعريضاً لما سلف، وإيقافاً من أسرار الآية على نخب ما وصف .

قال رحمه الله: نزلت هذه الآية فى زينب بنت جحش. وهى بنت عمته صلى الله عليه وسلم أميمة بنت عبد المطلب . وقد خطبها الرسول على مولاه زيد بن حارثة . فأبت وأبى أخوها عبد الله بن جحش فنزلت آية^(١) (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ) الخ، فلما نزلت الآية قالوا: رضينا يا رسول الله. فأنكحها إياه. وساق عنه إليها مهرها ستين درهما وخمراً وملحفة ودرعا وإزاراً وخمسين مُدّاً من طعام، وثلاثين صاعاً من تمر. كذا يروى .

فنحن من جهة، نرى أن زينب كانت بنت عمّة النّبىّ صلى الله عليه وسلم، ربيت تحت نظره وشملها من عنايته ما يشمل البنت مع والدها لأول الأمر. حتى أنه اختارها لمولاه زوجة. مع إباءها وإباء أخيها. وعدّ إباءها هذا عصياناً. ولا زالت كذلك حتى نزل فى شأنها قرآن. فكأنه أرغمها على زواجه ، لما ألهمه الله من المصلحة لها وللمسلمين فى ذلك. ولو كان للجمال سلطان على قلبه صلى الله عليه وسلم، لكان أقوى سلطاناً عليه جمال البكر فى روائه، ونضرة جدته، وقد كان يراها ولم يكن بينه وبينها حجاب . ولا يخفى عليه شيء من محاسنها الظاهرة. ولكنه لم يرغب لنفسه، ورغبها لمولاه، فكيف يمتد نظره إليها، ويصيب قلبه منهم حبها، بعد أن صارت زوجة لعمد من عبيده أنعم عليه بالعتق والحرية؟ لم يُعرف فيما يغلب على مألوف البشر، أن تعظم شهوة القريب وولعه بالقرب، إلى أن تبلغ حدّ العشق، خصوصاً إذا كان عشيره منذ صغره. بل

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٣٦]

المألوف زهادة الأقرباء بعضهم في بعض . متى تعودّ بعضهم النظر إلى بعض ، من بداية السن إلى أن يبلغ حدّا منه يحول فيه نظر الشهوة . فكيف يظن أو يتوهم أن النبي الذي يقول الله له ^(١) (وَلَا تَمْدَنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) يخالف مألوف العادة ، ثم يخالف أمر الله في ذلك؟ أم كيف يخطر بالبال أن من عصم الله قلبه عن كل دنيئة ، يغلب عليه سلطان شهوة في بنت عمته ، بعد أن زوجها بنفسه لعبد من عبيده؟ ومن جهة أخرى نرى أن النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو الرؤوف الرحيم ، لم يبال بإباء زينب ورغبتهاعن زيد، وقد كان لا يخفى عليه أن نفور قلب المرأة من زوجها مما تسوء معه العشرة وتفسد به شئون المعيشة . فما كان له - وهو سيد المصلحين - أن يرغم امرأة على الاقتران برجل وهي لا ترضاه ، مع ما في ذلك من الضرر الظاهر بكل من الزوجين . لاريب أننا نجد من ذلك هاديا إلى وجه الحق في فهم الآية التي نحن بصدد تفسيرها . ذلك أن التصاق الأدعياء بالبيوت واتصالهم بأنسابها ، كان أمراً تدين به العرب وتعدّه أصلاً يرجع إليه في الشرف والحسب . وكانوا يعطون الدعى جميع حقوق الابن ، ويجرون له وعليه جميع الأحكام التي يعتبرونها للابن ، حتى في الميراث وحرمة النسب وهي عقيدة جاهلية رديئة . أراد الله محوها بالإسلام ، حتى لا يعرف من النسب إلا الصريح ولا يجرى من أحكامه إلا ما له أساس صحيح . لهذا أنزل الله ^(٢) (وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ) ثم قال ^(٣) (أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ) الخ فهذا العدل الإلهي ، أن لا ينال حق الابن إلا من يكون ابناً . أما المتبنّى واللصيق فلا يكون له إلا حق المولى والأخ في الدين . فخرّم الله على المسلمين أن ينسبوا الدعى لمن تبناه . وحظر عليهم أن يقطعوا له شيئاً من حقوق الابن لا قليلاً ولا كثيراً . وشدد الأمر حتى قال ^(٤) (وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ

(١) [٢٠ / طه / ١٣١] . (٢) [٣٣ / الأحزاب / ٤] .

(٣) [٣٣ / الأحزاب / ٥] . (٤) [٣٣ / الأحزاب / ٥] .

بِهِ وَلَٰكِنْ مَّا نَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا) فهو يعفو عن اللفظة تصدر من غير قصد بأن يقول الرجل لآخر : هذا ابني . أو ينادى شخص آخر بمثل ذلك . لا عن قصد التبنّي . ولكنه لا يعفو عن العمد من ذلك ، الذي يقصد منه الإلصاق بتلك اللحمة ، كما كان معروفًا من قبل . مضت سنة الله في خلقه ، أن ما رسيخ في النفس بحكم العادة ، لا يسهل عليها التفصّي منه ، ولا يقدر على ذلك إلا من رفعه الله فوق العادات ، وأعتقه من رِق الشهوات ، وجعل همته فوق المألوفات . فلا يُطَيِّبه (أى يستميله) إلا الحق . ولا يحكم عليه إلف ، ولا يغلبه عرف . ذلك هو النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ومن يختصه الله بالتأسي به . لهذا ، كان الأمر ، إذا نهى الله عن مكروه كانت الجاهلية عليه ، أو أحل شيئًا كانت الجاهلية تحرّمه ، بآدَر النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى امتثال النهي بالكف عن المنهى عنه ، والإتيان بضده . وسارع إلى تنفيذ الأمر بإتيان المأمور به ، حتى يكون قدوة حسنة ، ومثالا صالحا تحاكيه النفوس ، وتحذيه الهمم ، وحتى يخفّ وزر العادة وتخلص العقول من ريب الشبهة . نادى صلى الله عليه وسلم ^(١) في حجة الوداع بحرمة الربا . وأول ربا وضعه ربا عمه العباس . حتى يرى الناس صنيعه بأقرب الناس إليه وأكرمهم عليه ، فيسهل عليهم ترك ما لهم ، وتنقطع وساوس الشيطان من صدورهم ، على هذا السنن الإلهيّ كان عمل النبيّ صلى الله عليه وسلم في أمر زينب ، كبر على العرب أن يفصلوا عن أهلهم من الصقوه بأنسابهم من أديعائهم كما دل عليه قوله تعالى ^(١) (وَنَخَشَى النَّاسَ) الخ فعمد النبيّ صلى الله عليه وسلم ، على سنته ، إلى خرق العادة بنفسه . وما كان ينبغي له ، ولا من مقتضى الحكمة ، أن يكاف أحد الأدعياء الأبعد عنه ، أن يتزوج ثم يأمره بالطلاق ثم يأمر من كان قد تبناه أن يتزوج مطلقة . ففي ذلك من المشقة مع تحكيم العادة وتمكن الاشتراز من النفوس ، ما لا يخفى على أحد . فألهمه الله أن يتولى الأمر بنفسه في أحد عتقائه ، لتسقط العادة بالفعل . كما ألغى حكمها بالقول الفصل . لهذا أرغم النبيّ صلى الله عليه وسلم

(١) أخرجه مسلم في : ١٥ - كتاب الحج ، حديث ١٤٧ (طبعتنا) .

زينب أن تزوج زيد ، وهو مولاه وصفية . والنبي يجد في نفسه أن هذا الزواج مقدمة لتقرير شرع ، وتنفيذ حكم إلهي . وبعد أن صارت زينب إلى زيد لم يلبس إياها الأول ، ولم يسلس قيادها ، بل شمتت بأنفها وذهبت تؤذي زوجها وتفخر عليه بنسبها ، وبأنها أكرم منه عرفاً وأصرح منه حرية . لأنه لم يجر عليها رق كما جرى عليه فاشتكى منها إلى رسول الله ﷺ المرة بعد المرة . وهو عليه السلام مع علو مقامه يغلبه الحياء فيتئد ويتمكث في تنفيذ حكم الله ولا يعجل ، فكان يقول لزيد ^(١) (أَمْسِكْ عَائِيكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ) إلى أن غلب أمر الله على أمر الأنفة ، وسمح لزيد بطلاقها بعد أن مضى العيش معها . ثم تزوجها بعد ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ليمزق حجاب تلك العادة ، ويكسر ذلك الباب الذي كان مغلقاً دون مخالفتها كما قال ^(٢) (لَيْكُنْ لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا) وأكد ذلك بالتصريح في نفي الشبهة بقوله ^(٣) (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ) الآية . هذه هي الرواية الصحيحة والقولة الراجحة .

ثم قال : وأما ما روي من أن النبي مرّ ببيت زيد وهو غائب ، فرأى زينب ، فوقع منها في قلبه شيء ، فقال : سبحان مقلب القلوب ! فسمعت التسبيحة فنقلتها إلى زيد ، فوقع في قلبه أن يطلقها الخ . ما حكمه - فقد قال الإمام أبو بكر بن العربي إنه لا يصح . وإن الناقلين له المحتجين به على مزاعمهم في فهم الآية ، لم يقدرُوا مقام النبوة حق قدره ، ولم تصب عقولهم من معنى العصمة كنهها . وأطال في ذلك ، وأذكر من كلامه ما يؤيد ما ذكرنا في شأن هذه الروايات .

قال ، بعد السلام في عصمة النبي صلى الله عليه وسلم وطهارته من العيب في زمن الجاهلية . وبعد أن جاء الإسلام : وقد مهّدنا لك روايات كلها ساقطة الأسانيد . وإنما الصحيح ^(٣)

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٣٧] . (٢) [٣٣ / الأحزاب / ٤٠] .

(٣) أخرجه البخاري في : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ٢٢ - باب وكان عرشه على الماء ،

حديث ٢٠٣٢ ، عن أنس

منها ماروى عن عائشة أنها قالت: لو كان النبيّ صل الله عليه وسلم كاتما شيئاً من الوحي لسكنم هذه الآية^(١) (وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ) يعنى بالإسلام (وَأَتَمَمْتُ عَلَيْهِ) فأعنته (أُمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ) إلى قوله (وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا) وأن رسول الله لما تزوجها قالوا: تزوج حليمة ابنه ، فأنزل الله^(٢) (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ) الآية . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم تبناه وهو صغير ، فلبث حتى صار رجلاً ، يقال له (زيد ابن محمد) . فأنزل الله^(٣) (ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ) يعنى أنه أعدل عند الله قال القاضى : وما وراء هذه الآية غير معتبر . فأما قولهم إن النبيّ صلى الله عليه وسلم رآها ، فوقعت فى قلبه ، فباطل . فإنه كان معها فى كل وقت وموضع . ولم يكن حينئذ حجاب . فكيف تنشأ معه وينشأ معها ، ويلحظها فى كل ساعة ولا تقع فى قلبه ، إلا إذا كان لها زوج ؟ وقد وهبته نفسها وكرهت غيره . فلم يخطر بباله . فكيف يتجدد هوى لم يكن ! حاشا لذلك القلب المطهر من هذه العلاقة الفاسدة . وقد قال سبحانه وتعالى^(٤) (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَآ مَتَعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ) والنساء أفتن الزهرات، وأنشر الرياحين ، فيخالف هذا فى المطلقات . فكيف فى المنكوحات المحبوسات ؟؟

ثم ساق الكلام فى نفس الآية على حسب ماصح فى الواقعة . ولولا خوف التطويل لنقلت كلامه بحروفه . سبحانه الله ! كيف ساغ لقوم مسلمين أن يعتقدوا بمثل هذه الروايات ، وقد علموا أن الله لم يدع لنبيه أن يعرض عن ابن أم مكتوم ، ويتصدى لصناديد قریش طمعاً فى إسلامهم ، حتى عاتبه على ذلك فى قوله^(٥) (عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ) إلى آخر الآيات ، مع أنه لم ينصرف عن الأعمى إلا لاشتغاله بما كان يعدّه فى نفسه خيراً للدين ، ولم يكن رغبة فى جاه ، ولا شرها إلى مال ،

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٣٧] . (٢) [٣٣ / الأحزاب / ٤٠] .

(٣) [٣٣ / الأحزاب / ٥] . (٤) [٢٠ / طه / ١٣١] .

(٥) [٨٠ / عبس / ١] .

ولا طموحا إلى لذة . فلو صحت الرواية التي زعموها في شأن زينب ، لكان العتاب على تلك التسيبحة ، بمسمع من زينب ، ثم على الزواج بعد الطلاق ، كما أشار إليه في قصة دواد عليه السلام . وما كان محمد ﷺ في علو مقامه ورفعة منزلته من النبوة ، لتطمح نفسه إلى التلذذ ببنت عمته وزوجة مولاه ، ولا أن يُسمعها ما يدل على شغفه بها ، ولا أن تضعف عزيمته عن قمع شهوته وكبح جماحها . وما كان رب محمد ﷺ يعمل شهوته ، ويرفقه من هواه فيما يخالف أمره ، وهو الذي نهاه أن يعد عينيه إلى ما متع به الناس من زهرة الحياة الدنيا ، ومن زهرتها النساء . تسامى قدر محمد عن ذلك ، وتعالى شأن ربه عن هذا علواً كبيراً . أما والله ! لولا ما أدخل الضعفاء أو المدلسون من مثل هذه الرواية ، ما خطر ببال مطلع على الآية الكريمة شيء مما يرمون إليه . فإن نص الآية ظاهر جلي لا يحتمل معناه التأويل ، ولا يذهب إلى النفس منه إلا أن العتاب كان على التمهّل في الأمر ، والترثّب به . وأن الذي كان يخفيه في نفسه هو ذلك الأمر الإلهي الصادر إليه ، بأن يهدم تلك العادة المتأصلة في نفوس العرب ، وأن يتناول المَعُول لهدمها بنفسه . كما قدر له أن يهدم أصنامهم بيده لأول مرة عند فتح مكة . وكما هو شأنه في جميع ما نهى عنه من عاداتهم . وهذا الذي كان يخفيه في نفسه كان الله مبيده بأمره الذي أوحاه إليه في كتابه ، وبترويجه زوجة من كانوا يدعونونه ابناً له ، كما تقدم بيانه . ولم يكن يمنعه عن إبداء ما أبدى الله ، إلا حياء الكريم ، وتؤدة الحكيم ، مع العلم بأنه سيفعل لا محالة ، لكن مع معاونة الزمان .

ثم قال الإمام رحمه الله : أذكر لطيفة لبعض الأذكاء جرت بحضور منى لدى أحد الأساتذة الأمير كانيين ، فجاء في الحديث ذكر قوله تعالى ^(١) (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ) فقال الأمير كي : حتى زينب زوجة زيد بن حارثة . يشير بقوله هذا إلى تلك الحادثة ، ويعرض بعشقه ﷺ لزينب على ما زعموا ، فقال له صاحبي : سبحان الله ! إنكم تشغلون بعلوم السموات

(١) [٣٢ / السجدة / ٧] .

والأرض ، ولا تستعملون عقولكم في أقرب الأشياء إليكم . مع أنكم ، في المشهور عنكم ، من أشد الناس ولعاً بالبحث في الأديان . إن الله أمر نبيه أن يتزوج زوجة من دعاه ابناً له ، ليبين للناس بالفعل أنه ليس كل من لقب بالابن يكون على الحقيقة ابناً ، فإن كان المسيح قد دُعي في لسان الإنجيل بـ (الابن) فليس هذا على الحقيقة ، وإنما (الابن) الحقيقي من ولد من أبيه ولادة صحيحة ، إن في ذلك لذكرى للعالمين . والله أعلم . انتهى كلامه رحمه الله تعالى .

الخامس - روى الإمام أحمد^(١) ومسلم^(٢) والنسائي عن أنس قال : لما انتقضت عِدَّة زينب رضي الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد بن حارثة : اذهب فاذكرها علي . فانطلق حتى أتاها وهي تخمَّر عجينها . قال : فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها وأقول إن رسول الله ﷺ ذكرها . فوليتها ظهري ونكصت على عقبي وقلت : يا زينب ! أبشري . أرسلني رسول الله ﷺ يذكرك . قالت : ما أنا بصانعة شيئاً حتى أوامر ربي عز وجل . فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن . وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن . ولقد رأيتنا ، حين دخلت على النبي ﷺ ، أطعمنها عليها الخبز واللحم .

قال الحافظ ابن حجر : : وهذا أيضاً من أبلغ ما وقع في ذلك : وهو أن يكون الذي كان زوجها هو الخاطب . لثلاثين أحد أن ذلك وقع قهراً بغير رضاه . وفيه أيضاً اختبار ما كان عنده منها . هل بقي منه شيء أم لا؟ وفيه استحباب فعل المرأة الاستخارة ودعائها عند الخطبة قبل الإجابة . وأن من وكل أمره إلى الله عز وجل ، يسر الله له ما هو الأحظ له والأنفع دنيا وأخرى . انتهى . أي فقد حفظ الله شرفها أن يضيع بعد زواجها بمولى . فاختار لها ما شرفها به وأسمى مكانها ، عنايةً منه ورحمةً للأمة أيضاً .

(١) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ١٩٥ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

(٢) أخرجه في : ١٦ - كتاب النكاح حديث رقم ٨٩ (طبعتنا) .

السادس - روى^(١) ابن جرير عن الشعبي قال : كانت زينب رضى الله عنها تقول للنبي ﷺ : إني لأدِلُّ عليك بثلاث ، مامن نسائك امرأة تدل بهن : إن جدِّي وجدَّك واحد : وإني أنكحنيك الله عز وجل من السماء . وإن السفير لجبريل عليه السلام .

وروى^(٢) البخاريّ بعضه عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : إن زينب كانت تفخر على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فتقول : زوجكن أهاليكن ، وزوجني الله تعالى من فوق سبع سموات .

قال ابن القيم في (زاد المعاد) : ومن خصائص زينب أن الله سبحانه كان هو وليها الذي زوجها لرسوله من فوق سمواته . وتوفيت في أول خلافة عمر بن الخطاب . وكانت أولا عند زيد بن حارثة . وكان رسول الله ﷺ تبناه ، فلما طلقها زوجها الله إياها ، لتتأسى به أمته في نكاح أزواج من تبنّوه . انتهى .

السابع - قالوا : لا ينقض عموم قوله تعالى (مِّن رِّجَالِكُمْ) بكونه عليه الصلاة والسلام أباً للطاهر والقاسم وإبراهيم ، لأنهم لم يبلغوا الحلم . ولو بلغوا لكانوا رجالا له ، عليه الصلاة والسلام ، لاهم . انتهى .

وهذا من التعمق في البحث . وإلا فدلالة السياق أوضح من تخصيص الإضافة .

قال ابن كثير : لم يمش له عليه الصلاة والسلام ولد ذكر ، حتى بلغ الحلم . فإنه ﷺ ولد له القاسم والطيب والطاهر من خديجة رضى الله عنها . فأتوا صغاراً ، وولد له ﷺ إبراهيم من مارية القبطية . فأت أيضاً رضيماً . وكان له ﷺ من خديجة أربع بنات : زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة ، رضى الله عنهن أجمعين . فأت في حياته ﷺ ثلاث . وتوفيت فاطمة بعده بستة أشهر . انتهى .

(١) انظر الصفحة رقم ١٤ من الجزء الثاني والعشرين (طبعة الحلبي الثانية)

(٢) أخرجه البخاريّ في : ٩٧ - كتاب التوحيد ، ٢٢ - باب وكان عرشه على الماء ،

حديث ٢٠٣٢ ، عن أنس

ثم أمر تعالى بكثرة ذكره ، والعناية بشكره لما منّ به من هدايته ، إلى نور شريعته حتى ينسى عار الكفر وجاهليته ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا)

[٤٢] (وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا)

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ» أى بما هو أهله من صنوف التحميد والتحميد الذكر ، فإن الله تعالى لم يجعل له حدًا ينتهى إليه . ولم يعذر أحداً فى تركه إلا مغلوباً على عقله ، وأمرهم به فى الأحوال كلها . فقال تعالى ^(١) (فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ) وقال ^(٢) (أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا) أى بالليل والنهار ، فى البر والبحر ، وفى السفر والحضر ، والغنى والفقر ، والسقم والصحة ، والسر والعلائية ، وعلى كل حال «وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا» أى فى أول النهار وآخره ، ليسرى أثر التسبيح فيهما بقية النهار والليل . لأن ذكره وتسبيحه ، يفيدان تموير القلوب وقت خلوها عن الأشغال .

قال الزمخشري : والتسبيح من جملة الذكر . وإنما اختصه من بين أنواعه اختصاص جبريل وميكائيل من بين الملائكة ، لبيّن فضله على سائر الأذكار ، لأن معناه تنزيه ذاته ، عما لا يجوز عليه من الصفات والأفعال . ومثال فضله على غيره من الأذكار ، فضل وصف العبد بالزاهة من أدناس المعاصي ، والطهر من أرجاس المآثم ، على سائر أوصافه ، من كثرة الصلاة والصيام ، والتوفر على الطاعات كلها . ويجوز أن يريد بالذكر وإكثاره ، تكثير الطاعات

(١) [٤ / النساء / ١٠٣] . (٢) [٣٣ / الأحزاب / ٤١] .

والإقبال على العبادات . فإن كل طاعة وكل خير ، من جملة الذكر . ثم خص من ذلك التسبيح بكرة وأصيلا . وهى الصلاة فى جميع أوقاتها . لفضل الصلاة على غيرها . أو صلاة الفجر والعشاءين . لأن أداءها أشق ومراعاتها أشد . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا)

« هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ » استئناف جارٍ مجرى التعليل لما قبله من الأمرين . فإن صلاته تعالى عليهم ، مع عدم استحقاقهم لها وغناه عن العالمين ، مما يوجب عليهم المداومة على ما يستوجب به تعالى عليهم من ذكره تعالى وتسبيحه . أفاده أبو السعود . وقال ابن كثير : هذا تهيمج إلى الذكر . أى أنه سبحانه يذكركم فذكروهم أنتم . كقوله عز وجل ^(١) (كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ * فَادْكُرُونِي أذكركم وأشكروا لى ولَا تكفروا) . انتهى .

والصلاة : الرحمة والعطف . والمعنى : هو الذى يترحم عليكم ويترأف ، حيث يدعوكم إلى الخير ، ويأمركم بإكثار الذكر ، والتوفر على الصلاة والطاعة « لِيُخْرِجَكُمْ مِّنَ الظُّلُمَاتِ » أى ظلمة الكفر والمعاصى والشبهات ومساوى العادات « إِلَى النُّورِ » أى نور الإيمان والسنة والطاعة وخاسن الأخلاق « وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا » أى حيث لم يتركهم يتخبطون فى عمياء الضلالة والجهالة ، بل أنار لهم السبل وأوضح لهم المعالم . وذكر الملائكة تنويرها بشأنهم وشأن المؤمنين . وأن الملائكة الأعلى عناية وعظما وترحما ، بالاستغفار والدعاء

(١) [٢ / البقرة / ١٥١ و ١٥٢] .

والثناء على الجميل. كقوله تعالى (١) (الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا، رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَمِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءِبَاءِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ) (الآية).

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ وَسَلَامٌ، وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا)

[٤٥] (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا)

[٤٦] (وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا)

«تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ وَسَلَامٌ» أى يحيتون يوم لقائه، بالموت أو الخروج من القبر أو دخول الجنة، بسلام، تبشيراً بالسلامة من كل مكروه وآفة، والإضافة إيمان إضافة المصدر إلى المفعول، والمحيط لهم، إما الله جل جلاله، لقوله (٢) (سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ) تعظيماً لهم وتفضلاً منه عليهم، كما تفضل عليهم بصنوف الإكرام، وإما الملائكة لآية (٣) (وَأَلْمَلْنَا سِكَّةً يَدْخُلُونَ عَلَيْهَا مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ، فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ) أو من إضافة المصدر لفاعله. أى تحية بعضهم بعضاً بالسلام. وقد يستدل له بآية (٤) (دَعَوْا لَهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ) «وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا» معنى الجنة وما حوته، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا» أى على من بعثت

(١) [٤٠ / غافر / ٧-٩] . (٢) [٣٦ / يس / ٥٨] .

(٣) [١٣ / الرعد / ٢٤ و ٢٣] . (٤) [١٠ / يونس / ١٠] .

إليهم بالبلاغ « وَمُبَشِّرًا » أى بالثواب لمن آمن « وَنَذِيرًا » أى من الغار لمن كفر « وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ » أى إلى دينه وطاعته والإقرار بوحدايته « بِإِذْنِهِ » أى بأمره ووحيه « وَسِرَاجًا مُنِيرًا » أى يستضاء به فى ظلمات الجهل والغواية ، ويهتدى بأنواره إلى منهاج الرشد والهداية.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَن لَّهُمْ مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا)

[٤٨] (وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعِ أَذْهُهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا)

[٤٩] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَن تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعْتَدُونَهَا ، فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَخُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا)

« وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَن لَّهُمْ مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا » أى ثواباً عظيماً وأجرًا جزيلاً « وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ » أى فيما يرجفون به ويعيبون من جاهليتهم وعوائدهم ، بالإلانة الجانب فى التبليغ ، والمساحة فى الإنذار والتمهل فى الصدع بالحق « وَدَعِ أَذْهُهُمْ » أى إيصال الضرر إليهم ، مجازاةً لفعالهم . بل اعف واصفح . أو معناه : دع ما يؤذونك به بسبب صدعك إياهم . فالصدر مضاف إلى الفاعل على الأول ، وإلى المفعول على الثانى « وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا » أى موكلًا إليه ، وكفيلاً فيما وعدك من النصر ، ودحر ذوى الكفر « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ » أى تزوجتموهن « ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَن تَمْسُوهُنَّ » أى تجامعوهن « فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعْتَدُونَهَا » أى تستوفون عددها من إحصاء أقراء ، ولا أشهر تحصونها عليهن « فَمَتَّعُوهُنَّ » أى أعطوهن ما يستمتعن به من عرض

أو عين مال «وَسِرَّ حُوهْنٌ» أى خلّوا سييلهم بإخراجهن من منازلكم . إذ ليس لكم عليهن
عدّة «سَرَّاحًا جَمِيلًا» أى من غير ضرار ولا منع حق .

تنبيه :

قال ابن كثير : هذه الآية الكريمة فيها أحكام كثيرة . منها إطلاق النكاح على العقد
وحده . وليس فى القرآن آية أصرح فى ذلك منها . وقد اختلفوا فى النكاح : هل هو حقيقة
فى العقد وحده ، أو فى الوطاء ، أو فيهما ؟ على ثلاثة أقوال . واستعمال القرآن ، إنما هو فى
العقد والوطء بعده ، إلا فى هذه الآية . فإنه استعمل فى العقد وحده لقوله تعالى (إِذَا نَكَحْتُمُ
الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ) وفيها دلالة لإباحة طلاق المرأة قبل
الدخول بها . وقوله تعالى (الْمُؤْمِنَاتِ) خرج مخرج الغالب . إذ لا فرق فى الحكم بين المؤمنة
والكتابية فى ذلك ، بالاتفاق . وقد استدل ابن عباس رضى الله عنهما ، وابن المسيّب
والحسن البصرى وزين العابدين ، وجماعة من السلف بهذه الآية ، على أن الطلاق لا يقع إلا
إذا تقدمه نكاح ، لقوله تعالى (إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ) فعقب النكاح
بالطلاق . فدل على أنه لا يصح ولا يقع قبله . وهذا مذهب الشافعى وأحمد وطائفة كثيرة من
السلف والخلف . وأيده ماروى مرفوعاً^(١) (لا طلاق لابن آدم فيما لا يملك) رواه أحمد
وأبو داود والترمذى وابن ماجه . وقال الترمذى : هذا حديث حسن . وهو أحسن شىء
روى فى هذا الباب . وهكذا روى ابن ماجه^(٢) عن علىّ والمِسْوَر بن مخرمة رضى الله عنهما ،
عن النبي ﷺ : لا طلاق قبل النكاح .

(١) أخرجه أبو داود فى : ١٣ - كتاب الطلاق ، ٧ - باب فى الطلاق قبل النكاح ،

حديث ٢١٩٠ .

(٢) أخرجه فى : ١٠ - كتاب الطلاق ، ٧ - باب لا طلاق قبل النكاح ، حديث ٢٠٤٩

و٢٠٤٨ (طبعنا) .

وقوله تعالى (فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا) هذا أمر مجمع عليه بين العلماء ، أن المرأة إذا طلقت قبل الدخول بها ، لا عدة عليها . فتذهب فتزوج في فورها من شاءت . ولا يستثنى من هذا إلا المتوفى زوجها . فإنها تعتد منه أربعة أشهر وعشرا . وإن لم يكن دخل بها ، بالإجماع أيضا . وقوله تعالى (فَمَتَّعُوهُنَّ) المتعة ههنا أعم من أن تكون نصف الصداق المسمى ، أو المتعة الخاصة إن لم يكن قد سمي لها . قال تعالى ^(١) (وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ) وقال عز وجل ^(٢) (لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمْ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً ، وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مِمَّا لَكُمْ بِالْمَعْرُوفِ ، حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ) . وعن ابن عباس : إن كان سمي لها صداقا ، فليس لها إلا النصف . وإن لم يكن سمي لها صداقا ، فامتعتها على قدر عسره ويسره ، وهو السراح الجميل . انتهى .

وعليه ، فالآية في المفوضة التي لم يسم لها . وقيل : الآية عامة . وعليه ، فقيل الأمر للوجوب ، وأنه يجب مع نصف المهر المتعة أيضا . ومنهم من قال للاستحباب ، فيستحب أن يمتعها مع الصداق بشيء .

لطيفة:

قال الرازي : وجه تعلق الآية بما قبلها ، هو أن الله تعالى في هذه السورة ، ذكر مكارم الأخلاق ، وأدب نبيه على ما ذكرناه . لكن الله تعالى أمر عباده المؤمنين بما أمر به نبيه المرسل ، فكما ذكر للنبي مكرمة ، وعلمه أدبا ، ذكر للمؤمنين ما يناسبه . فكما بدأ الله في تأديب النبي ﷺ بذكر ما يتعلق بجانب الله ، بقوله ^(٣) (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ) وثني بما يتعلق بجانب العامة بقوله ^(٤) (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا) كذلك بدأ

(١) [٢ / البقرة / ٢٣٧] . (٢) [٢ / البقرة / ٢٣٦] .

(٣) [٣٣ / الأحزاب / ١] . (٤) [٣٣ / الأحزاب / ٤٥] .

في إرشاد المؤمنين بما يتعلق بجانب الله فقال^(١) (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا) ثم ثنى بما يتعلق بجانب مَنْ تحت أيديهم بقوله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ) ثم ، كما ثلث في تأديب النبيّ بجانب الأمة ، ثلث في حق المؤمنين بما يتعلق بجانب نبيّهم، فقال بعد هذا^(٢) (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ) وبقوله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ) . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَلَّتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يُكَونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا)

«يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ» أى مهورهن فإنها أجور الأ بضاع . وإبتاؤها ، إما إعطاؤها معجلة ، أو تسميتها في العقد . وكان التعجيل ديدن السلف وسنتهم ، وما لا يعرف بينهم غيره .

قال ابن كثير : كان مهر النبيّ ﷺ لفسائه اثنتى عشرة أوقية ونشاً . وهو نصف أوقية . فالجميع خمسمائة درهم . إلا أم حبيبة بنت أبى سفيان فإنه أمهرها عنه النجاشى رحمه الله تعالى أربعائة دينار . وإلا صفية بنت خُيٍّ فإنه اصطفاهما من سبى خيبر ثم أعققها وجعل عتقها صداقها .

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٤١] . (٢) [٣٣ / الأحزاب / ٥٣] .

وكذلك جويرية بنت الحارث المصطلقية أدى عنها كتابتها إلى ثابت بن قيس وتزوجها. رضى الله عنهن . انتهى .

وتقييد الإحلال له عليه الصلاة والسلام بإعطاء المهور، ليس لتوقف الحل عليه. ضرورة أنه يصح العقد بلا تسمية . ويجب مهر المثل أو المتعة على تقديرى الدخول وعدمه . بل لإيثار الأفضل والأولى له عليه الصلاة والسلام . كتقييد إحلال الملوكة بكونها مسبية ، فى قوله تعالى « وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ » فإن المشتراة لا يتحقق بدء أمرها وما جرى عليها .

قال ابن كثير : أى وأباح لك الترسى مما أخذت من الغنائم . وقد ملك صفية وجويرية فأعتقهما وتزوجهما . وملك ریحانة بنت شمعون النضرية ومارية القبطية أم ابنه إبراهيم عليه السلام ، وكانتا من السراى، رضى الله عنهما « وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَلَّتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ » أى من مكة ، إلى المدينة . والتقييد لبيان الأفضل كما تقدم . ولهم فى أفراد العم والخال وجمع العممة والخالة ، عدة أوجه . فيها اللطيف والضعيف . وعندى أن الأفراد والجمع تابع لمقتضى السبك والنظم ورقة التعبير ورشاقة التأدية . كما يدرى من يذوق طعم بلاغة القول ، ويشرب من عين فصاحته . فالأفراد فيهما هنا أرق وأعذب من الجمع . كما أن فى آية^(١) (بَيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بَيُوتِ عَمَّتِكُمْ) أمتن وأبلغ من الأفراد . ولكل مقام مقال . ولكل مجال حال « وَأَمْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا » . أى يتزوجها ويرغب فى قبول هبة نفسها بدون مهر . وقد سعى من الواهبات ميمونة بنت الحارث وزينب بنت خزيمة أم المساكين الأنصارية وأم شريك بنت جابر وخولة بنت حكيم رضى الله عنهن .

(١) [٢٤ / النور / ٦١] .

وفي البخاري^(١) عن عائشة قالت : كنت أغار من اللأى وهبن أنفسهن للنبي ﷺ وأقول : أتهب المرأة نفسها ؟ فلما أنزل الله تعالى^(٢) (تُرْجَى مِنْ تَشَاءِ مِنْهُنَّ وَتُؤَى إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءِ) الآية - قلت ما أرى ربك إلا يسارع في هواك .

وعن ابن عباس ، أنه لم يكن عنده ﷺ امرأة وهبت نفسها له . أى أنه لم يقبل ذلك وإن كان مباحا له . لأنه مردود إلى إرادته . والله أعلم .

قال ابن القيم : وأما من خطبها ﷺ ولم يتزوجها ، ومن وهبت نفسها له ولم يتزوجها ، فنحو أربع أو خمس . وقال بعضهم : هن ثلاثون امرأة . وأهل العلم بالسيرة وأحواله ﷺ ، لا يعرفون هذا بل ينكرونه .

قال أبو السعود : وإرادته عليه الصلاة والسلام في الموضعين بعنوان النبوة بطريق الالتفات ، للتكرم والإيذان بأنها المناط لثبوت الحكم فيختص به عليه السلام حسب اختصاصها به كما ينطبق به قوله تعالى « خَالِصَةً لَّكَ » أى خلص لك إحلالها خالصة أى خلوصا ، فهي مصدر مؤكد ، أو صفتة أى هبة خالصة « مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ » أى فإنهم لا تحل لهم الموهوبة إلا بوليٍّ ومهر ، خوف أن يستسرى النساء وينتشر الفحش بدعوى ذلك . قال قتادة : ليس لامرأة تهب نفسها لرجل ، بغير وليٍّ ولا مهر ، إلا للنبي ﷺ « قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ » أى على المؤمنين « فِي آزْوَاجِهِمْ » أى في حللها من الولي والشهود والمسمى « وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ » أى في حللها من توسيع الأمر فيها .

وقال السيوطي في (الإكليل) : فسر بالاستبراء . وليس له في القرآن ذكر إلا ههنا . « لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ » أى ضيق . واللام متعلقة بـ (خالصة) أو بفعل يفهم

(١) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٣٣ - سورة الأحزاب ، ٧ - باب

قوله ترجى من تشاء منهن وتؤى إليك من تشاء ، حديث ٢٠٣٣ .

(٢) [٣٣ / الأحزاب / ٥١] .

مما قبله . أى قد علمنا ما فرضنا عليهم ، وأسقطناه عنك لرفع الحرج عنك والضيق ، فيما اقتضته الحكمة والعناية بك « وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا » أى يغفر ما يعسر التحرز عنه ، ويرحم فيما يوسع في مواقع الحرج .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (تَرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُمْ وَتُؤَيِّ إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ ، وَمَنْ أُبْغِيتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ، ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقْرَءَ عَنِهُمْ وَلَا يُحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْنَهُنَّ كُلُّهُنَّ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا)

« تَرْجِي » بهمز وغير همز . أى تترك وتؤخر « مَنْ تَشَاءُ مِنْهُمْ » أى من هؤلاء النساء اللاتي أحللناهن لك ، فلا تتزوج بهن « وَتُؤَيِّ إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ » أى تضم من تشاء منهن بالتزوج « وَمَنْ أُبْغِيتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ » أى اخترت تزوجها بعد إرجائها « فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ » أى فى أن تضمها إليك . ومن رأى بعضهم أن الضمير فى (منهن) يعود إلى الواهبات . قال الشعبي : كن نساء وهبن أنفسهن للنبي ﷺ : فدخل يبعضهن وأرجأ بعضهن . لم يفكحن بعده . منهن أم شريك . واستؤنس بحديث عائشة عند أحمد ؛ أنها كانت تعير النساء اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ وتقول : ألا تستحي المرأة أن تعرض نفسها بغير صداق ؟ فلما أنزل الله (تَرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُمْ) الآية قالت : إني أرى ربك يسارع لك فى هوائك . ورواه البخارى^(١) أيضا كما تقدم . وذهب آخرون إلى أن معنى الآية : تطلق وتخلّى سبيل من شئت من نساءك ، وتمسك من شئت منهن فلا تطلق . وعن قتادة ؛ أنها فى القسم ، وأن له أن يقسم لمن شاء ، ويدعه لمن شاء . مع هذا فلم يكن ﷺ يدع القسم . وقد احتج بالآية من ذهب إلى

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٣٣ - سورة الأحزاب ، ٧ - باب

قوله ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء ، حديث رقم ٢٠٣٣ ، عن عائشة .

أن القسم لم يكن واجبا عليه ﷺ . والتحقيق أن الآية عامة في ذلك كله . وأن ما روى مما ذكر ، فمن باب الاكتفاء من العام على بعض أفراده ، أو من رأى ذهب إليه قائله . وقوله تعالى « ذَلِكَ » أى ما ذكر من تفويض الأمر إلى مشيئتكم ورفع الحرج عنكم فيه « أَذْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ » أى تطيب أنفسهن ، إن علمن أن ذلك من الله تعالى « وَلَا يَحْزَنَ » لمخالفة الإرجاء « وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْنَهُنَّ كُلُّهُنَّ » أى لأنه حكم ، كلهن فيه سواء ، فإن سويت بينهن وجدن ذلك تفضلا . وإلا علمن أنه بحكم الله تعالى . فتطمئن به نفوسهن « وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ » أى من الميل إلى البعض منهم دون البعض بالحببة « وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا » أى بذات الصدور « حَلِيمًا » أى ذا حلم عن عباده فيعفو ويغفر . وروى الإمام أحمد ^(١) وأهل السنن ^(٢) عن عائشة ؛ أن رسول الله ﷺ كان يقسم بين نسائه فيعدل . ثم يقول : اللهم ! هذا فعلى فيما أملك ، فلا تلعنى فيما تملك ولا أملك . يعنى القلب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا)

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ١٤٤ من الجزء السادس (طبعة الحلبي)

(٢) أخرجه أبو داود فى : ١٢ - كتاب النكاح ، ٣٨ - باب فى القسم بين النساء ،

حديث رقم ٢١٣٤

وأخرجه الترمذى فى : ٩ - كتاب النكاح ، ٤٢ - باب ما جاء فى التسوية بين الضرائر ،

حديث رقم ١١٤٠

وأخرجه النسائى فى : ٣٦ - كتاب عشرة النساء ، ٢ - باب ميل الرجل إلى بعض نسائه

دون بعض

وأخرجه ابن ماجه فى : ٩ - كتاب النكاح ، ٤٧ - باب القسمة بين النساء ، حديث

رقم ١٩٢١ (طبعتنا)

« لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ » أى من بعد النساء اللاتى نصّ إحلالهن لك فى الآية قبل . وانظر إلى تكريمه تعالى لنبيه صلوات الله عليه حيث لم يقل له (وحرم عليك ما وراء ذلك) كما خاطب المؤمنين بنظيره ، لتعلم كيف تتفاوت الناس بالخطاب تفاوتهم فى رفيع الدرجات .

ولم أر أحداً نبه على ذلك ، فاحرص عليه فيه وفى أمثاله .

قال مجاهد فى الآية : أى لا يحل لك يهودية ولا نصرانية ولا كفرة « وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَكَرَتْ بِمِعْنِكَ » أى فلك التسرّى بهن وإن كن كتابيات أو مشركات ، لأنه ليس لهن ما للحرائر « وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا » أى حيث أحل ما أحل وحظر ما حظر للنبي وللأمة ، فى بيان لاختفاء معه وحكمة لاحتفاء معها . وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن معنى الآية هو حظر نكاح ما بعد التسع اللاتى عنده عليه السلام . وأن التسع نصابه كالأربع لغيره ، وأن ذلك جزاء لاختيارهن إياه لما خيّرهن . كما تقدم فى الآية . ثم قالوا إنه تعالى رفع الحرج عنه فى ذلك ، ونسخ حكم هذه الآية ، وأباح له الزوج ، لكنه لم يفعله إتماماً للمنة عليهن . ومنهم من قال إنها محكمة . وكل ذلك لا برهان معه ، وتفسيك للمعنى ، وغفلة عن سر تكريمه صلوات الله عليه بمقصود الخطاب . وقد وهم فى هذا المعنى زياد - رجل من الأنصار - فردّه أبى رضى الله عنه ، إلى صواب المعنى . وذلك فيما رواه عبد الله بن أحمد وابن ^(١) جرير ؛ أن زياداً قال لأبى بن كعب : أرايت لو أن أزواج النبي عليه السلام توفين ، أما كان له أن يتزوج ؟ فقال : وما يمنعه من ذلك ؟ قال : قوله تعالى (لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ) فقال له : إنما أحل الله له ضرباً من النساء . فقال تعالى (يَسْأَلُهَا النَّبِيُّ إِنْ أَهْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ ، - إلى قوله - إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ) ثم قيل له (لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ) .

(١) انظر الصفحة رقم ٢٩ من الجزء الثانى والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

وروى الترمذی^(١) عن ابن عباس قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أصناف النساء إلا ما كان من المؤمنات المهاجرات ، بقوله تعالى (لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ) الآية . فحرم كل ذات دين غير الإسلام .

والمطلع على ما كتبه هنا ، يأخذه العجب من البعد عن مقصدها . فالحمد لله على إلهام الحق وتعليمه .

تنبيه :

قال في (لباب التأويل) : في قوله تعالى (وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ) دليل على جواز النظر من الرجل إلى التي يريد نكاحها من النساء . ويدل عليه ما روى عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا خطب أحدكم المرأة ، فإن استطاع أن ينظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها ، فليفعل . أخرجه أبو داود^(٢) .

وروى^(٣) مسلم عن أبي هريرة ؛ أن رجلاً أراد أن يتزوج امرأة من الأنصار . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم انظر إليها فإن في أعين الأنصار شيئاً . قال الحميدى : يعنى هو الصَّغَرُ . وعن المغيرة بن شعبه قال : خطبتُ امرأةً . فقال لى النبي صلى الله عليه وسلم : هل نظرتَ إليها ؟ قلت : لا . قال : فانظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما . أخرجه الترمذی^(٤) وحسنه .

(١) أخرجه الترمذی في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٣٣ - سورة الأحزاب ، ١٨ - حدثنا

عبد . حدثنا روح عن عبد الحميد .

(٢) أخرجه في : ١٢ - كتاب النكاح ، ١٨ ، - باب في الرجل ينظر إلى المرأة وهو يريد

تزوجها ، حديث ٢٠٨٢ .

(٣) أخرجه في : ١٦ - كتاب النكاح ، حديث رقم ٧٤ (طبعنا) .

(٤) أخرجه في : ٩ - كتاب النكاح ، ٥ باب ما جاء في النظر إلى المخطوبة ، حديث رقم ١٠٨٧

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَسْنِينَ إِحْدِيثٍ ، إِنَّ ذَالِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيُّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ ، وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنْ آلِ الْحَقِّ ، وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ، ذَالِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ، وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا ، إِنَّ ذَالِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرٍ إِنَّهُ » هذا خطاب لبعض الصحب، وحظر عليهم أن يدخلوا منازلهم بغير إذن. كما كانوا قبل ذلك يصنعون في بيوتهم في الجاهلية وابتداء الإسلام . و(إلى) متعلق ب(يؤذن) بتضمين معنى الدعاء ، للإشعار بأنه لا ينبغي أن يدخلوا على الطعام بغير دعوة ، وإن تحقق الإذن . كما يشعر به قوله تعالى (غَيْرَ نَظِيرٍ إِنَّهُ) أى غير منتظرين وقته ، وإدراكه .

قال ابن كثير : أى لا ترقبوا الطعام إذا طبخ، حتى إذا قارب الاستواء تعرضتم للدخول. فإن هذا مما يكرهه الله ويذمه . وهذا دليل على تحريم التطفل . وهو الذى تسميه العرب الضيفن . وقد صنف الخطيب البغدادي في ذلك كتابا في ذم الطفيليين . وذكر من أخبارهم أشياء يطول إيرادها . انتهى .

وأقول : قد يكون معنى قوله (غَيْرَ نَظِيرٍ إِنَّهُ) نهيا لهم أن يدخلوا - مع كونهم مآذونا لهم ومدعوين - قبل الميعاد المضروب لهم حضورهم فيه ، عجلة وانتظارا لنضج الطعام.

فإن ذلك مما يؤدي قلب صاحب الدعوة ، لشغل هذه الحصة معهم بلا فائدة ، إلا ضيق صدر الداعي وأهله ، وشغل وقته وتوليد حديث ، وتكلفاً لكلام لا ضرورة له ، وإطالة زمن الحجاب على نسائه . وما ذلك إلا من شؤم التعجيل قبل الوقت . ولذلك قال تعالى « وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَأَدْخُلُوا » أي إذا دعيتم إلى الدخول في وقته . فادخلوا فيه لا قبله ولا بعده . ف(لكن) استدراك من النهي عن الدخول ، مع الإذن المطلق الذي هو الدعوة بتعليم أدب آخر . وإفادة شرط مهم ، وهو الإشارة إلى أن للدعوة حيناً ووقتاً يجب أن يراعى زمنه . وهذا النهي عنه لم يزل يرتكبه ثقلاء القرويين ومن شا كلهم من غلطاء المدنيين الذين لم يتأدبوا بأداب الكتاب الكريم والسنة المطهرة . وهو أنهم إذا دعوا لتناول طعام يتعجلون المحيى قبل وقته بساعات ، مما يغمر نفس الداعي وأهله . ويذهب لهم جانباً من عزيز وقتهم عبثاً إلا في سماع حديثهم البارد . وخدمتهم المستكرهة كما قدمنا . فعلى ما ذكرناه يكون في الآية فائدة جميلة ، وحكم مهم . وهو حظر المحيى قبل الوقت المقدّر . وحينئذ فلكمة (غير) حال ثانية من الفاعل مقيّدة للدخول المأذون فيه . وهو أن يكون وقت الدعوة ، لا قبله . والتقدير (إِلَّا مَاذُونِينَ فِي حَالِ كَوْنِكُمْ غَيْرِ نَاطِرِينَ إِنَاءً) ولذا قيل : إنها آية الثقلاء . إذا علمت هذا ، فالأجدر استنباط حظر التطفل من صدر الآية ، وهو (لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ) ومن قوله (وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَأَدْخُلُوا) لا من قوله (غَيْرِ نَاطِرِينَ إِنَاءً) لأنه في معنى خاص . وهو ما ذكرناه والله أعلم .

فائدة :

(الإنى) مصدر . يقال أنى الشيء يأنى أنياً بالفتح . و(أنى) مفتوحاً مقصوراً . (وإنى) بالكسر مقصوراً . أى حان وأدرك . قال عمرو بن حسان :

تَمَخَّضَتِ الْمُنُونُ لَهُ يَوْمَ أَنَّى وَلِكُلِّ حَامِلَةٍ تِمَامٌ

ثم أشار سبحانه إلى أدب آخر بقوله تعالى « فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا » أى تفرقوا ولا

تَمَكَّنُوا «وَلَا مُسْتَنْسِينَ لِحَدِيثٍ» أى لحديث بعضهم بمضا، أو لحديث أهل البيت بالسمع له . عطف على (ناظرين) أو مقدر بفعل . أى لا تمكثوا مستأنسين «إِنَّ ذَلِكُمْ» أى النهى عنه فى الآية «كَانَ يُؤْذَى النَّبِيُّ» أى لتضييق المنزل عليه وعلى أهله وإشغاله بما لا يعنيه «فَيَسْتَحْيِ مِنْكُمْ» أى من الإشارة إليكم بالانتشار «وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِ مِنْ أَحَدٍ» يعنى أن انتشاركم حق . فينبغى أن لا يترك حياء ، كما لا يترك الله ترك الحيى ، فأمركم به . ووضع الحق موضع الانتشار ، لتعظيم جانبه . وقرئ (لَا يَسْتَحْيِ) بحذف الياء الأولى وإلقاء حركتها على الحاء «وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ» الضمير لنساء النبى ، المدلول عليهن بذكر بيوته عليه السلام «مَتَمَّعًا» أى شيئاً يتمتع به «فَسَأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ» أى ستر «ذَلِكُمْ» أى ما ذكر من عدم الدخول بغير إذن ، وعدم الاستئناس للحديث عند الدخول ، وسؤال المتاع من وراء حجاب «أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ» أى من الخواطر الشيطانية ، فى الميل إليهن وإليكم . يعنى ويجب التطهر عنه ، لما فيه من إيذاء رسول الله ﷺ . ولذا قال «وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ» أى أن تفعلوا فعلاً يتأذى به فى حياته «وَلَا أَنْ تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ وَمَنْ كَبَّرَهُ» أى من بعد وفاته لا إلى انقضاء العدة بل «أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا» أى أمراً عظيماً وخطباً هائلاً ، لا يقادر قدره . لما فيه من هتك حرمة حبيبه صلى الله عليه وسلم .

قال أبو السعود : وفيه من تعظيمه تعالى لشأن رسوله صلى الله عليه وسلم ، وإيجاب حرمة حياتاً وميتاً ، مالا يخفى . ولذلك بالغ تعالى فى الوعيد حيث قال :
القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ تُخَفُّوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا)

«إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا» أى مما لا خير فيه ، كمنكاحهن على ألسنتكم ، على ما روى عن بعض الجفاة «أَوْ تُخَفُّوهُ» أى فى نفوسكم «فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا» أى فيجازيكم

بما صدر عنكم من المعاصي البادية والخافية لا محالة. وفي هذا التعميم مع البرهان على المقصود، مزيد تهويل وتشديد ومبالغة في الوعيد .

قال ابن كثير : أجمع العلماء قاطبة على أن من توفي عنها رسول الله ﷺ من أزواجه ، أنه يحرم على غيره تزوجها من بعده . لأنهن أزواجه في الدنيا والآخرة ، وأمهات المؤمنين . واختلفوا فيمن دخل بها ثم طلقها في حياته . هل يحل لغيره أن يتزوجها؟ على قولين . مأخذها هل دخلت هذه في عموم قوله (مِنْ بَعْدِهِ) أم لا ؟ فأما من تزوجها ثم طلقها قبل أن يدخل بها ، فما نعلم في حلها لغيره ، والحالة هذه نزاعا والله أعلم . انتهى .

تنبيه :

في (الإكمال) : هذه آية الحجاب التي أمر بها أمهات المؤمنين . بعد أن كان النساء لا يحتجبن . وفيها جواز سماع كلامهن ومخاطبتهن . وفيها تحريم أذى النبي صلى الله عليه وسلم بسائر وجوه الأذى . انتهى .

وقال ابن كثير : هذه آية الحجاب . وفيها أحكام ، وآداب شرعية . وهي مما وافق تنزيلها قول عمر رضي الله عنه ، كما روى البخاري^(١) عنه أنه قال : يا رسول الله ! يدخل عليك البر والفاجر . فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب ! فأنزل الله آية الحجاب .

وكان يقول لو أطاع فيكن ، ما رأته عينا .

وكان وقت نزولها في صبيحة عرس رسول الله صلى الله عليه وسلم بزينب بنت جحش ، التي تولى الله تزويجها بنفسه تعالى . وكان ذلك في ذى القعدة من السنة الخامسة (في قول قتادة والواقدي وغيرهما) وزعم أبو عبيدة ، معمر بن المثنى ، وخليفة بن خياط ؛ أن ذلك كان في سنة ثلاث . فאלله أعلم .

(١) أخرجه في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٣٣ - سورة الأحزاب ، ٨ - باب قوله لا تدخلوا

بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم ، حديث رقم ٢٦٧ .

وروى البخاري^(١) عن أنس قال: لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش، دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون. فإذا هو يتهيأ للقيام فلم يقوموا. فلما رأى ذلك قام. فلما قام، قام من قام وقعد ثلاثة نفر. فجاء النبي ﷺ ليدخل فإذا القوم جلوس. ثم إنهم قاموا فانطلقوا. فنجت فأخبرت النبي صلى الله عليه وسلم أنهم قد انطلقوا. فجاء حتى دخل. فذهبت أدخل، فألقى الحجاب بيني وبينه، فأنزل الله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ) الآية.

ورواه مسلم^(٢) أيضاً والنسائي.

وعن أنس أيضاً قال: بنى على النبي ﷺ زينب بنت جحش، بخبز ولحم. فأرسلت على الطعام داعياً. فيجىء قوم فيأكلون ويخرجون، ثم يجىء قوم فيأكلون ويخرجون فدعوت حتى ما أجد أحداً أَدْعُو. فقلت: يا رسول الله! ما أجد أحداً أَدْعُو. قال: ارفعوا طعامكم. وبقي ثلاثة رهط يتحدثون في البيت. فخرج النبي ﷺ، فانطلق إلى حجرة عائشة رضي الله عنها فقال: السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته. قالت: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته. كيف وجدت أهلك؟ يا رسول الله! بارك الله لك.

فتقرى حجب نساءه كلهن. يقول لهن كما يقول لعائشة، ويقولن له كما قالت عائشة. ثم رجع النبي ﷺ فإذا ثلاثة رهط في البيت يتحدثون. وكان النبي ﷺ شديد الحياء. فخرج منطلقاً نحو حجرة عائشة. فما أدرى أخبرته أو أخبر، أن القوم خرجوا. فرجع، حتى إذا وضع رجله في أسكفة الباب داخلة، والأخرى خارجة، أرخى الستر بيني وبينه، وأنزل آية الحجاب. انفرد به البخاري^(١).

وأخرج نحوه مسلم والترمذي. كما بسطه ابن كثير.

(١) أخرجه في: ٦٥ - كتاب التفسير، ٣٣ - سورة الأحزاب، ٨ - باب قوله لا تدخلوا

بيوت النبي ﷺ إلا أن يؤذن لكم، حديث رقم ٢٠٣٥

(٢) أخرجه في: ١٦ - كتاب النكاح، حديث ٨٧ م (طبعنا)

قال الحافظ ابن حجر في (الفتح): قال عياض: فرض الحجاب مما اختصصن به. فهو فرض عليهن بلا خلاف، في الوجه والكفين، فلا يجوز لهن كشف ذلك في شهادة ولا غيرها. ولا إظهار شخصتهن وإن كن مستترات، إلا مادعت إليه ضرورة من براز. ثم استدل بما في (الموطأ) أن حفصة لما توفي عمر سترها النساء عن أن يرى شخصها. وأن زينب بنت جحش جعلت لها القبة فوق نعشها يُستر شخصها. انتهى.

وليس فيما ذكره دليل على ما ادعاه من فرض ذلك عليهن. وقد كن بعد النبي ﷺ يحججن ويطنن. وكان الصحابة ومن بعدهم يسمعون منهن الحديث، وهن مستترات الأبدان لا الأشخاص. وقد تقدم في الحج قول ابن جريج لعطاء، لما ذكر له طواف عائشة: أقبل الحجاب أو بعده؟ قال قد أدركت ذلك بعد الحجاب. انتهى.

ومما يؤيده ما رواه البخاري^(١) في التفسير عن عائشة رضي الله عنها. قالت: خرجت سودة بعد ما ضرب الحجاب لحاجتها. وكانت امرأة جسيمة، لا تخفى على من يعرفها. فرآها عمر بن الخطاب. فقال: يا سودة! أما والله! ما تخفين علينا. فانظري كيف تخرجين.

قالت: فأنكفأت راجعة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتي، وإنه ليتعشى وفي يده عَرَقٌ، فدخلت فقالت: يا رسول الله! إني خرجت لبعض حاجتي، فقال لي عمر كذا وكذا. قالت فأوحى الله إليه ثم رفع عنه، وإن العَرَقَ في يده ما وضعه، فقال: إنه قد أذن لك أن تخرجن لحاجتك.

قال الكرماني: فإن قلت وقع هنا أنه كان بعد ما ضرب الحجاب وفي الوضوء - أي من البخاري - أنه كان قبل الحجاب. فالجواب لعله وقع مرتين.

(١) أخرجه في: ٦٥ - كتاب التفسير، ٣٣ - سورة الأحزاب، ٨ - باب قوله لا تدخلوا

بيوت النبي ﷺ إلا أن يؤذن لكم إلى طعام حديث رقم ١٢٣

قال ابن حجر : قلت بل المراد بالحجاب الأول غير الحجاب الثانى .
والحاصل أن عمر رضى الله عنه وقع فى قلبه نفرة من اطلاع الأجانب على الحرم النبوى ،
حتى صرح بقوله له عليه الصلاة والسلام : احجب نساءك ، وأكد ذلك إلى أن نزلت آية
الحجاب . ثم قصد بعد ذلك أن لا يبدن أشخاصهن أصلاً ، ولو كن مستترات ، فبالغ فى ذلك
فمنع منه ، وأذن لمن فى الخروج لحاجتهن ، دفعاً للمشقة ، ورفعاً للحرص ، انتهى بحروفه . وإنما
نقلنا الجمع بين الروایتين ، مع أن الأئمة به شرح الصحيح ، لما اتفق من نقل كثير من المفسرين
إحدى الروایتين ونقل آخرين الثانية ، مما يوقع الواقف فى شبهة الاختلاف ، فأثرنا توسيع
الكلام لتحقيق المقام . زادنا الله من فضله علماً ، إنه هو العليم العلام .
ثم بين تعالى من لا يجب الاحتجاب منهم من الأقارب ، بقوله :
القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيءِ آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا
إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ،
وَأُتِّينَ اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا)
«لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيءِ آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا
أَبْنَاءَ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ» أى لا حرج ولا إثم عليهن ، فى أن لا يحتجبن من هؤلاء
المسمين .

قال الطبرى^(١) : وعُنِي بِ(إِخْوَانِهِنَّ وَأَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ) إِخْوَتِهِنَّ . وَأَبْنَاءَ إِخْوَتِهِنَّ . وخرج
معهن جمع ذلك ، مخرج جمع فتى إذا جمع (فتيان) فكذلك جمع أخ إذا جمع (إخوان) وأما
إذا جمع إخوة فذلك نظير جمع فتى إذا جمع (فتية) .

(١) انظر الصفحة رقم ٤٢ من الجزء الثانى والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

تنبيهات

الأول - قيل : إنما لم يذكر العم والخال ، لأنهما بمنزلة الوالدين . ولذلك سمي العم أبا في قوله تعالى ^(١) (وَإِلَهُاءَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ) أولأنه اكتفى عن ذكرهما بذكر أبناء الإخوة ، وأبناء الأخوات . فإن مناط عدم لزوم الاحتجاب بينهما وبين الفريقين ، عين ما بينهما وبين العم والخال من العمومة والخوولة . لما أنهن عمات لأبناء الإخوة ، وخالات لأبناء الأخوات . وقيل : لأنه كره ترك الاحتجاب منهما ، مخافة أن يَصِفَاهُنَّ لأبنائهما .

وهو رأى عكرمة والشعبي . كما أخرجه الطبري ^(٢) من طريق داود بن أبي هند عن عكرمة والشعبي أنه قال لهما : ما شأن العم والخال لم يذكر ؟ قالا : لأنهما ينعتمانها لأبنائهما . وكرها أن تضع خمارها عند خالها وعمها .

قال الشهاب : لكنه قيل عليه ، إن هذه العلة ، وهو احتمال أن يَصِفَا لأبنائهما وهما يجوز لهما الزواج بها ، جار في النساء كلهن ، ممن لم يكن أمهات محارم . فينبغي التعويل على الأول . انتهى .

والتحقيق في رده ما رواه البخاري ^(٣) في التفسير من طريق عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت : استأذن علي أفلح أخو أبي القعيس ، بعد ما أنزل الحجاب ، فقلت : لا أذن له حتى استأذن فيه النبي صلى الله عليه وسلم . فإن أخاه أبا القعيس ليس هو أرضعني ، ولكن أرضعتني امرأة أبي القعيس . فدخل علي النبي صلى الله عليه وسلم ، فقلت له : يا رسول الله ! إن أفلح أخا أبي القعيس

(١) [٢ / البقرة / ١٣٣] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٤٢ من الجزء الثاني والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٣) أخرجه في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٣٣ - سورة الأحزاب ، ٩ - باب قوله إن

تبدوا شيئاً أو تخفوه ، حديث ١٢٨٣ .

استأذن . فأبيت أن آذن حتى أستاذنك، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : وما منعك أن تأذني؟ عمك . قلت : يا رسول الله ! إن الرجل ليس هو أرضعني ، ولكن أرضعتني امرأة أبي القعيس ، فقال : ائذني له فإنه عمك ، تربت يمينك .

قال عروة : فلذلك كانت عائشة تقول : حرّموا من الرضاعة ما تحرمون من النسب انتهى فبقوله صلى الله عليه وسلم ^(١) (ائذني له فإنه عمك) مع قوله في الحديث الآخر ^(٢) (العم صنو الأب) رد على عكرمة والشعبي .

الثاني - قيل : أريد بقوله تعالى (وَلَا نِسَاءَ بِهِنَّ) المسلمات ، حتى لا يجوز للكتبايات الدخول على أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل هو عام في المسلمات والكتبايات . وإنما قال (وَلَا نِسَاءَ بِهِنَّ) لأنهن من أجناسهن .

الثالث - استدل بعموم قوله تعالى (وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ) مَنْ ذهب إلى أن عبد المرأة محرم لها . وذهب قوم إلى أنه كالأجنبي . والآية مخصوصة بالإماء دون العبيد ، وتقدم تفصيل ذلك في سورة النور .

الرابع - قال السيوطي في (الإكليل) : استدل الحسن والحسين بعدم ذكر أبناء العمومة فيها ، على تحريم نظرهما إليهن ، فكانا لا يدخلان عليهن «وَأَتَقَيْنَ اللَّهَ» أي أن تتعدين ما حدث لكن ، فتبدين من زينتك ما ليس لكن ، أو تتركن الحجاب فيراكن أحد غير هؤلاء . وقال الرازي : أي واتقين عند الممالك . قال ، ففيه دليل على أن التكشف لهم مشروط بشرط السلامة والعلم بعدم المحذور . وقوله تعالى «إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا» أي فهو

(١) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٣٣ - سورة الأحزاب ، ٩ - باب

قوله إِنَّ تَبْدُوا شَيْئًا أَوْ تَخْفُوهُ ، حديث رقم ١٢٨٣ .

وأخرجه مسلم في : ١٧ - كتاب الرضاع ، حديث ٣-٦ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه مسلم في : ١٢ - كتاب الزكاة ، حديث رقم ١١ (طبعتنا) .

شاهد على ماتعملنه من احتجابكن وترككن الحجاب لمن أبيض لكن تركه ، وغير ذلك من أموركن ، فاحذرن أن تلقينه . وهو شاهد عليكم بمعصيته وخلاف أمره ونهيه فتهلكن . قال الرازى : هذا التذيل فى غاية الحسن فى هذا الموضع ، لأن ماسبق إشارة إلى جواز الخلوة بهم والتكشف لهم ، فقال : إن الله شاهد عند اختلاء بعضهم ببعض . نخلوتكم مثل ملتكم بشهادة الله تعالى فاتقوا . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا)

« إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » قال الرازى : لما أمر الله المؤمنين بالاستئذان وعدم النظر إلى وجوه نساءه احتراماً ، كمل بيان حرمة . وذلك لأن حالته منحصرة فى اثنتين : حالة خلوته وذكر مايدل على احترامه فى تلك الحالة بقوله ^(١) (لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ) وحالة يكون فى ملا . والملا إما الملا الأعلى وإما الملا الأدنى ، أما فى الملا الأعلى فهو محترم . فإن الله وملائكته يصلون عليه . وأما فى الملا الأدنى فذلك واجب الاحترام بقوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) انتهى .

وقد روى البخارى ^(٢) عن أبى العالمة قال : صلاة الله : ثناؤه عليه عند الملائكة . وصلاة الملائكة الدعاء . وقال ابن عباس : يصلون يُبرِّكون . اهـ . أى يدعون له بالبركة . فيوافق قول

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٥٣] .

(٢) أخرجه البخارى فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٣٣ - سورة الأحزاب ، ١٠ - باب إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ .

أبي المالقة، لكنه أخص منه. وبالجملة، فالصلاة تكون بمعنى التمجيد والدعاء والرحمة، على حسب ما أضيفت إليه في التنزيل أو الأثر. وقد أطنب الإمام ابن القيم في (جلاء الأفهام) في مبحث معنى الصلاة، وأطال فأطاب. فليُنظر.

وفي البخاري^(١) عن كعب بن عجرة رضى الله عنه، أنه قيل: يا رسول الله! أما السلام عليك فقد عرفناه. فكيف الصلاة عليك؟ قال: قولوا: اللهم! صلى على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد. اللهم! بارك على آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

وروى الإمام أحمد^(٢) وأبو داود والنسائي وابن خزيمة وابن حبان والحاكم في مستدركه، عن أبي مسعود البدرى: أنهم قالوا: يا رسول الله! أما السلام فقد عرفناه. فكيف نصلي عليك إذا نحن صلينا في صلاتنا؟ فقال: قولوا: اللهم! صل على محمد وعلى آل محمد. وذكره. ورواه الشافعى في مسنده عن أبي هريرة بمثله.

ومن ههنا ذهب الشافعى رحمه الله، إلى أنه يجب على المصلى أن يصلى على رسول الله صلى الله عليه وسلم في التشهد الأخير. فإن تركه لم تصح صلاته. ووافقه الإمام أحمد في رواية. وقال به إسحق ابن راهويه والإمام ابن المواز المالكى وغيرهم. كما بسطه ابن القيم في (جلاء الأفهام) وابن كثير في (التفسير) وقد تقصّياً، عليهما الرحمة، أيضاً الروايات في الأمر بالصلاة وكيفيتها. فأوسعاً. فليرجع إليهما.

تنبيهات :

الأول - تدل الآية على وجوب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم مطلقاً. لأن الأصل في الأمر للوجوب. فذهب قوم إلى وجوبها في المجلس مرة. ثم لا تجب في بقية ذلك المجلس.

(١) أخرجه البخارى في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٣٣ - سورة الأحزاب ، ١٠ - باب

إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ، حديث رقم ١٥٩١ .

(٢) انظر الصفحة رقم ١١٨ من الجزء الرابع من المسند (طبعة الحلبي) .

وآخرون إلى وجوبها في العمر مرة واحدة. ثم هي مستحبة في كل حال. وآخرون إلى وجوبها كلها ذكر. وبعضهم إلى أن محل الآية على الندب. قال ابن كثير: وهذا قول غريب. فإنه قد ورد الأمر بالصلاة عليه في أوقات كثيرة. فمنها واجب ومنها مستحب على ما نبينه. فمنه بعد النداء للصلاة، لحديث^(١) (إذا سمعتم مؤذنا فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا على) الحديث ومنه عند دخول المسجد لحديث^(٢) (كان صلى الله عليه وسلم إذا دخل المسجد صلى على محمد وسلم. ثم قال: اللهم! اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك. وإذا خرج صلى على محمد وسلم. ثم قال: اللهم! اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب فضلك. ومنه الصلاة، فتستحب على قول الشافعي في التشهد الأول منها، وتجب في الثاني. ومنه في صلاة الجنازة بعد التكبيرة الثانية، لقول أبي أمامة: من السنة ذلك. وهذا من الصحابي في حكم الرفوع، على الصحيح. ومنه ختم الدعاء. فيستحب الصلاة فيه على النبي ﷺ، ومن أكد ذلك دعاء القنوت. ومنه يوم الجمعة وليلتها. فيستحب الإكثار منها فيهما، ومنه في خطبة يوم الجمعة. يجب على الخطيب في الخطبتين الإتيان بها. وهو مذهب الشافعي وأحمد. ومنه عند زيارة قبره ﷺ لحديث (ما من أحد يسلم على إلا رد الله عليّ روحه حتى أرد عليه السلام) تفرد به أبو داود^(٣) وصححه النووي في (الأذكار). وعن الحسن بن الحسن بن علي: أنه رأى قوما عند القبر فنهاهم وقال: إن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لا تتخذوا قبري عيداً. ولا تتخذوا بيوتكم قبوراً. وصلوا علىّ حينما كنتم. فإن صلاتكم تبلغني.

قال ابن كثير: فلعله رأيهم يسيئون الأدب برفع أصواتهم فوق الحاجة، فنهاهم. وقد

(١) أخرجه البخاري في: ١٠ - كتاب الأذان، ٧ - باب ما يقول إذا سمع المنادي،

حديث ٣٩٠، عن أبي سعيد الخدري.

(٢) أخرجه الترمذي في: ٢ - كتاب الصلاة، ١١٧ - باب ما جاء ما يقول عند دخول

المسجد، حديث ٣١٤.

(٣) أخرجه في: ١١ - كتاب المناسك، ٩٦ - باب في زيارة القبور، حديث ٢٠٤١

روى أنه رأى رجلاً ينتاب القبر . فقال : يا هذا ! ما أنت ورجل بالأندلس ، منه إلا سواء .
أى الجميع يبلغه صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين . وقد استحسب أهل الكتابة
أن يكرر للمكاتب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم كلما كتبته . وقد روى فى حديث (من)
صلى علىّ فى كتاب لم تزل الصلاة جارية له ، مادام اسمى فى ذلك الكتاب) .

قال الحافظ ابن كثير : وليس هذا الحديث بصحيح . بل عدّه الحافظ الذهبيّ موضوعاً .
وقد ذكر الخطيب البغداديّ أنه رأى بخط الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله ، كثيراً اسم النبيّ
ﷺ من غير ذكر الصلاة عليه كتابة . قال : وبلغنى أنه كان يصلى عليه لفظاً .

الثانى - الصلاة على غير الأنبياء ، إن كانت على سبيل التبعية ، كنحو : اللهم صل على
محمد وآله وأزواجه ، فهذا جائز إجماعاً . وأما استقلالاً فجوزّه قوم لآية^(١) (هُوَ الَّذِي يُصَلِّي
عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ) وآية^(٢) (أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ) وآية^(٣) (خُذْ مِنْ
أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ) ولحديث^(٤) (كان ﷺ إذا أتاه
قوم بصدقتهم قال : اللهم ! صل عليهم . فأتاه أبو أوفى بصدقته فقال : اللهم ! صل على آل أبي أوفى .
وكرهه قوم ، لكون صيغة الصلاة صارت شعاراً للأنبياء إذا ذكروا . فلا يلحق بهم غيرهم .
فلا يقال : قال عمر صلى الله عليه . كما لا يقال قال محمد عز وجل . وإن كان عزيزاً جليلاً .
لكون هذا من شعار ذكر الله عز وجل . وحملوا ما ورد من ذلك فى الكتاب والسنة على
الدعاء لهم .

وقال ابن حجر : إن ذلك وقع من الشارع . ولصاحب الحق أن يتفضل من حقه بما شاء
وليس لغيره أن يتصرف إلا بإذنه . ولم يثبت عنه إذن فى ذلك . انتهى .

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٤٣] . (٢) [٢ / البقرة / ١٥٧] .

(٣) [٩ / التوبة / ١٠٣] .

(٤) أخرجه البخاريّ فى : ٢٤ - كتاب الزكاة ، ٦٤ - باب صلاة الإمام ودعائه لصاحب

الصدقة ، حديث ٨٠٠ ، عن عبد الله بن أبي أوفى .

وقد يقال : كفى في المروى المأثور المتقدم إذناً .

والاستدلال بأن ذلك من حتمه فيه مصادرة على المطلوب . على أن المرجح أن الأصل الإباحة حتى يرد الحظر . ولا حظر هنا . فتدبر .

وأما السلام ، فقال الجويني : هو في معنى الصلاة . فلا يستعمل في الغائب . ولا يفرد به غير الأنبياء . فلا يقال : على عليه السلام . وسواء في هذا الأحياء والأموات . وأما الحاضر فيخاطب به . فيقال : سلام عليك ، وسلام عليكم . أو السلام عليك أو عليكم . وقد غلب - كما قال ابن كثير - على كثير من النساخ للكتب ، أن يفرد على رضى الله عنه بأن يقال (عليه السلام) من دون سائر الصحابة .

قال : والتسوية بينهم في ذلك أولى . انتهى .

والخطب سهل . ومن رأى المروى في هذا الباب ، علم أن الأمر أوسع من أن يخرج فيه . على أن هذه المسألة من فروع تخصيص العرف ، وفيه بحث في الأصول .

الثالث - قال النووي : إذا صلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، فليجمع بين الصلاة والتسليم . فلا يقتصر على أحدهما . فلا يقول (صلى الله عليه) فقط . ولا (عليه السلام) فقط .

قال ابن كثير : وهذا الذي قاله منتزع من هذه الآية الكريمة وهي قوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) فالأولى أن يقال صلى الله عليه وسلم تسليماً . انتهى .

الرابع - قال الرازي : إذا صلى الله وملائكته عليه ، فأى حاجة إلى صلاتنا ؟ نقول : الصلاة عليه ليس لحاجته إليها . وإلا فلا حاجة إلى صلاة الملائكة مع صلاة الله عليه . وإنما هو لإظهار تعظيمه كما أن الله تعالى أوجب علينا ذكر نفسه ، ولا حاجة له إليه . وإنما هو لإظهار تعظيمه منا ، رحمة بنا ، ليثيبنا عليه . ولهذا جاء في الحديث (من صلى على مرة ، صلى الله عليه بها عشرة) . انتهى .

وكان سبق لى ، من أيام معدودات أن كتبت في مقدمة مجموعة الخطب في سر الصلاة عليه ، ماثله : ويسن يوم الجمعة إكثار الصلاة على النبي ﷺ . ليدكر الرحمة ببعثته ، والفضل بهدايته

والمنة باقتفاء هديه وسنته ، والصالح الأعظم برسائله ، والجهد للحق بسيرته ، ومكارم الأخلاق بحكمته ، وسعادة الدارين بدعوته ، صلى الله عليه وسلم وعلى آله . ما ذاق عارف سرَّ شريعته . وأشرق ضياء الحق على بصيرته ، فسعد في دنياه وآخرته .

الخامس - قال الرازي : ذكر (تسليماً) للتأكيد ليكمل السلام عليه . ولم يؤكد الصلاة بهذا التأكيد ، لأنها كانت مؤكدة بقوله (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتُهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ) انتهى . وقيل : إنه من الاحتباك . فحذف (عليه) من أحدهما . و (المصدر) من الآخر . قال القاضي : قيل معنى (وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) أى انقادوا لأوامره . فالسلام من التسليم والانقياد .

السادس - قال الحافظ ابن حجر في (الفتح) : سئلت عن إضافة الصلاة إلى الله دون السلام ، وأمر المؤمنين بها وبالسلام ، فقلت : يحتمل أن يكون السلام له معنيان : التحية والانقياد . فأمر به المؤمنون لصحتهما منهم . والله وملائكته لا يجوز منهم الانقياد ، فلم يضاف إليهم ، دفعا للإيهام . والعلم عند الله . انتهى .

وقال الشهاب : قد لاح لي في تخصيص السلام بالمؤمنين دون الله وملائكته ، نكتة سرية . وهى أن السلام تسليمه عما يؤذيه . فلما جاءت هذه الآية عقيب ذكر ما يؤذى النبى صلى الله عليه وسلم ، والأذية إنما هى من البشر وقد صدرت منهم ، فناسب تخصيص بهم والتأكيد . انتهى .

ولما أمر تعالى بالصلاة على نبيه صلى الله عليه وسلم التى هى الثناء عليه وتمجيده وتعظيمه ، بين وعيد من لا رعاها ، بأن يجرؤ على ضدها بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا)

« إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا » أى ينالون فيه الهوان والخزى . والمقصود من الآية الرسول ﷺ . وذكر الله تعالى إنما هو لتعظيمه ، ببيان قرب ، وكونه حبيبه ، حتى كأن ما يؤذيه يؤذيه . كما أن من يطعمه يطعم الله . وقد روى^(١) الطبري عن ابن عباس ؛ أنها نزلت في الذين طعنوا على النبي ﷺ ، حين اتخذ صفية بنت حيي . وهذا في الحقيقة من أفراد ما تشمله الآية . بل لو قيل إنها عني بها من خاض في مسألة زينب ، لكان أقرب ، لتقارب الآيات في الباب الواحد ، وتناسقها كسلسلة واحدة ، في تلك المسألة التي كانت المقصود الأعظم من السورة بتمامها . كما لا يخفى على من تدبرها . وبالجملة ، فاللفظ عام في كل ما يصاب به ﷺ من أنواع المكروه . فيدخل المقصود من التنزيل دخولا أولياً . وعلى هذا ، فلاذية على حقيقتها . وقيل المراد بأذية الله ورسوله ، ارتكاب ما لا يرضيانه ، مجازاً مرسلًا . لأنه سبب ، أو لازم له . وإن كان بالنسبة إلى غيره ، فإنه كان في العلاقة وذكر الله والرسول على ظاهره . ومن جوز إطلاق اللفظ الواحد على معنيين ، كاستعمال اللفظ المشترك في معنیه ، أو في حقيقته ومجازه ، فسر الأذية بالمعنيين باعتبار المعمولين . فتكون بالنسبة إليه تعالى ، ارتكاب ما يكره مجازاً ، وإلى الرسول على ظاهره . فإن تعدد المعمول بمنزلة تكرار لفظ العامل . فيجىء فيه الجمع بين المعنيين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا كُتِبَ لَهُمْ فَقَدْ أَحْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا)

« وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ » أى يقول أوفعل « بَغَيْرِ مَا كُتِبَ لَهُمْ » أى بغير جنابة يستحقون بها الأذية « فَقَدْ أَحْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا » أى ظاهراً بئناً .

(١) انظر الصفحة رقم ٤٥ من الجزء الثانى والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

قال الزمخشريّ : أطلق إيذاء الله ورسوله ، وقيد إيذاء المؤمنين والمؤمنات ، لأن أذى الله ورسوله لا يكون إلا غير حق أبداً . وأما أذى المؤمنين والمؤمنات ، فمنه ومنه .

تنبيه :

في (الإكليل) : في هذه الآية تحريم أذى المسلم ، إلا بوجه شرعيّ . كالمعاقبة على ذنب . ويدخل في الآية كل ما حرم للإيذاء . كالبيع على بيع غيره ، والسوم على سومه ، والخطبة على خطبته . وقد نص الشافعيّ على تحريم أكل الإنسان مما يلي غيره ، إذا اشتمل على إيذاء .

وأخرج ابن أبي حاتم من حديث عائشة مرفوعاً (أرأيت الربا عند الله ، استحلال عرض امرئ مسلم) ثم قرأ هذه الآية . وأخرج عن قتادة في هذه الآية : إياكم وأذى المؤمن ، فإن الله يحوطه ويفضبه له . وقد زعموا أن عمر بن الخطاب قرأها ذات يوم ، فأفرغه ذلك . حتى ذهب إلى أبي بن كعب . فدخل عليه فقال : يا أبا المنذر ! إني قرأت آية من كتاب الله فوقعت مني كل موقع (وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ) الآية . والله ! إني لأعاقبهم وأضربهم . فقال له : إنك لست منهم . إنما أنت مؤدّب ، إنما أنت معلّم . انتهى .

قال الزمخشريّ : وعن الفضيل : لا يحل لك أن تؤذي كلباً أو خنزيراً بغير حق ، فكيف ؟

وكان ابن عون لا يكرى الحوانيت إلا من أهل الذمة ، لما فيه من الروعة عند كرك الحول . فرحمه الله ورضى عنه .

ولما بين تعالى سوء حال المؤذنين ، زجرًا لهم عن الإيذاء ، أمر النبيّ عليه الصلاة والسلام بأن يأمر بعض المتأذنين منهم ، بما يدفع إيذاءهم في الجملة من الستر والتميز ، عن مواقع الإيذاء ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ، ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا) « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ » جمع (جلباب) كسرداب ، وهو الرداء فوق الخمار ، تنغطى به المرأة . وهو معنى قول بعضهم : جلبابها ملاءتها تشتمل بها . وقيل هو الخمار . قالت (١) جنوب أخت عمرو ذى الكلب ترثيه :

تمشى النسور إليه وهى لاهية مَشَى الْعَذَارَى، عليهن الْجَلَالِبُ
وقال آخر (٢) يصف الشيب :

حَتَّى اكْتَسَى الرَّاسُ قِنَاعًا أَشْهَبَا أَكْرَهَ جَلَبَابٍ لِمَنْ تَجَلَبَبَا

وقال الزمخشري : الجلباب ثوب واسع ، أوسع من الخمار ، ودون الرداء . تلويه المرأة على رأسها ويبقى منه ما ترسله على صدرها . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : الرداء الذى يستر من فوق إلى أسفل . ثم قال : ومعنى (يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ) يرخينها عليهن ويفطين بها وجوههن وأعطافهن . يقال إذا زلّ عن وجه المرأة : أدنى ثوبك على وجهك . وذلك أن النساء كن فى أول الإسلام على هجّيراهن فى الجاهلية متبدلات ، تبرز المرأة فى درع وخمار ، لافضل بين الحرة والأمة . وكان الفتيان وأهل الشطارة (٣) يتعرضون للإماء إذا خرجن بالليل ، إلى مقاضى حوائجهن فى النخيل والغيطان . وربما تعرضوا للحرة بعلة الأمة . يقولون حسبناها أمة . فأمرن أن يخالفن بزهن عن زى الإماء ، بلبس الأردية والملاحف وستر الرؤوس والوجوه

(١) استشهد فى اللسان بالصفحة رقم ٢٧٢ من المجلد الأول (طبعة بيروت)

(٢) استشهد فى اللسان بالصفحة رقم ٢٧٣ من المجلد الأول (طبعة بيروت)

(٣) الشاطر : من أعبى أهله ومؤدبه خبثا ومكرا . مولدة ، كما فى القاموس وشرحه .

ليحتشمن ويهين ، فلا يطمع فيهن طامع ، وذلك قوله « ذَلِكْ أَذْنَىٰ أَنْ يُعْرِفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ »
أى أولى وأجدر بأن يعرفن أنهم حرائر ، فلا يتعرض لهن ولا يلتقن ما يكرهن . ثم قال الرخشرى :
فإن قلت : مامعنى (من) فى (من جلابيهن) قلت : هو للتبعيض . إلا أن معنى التبعيض محتمل
وجهين : أحدهما - أن يتجلبن ببعض ما لهن من الجلابيب . والمراد أن لا تكون الحرة متبذلة
فى درع وخمار كالأمة والمأهنة ، ولها جلبابان فصاعدا فى بيتها . والثانى - أن ترحى المرأة بعض
جلبابها وفضله على وجهها ، لتتقنع حتى تتميز من الأمة . انتهى .

ومن الآثار فى الآية ، مارواه الطبرى^(١) عن ابن عباس قال : أمر الله نساء المؤمنين إذا
خرجن من بيوتهن فى حاجة ، أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب ، ويدين
عيننا واحدة . وأخرج ابن أبى حاتم عن أم سلمة قالت : لما نزلت هذه الآية (يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ
مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ) خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان ، من السكينة . وعليهن أكسية
سود يلبسهنها . وأخرج عن يونس بن يزيد أنه سأل الزهري : هل على الوليدة خمار ، متزوجة أو
غير متزوجة ؟ قال : عليها الخمار إن كانت متزوجة ، ونهى عن الجلباب . لأنه يكره لهن أن
يتشبهن بالحرائر المحصنات .

تنبيهات :

الأول - قال ابن كثير : روى عن سفيان الثورى أنه قال : لا بأس بالنظر إلى زينة
نساء أهل الذمة . وإنما نهى عن ذلك لخوف الفتنة ، لا لحرمتهم . واستدل بقوله تعالى
(وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ) . انتهى .

الثانى - قال السبكي (طبقاته) : استنبط أحمد بن عيسى ، من فقهاء الشافعية ، من هذه الآية
أن ما يفعله العلماء والسادات ، من تغيير لباسهم وعمائمهم ، أمر حسن . وإن لم يفعله السلف .
لأن فيه تمييزاً لهم حتى يعرفوا ، فيعمل بأقوالهم . انتهى .

(١) انظر الصفحة رقم ٤٦ من الجزء الثانى والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

الثالث - قال الشهاب : قوله تعالى (يَدْخِلُونَ) يحتمل أن يكون مقول القول . وهو خبر بمعنى الأمر ، أو جواب الأمر ، على حد^(١) (قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ) انتهى « وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا » أى لما سلف منهم من التفريط « رَحِيمًا » أى بعباده ، حيث يراعى مصالحهم حتى الجزئيات منها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُتَفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُحَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا)
[٦١] (مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا قَتِيلًا)

« لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُتَفِقُونَ » أى عن تفاقمهم « وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ » أى ضعف إيمان ، عن مراودة النساء بالفجور « وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ » أى بأخبار السوء اللاتى يفترونها وينشرونها . كجسء عدو وانهازم سرية . وهكذا مما يكسرون به قلوب المؤمنين . وأصله التحريك . من (الرجة) وهى الزلزلة . يسمى به الخبر المفتري ، لكونه خبرا متزلزلا غير ثابت . أو لاضطراب قلوب المؤمنين به « لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ » أى لنسلطنك عليهم بما يضطرهم إلى الجلاء « ثُمَّ لَا يُحَاوِرُونَكَ فِيهَا » أى فى المدينة من قوة بأسك عليهم « إِلَّا قَلِيلًا » أى زمنا قليلا ريثما يستعدون للرحلة « مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا » أى مبغضين لله وللخلق . لا يستريحون بالخروج . للصوق اللعنة بهم أينما وجدوا . « أُخِذُوا وَقُتِلُوا قَتِيلًا » أى أسروا وبولغ فى قتلهم لذلتهم وقتلتهم . ثم أشار تعالى إلى أن ذلك ليس ببدع ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا)
« سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ » أى فى المفتريين والمؤذين الذين مضوا ، إذا

تَمَرَّدُوا عَلَى نِفَاقِهِمْ وَكَفَرُوا وَلَمْ يَرْجِعُوا ، أَنْ يَسْلُطَ عَلَيْهِمْ أَهْلُ الْإِيمَانِ فَيَقْمَهُرُونَهُمْ . «وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا» أَيْ لِأَنَّهُ لَا يَبْدِلُهَا ، أَوْ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَبْدِلَهَا .

تنبيهات :

الأول - قال الشهاب : إما أن يراد بالمنافقين والمراض والمرجفين ، قوم مخصوصون ، ويكون العطف لتغاير الصفات مع اتحاد الذات ، على حدّ (إلى الملك القرم وابن الهمام) أو يراد بهم أقوام مختلفون في الذوات والصفات . فعلى الأول ، تكون الأوصاف الثلاثة للمنافقين . وهو الموافق لما عرف من وصفهم بالذين في قلوبهم مرض ، كما مرّ في البقرة . والأراجيف بالمدينة أكثرها منهم . لكنه لا يوافق ما ذيل به من الوعيد بالإجلاء والقتل . فإنه لم يقع للمنافقين . وعلى الثاني ، هم المنافقون وقوم ضعاف الدين . كأهل الفجور . والمرجفون اليهود الذين كانوا مجاورين لهم بالمدينة . وقد وقع القتال والإجلاء لمن لم ينته منهم . وهم اليهود . انتهى .

الثاني - ذكروا أن معنى قوله تعالى (اخذُوا وَقْتِلُوا تَقْتِيلًا) أنهم إذا خرجوا لا ينفكّون عن المذات ، ولا يجدون ملجأ . بل أينما يكونون ، يطلبون ويؤخذون ويقتلون . وعليه ، فالجملة خبرية . وانظر هل من مانع أن تكون الجملة دعائية كقوله ^(١) (عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ) وقوله ^(٢) (وَيَلْزَمُ كُلَّ هَمَزَةٍ لُحْزَةٍ) كأنه قيل : أخذهم الله . أى أهلكهم وقتلهم أبلغ قتل وأشدّه . ولم أر أحداً تعرّض له . وقد أفاد ابن عطية ، أن كل ما كان بلفظ الدعاء من الله تعالى ، فإنما هو بمعنى إيجاب الشيء . لأن الله لا يدعو على مخلوقاته وهى في قبضته ، أى لاستحالة حقيقة الدعاء وهو الطلب من الغير .

الثالث - فى (الإكليل) : فى الآية تحريم الأذى بالإرجاف . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّي

(١) [٩ / التوبة / ٩٨] و [٤٨ / الفتح / ٦] .

(٢) [١٠٤ / الهمزة / ١] .

في قوله: (وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ) هم قوم كانوا يجلسون على الطريق ، يكابرون المرأة مكابرة. فنزلت فيهم الآية إلى قوله (أُخِذُوا وَقَتِلُوا تَقْتِيلًا) قال : هذا حكم في القرآن ، ليس يعمل به ، لو أن رجلا أو أكثر من ذلك اقتصوا أثر امرأة فغلبوها على نفسها ففجروا بها، كان الحكم فيهم غير الجلد والرجم ، أن يؤخذوا فتضرب أعناقهم . انتهى .

وهذا وقوف مع وجه تحتمله الآية . كما قدمنا . على أن للحاكم أن يفعل ذلك ، إذا رأى في ذلك مصلحة ودرء مفسدة . على قاعدة رعاية المصالح التي هي أم الباب . كما بسط ذلك النجم الطوفاني في (رسالته) وأيدناه بما علقناه عليها .

الرابع - كتب الناصر في (الاتصاف) على قول الكشف في قوله (إِلَّا قَلِيلًا) أي زمنا قليلا ربما يرتحلون ويتلقطون أنفسهم وعيالاتهم، مأماله : فيها إشارة إلى أن من توجه عليه إخلاء منزل مملوك للغير بوجه شرعي ، يمهل ربما ينتقل بنفسه ومتاعه وعياله برهة من الزمان حتى يتحصل له منزل آخر ، على حسب الاجتهاد . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا)

«يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا» أي يسألونك عن وقت قيامها . وكان المشركون في مكة يسألونه صلى الله عليه وسلم ، عنها استعجالاً على سبيل الهزء . وكذلك اليهود في المدينة أو غيرهم . لأن هذه السورة مدنية ، وقد أرشده تعالى أن يردّ علمها إليه لاستثناؤه تعالى به . فلم يطلع عليه نبيا ولا ملكا ، وأن يبين لهم أنها قريبة الوقوع ، تهديدا للمستعجلين وإسكاتا للممتحنين .

لطيفة :

تذكير (قريبا) باعتبار موصوفه ، الخبر ، أي شيئا قريبا . أو لأن الساعة في معنى اليوم

أو الوقت . أو أن (قريباً) ظرف منصوب على الظرفية ، فإن (قريباً) و (بعيداً) يكونان ظرفين . فليس صفة مشتقة ، حتى تجرى عليه أحكام التذكير والتأنيث .

قال أبو السعود : والإظهار في حيز الإضمار ، للتهويل وزيادة التقرير . وتأكيده استقلال الجملة . يعنى أن قوله (وَمَا يُدْرِيكَ) خطاب مستقل له عليه السلام ، غير داخل تحت الأمر ، مسوق لبيان أنها مع كونها غير معلومة للخلق ، مرجوة المجرى عن قريب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا)

[٦٥] (خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا)

[٦٦] (يَوْمَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ)

« إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ » أى أبعدهم من رحمته « وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا » أى ناراً شديدة الانتقاد فى الآخرة « خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا » أى حافظاً يتولاهم « وَلَا نَصِيرًا » أى يخلصهم « يَوْمَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ » أى تصرف من جهة إلى جهة ، تشبيهه بقطعة لحم فى قدر تغلى . ترى بها الغليان من جهة إلى جهة . أو المعنى : من حال إلى حال . فالمراد تغيير هيئاتها من سواد وتقديد وغيره .

قال الزمخشري : وخصت الوجوه بالذكر ، لأن الوجه أكرم موضع على الإنسان من جسده ، ويجوز أن يكون الوجه عبارة عن الجملة . وناسب الظرف (يقولون) أو (اذكر) أو (لا يجدون) أو (خالدين) أو (نصيراً) « يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ » أى فكنا ننجو من هذا العذاب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا)

[٦٨] (رَبَّنَا إِنَّهُمْ ضَعِيفِينَ مِنَ الْعَذَابِ لَعْنًا كَبِيرًا)

[٦٩] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَاذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ

مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا)

«وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا» وهم رؤساء الكفر الذين لقنوهم الكفر وزينوه لهم حتى قلدوهم فيه «فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا» أى بما زينوه لنا . قال الزمخشري : وزيادة الألف لإطلاق الصوت جعلت فواصل الآى كقوافي الشعر ، وفائدتها الوقف والدلالة على أن الكلام قد انقطع ، وأن ما بعده مستأنف «رَبَّنَا إِنَّهُمْ ضَعِيفِينَ مِنَ الْعَذَابِ» أى مثلى العذاب الذى آتيتناه ، لأنهم ضلوا وأضلوا «وَالْعَنَهُمُ لَعْنًا كَبِيرًا» أى لعنا هو أشد اللعن وأعظمه . وقرئ (كثيرا) تكثيرا لأعداد اللعائن «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَاذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ» مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا» لما بين تعالى وعيد من يؤذى نبيه ﷺ ، من استحقاقه اللعنة فى الدارين ، تعريضا بمن صدر منهم شيء من الأذى فى قصة زيد وزينب ، التى سيقت السورة لأجلها ، ختمها أيضا بالوصية بالتباعد عن التشبه بقوم صدر منهم إيذاء لموسى عليه السلام ، بتنقصه تارة ، وقلة الأدب معه طورا ، ونسبته إلى ما ينافى الرسالة آونة . كما يمر كثير من ذلك بقارئى توراتهم . مما ينبئ عن عدم إيفائهم رسالته ونبوته حقها ، من التعظيم له والصلاة عليه والتسليم لأمره وقضيته . فكانت النتيجة أن غضب الله عليهم ورامهم بأفانين العقوبات ، ولحقهم الخازى ، وبرأ رسوله موسى عليه السلام من إفكهم ، ونزه مقامه عن تنقيصهم ، بأن حقق فضله ، وأسمى منزلته ، وآتاه الوجهة - وهى العظمة والقرب - عنده . وهكذا حقت كلمة اللعنة والخزى على مؤذى رسول الله ﷺ ،

ولحقهم الدمار ، وشرح لنبيه صدره، ورفع له ذكره، وأعلى منزلته، ونغم وجاهته ، ماتعاقبت الأدوار. ويقرب من هذه الآية، في المعنى والإشارة، قوله تعالى ^(١) (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَفْقَهُمْ لِمَ تُوذَوْنَ بِنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ، فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاعَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) وفيهما كليهما تسليمة للنبي ﷺ بتأسيه بأخيه موسى صلوات الله وسلامه عليهما . وكثيرا ما كان يقول ﷺ في جواب جفاة الأعراب حين ما يبلغه أو يسمع ما يكره : رحمة الله على موسى . لقد أودى بأكثر من هذا فصبر .

وقد روى المفسرون ههنا آثارا. أحسنها ما أخرجه البزار عن أنس مرفوعا : كان موسى رجلا حبيبا. وأنه أتى الماء ليغتسل . فوضع ثيابه على صخرة. وكان لا يكاد تبدو عورته. فقال بنو إسرائيل إن موسى آدر ^(٢) أوبه آفة . يعنون أنه لا يضع ثيابه . فاحتملت الصخرة ثيابه حتى صارت بجذاء بني إسرائيل . فنظروا إلى موسى كأحسن الرجال . أو كما قال . فذلك قوله (فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً) ورواه ^(٣) البخاري في صحيحه عن أبي هريرة أيضا .

قال الرازي : وحديث إيداء موسى مختلف فيه - أي لسكثرة الروايات فيه - مع أن الإيداء المذكور في القرآن كاف كقولهم ^(٤) (فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَعَلَا) وقولهم ^(٥) (إِنْ نُؤْمِنُكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً) وقولهم ^(٦) (إِنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ) إلى غير ذلك . فقال للمؤمنين : لا تكونوا أمثالهم . انتهى .

(١) [٦١ / الصف / ٥] .

(٢) أي به أدرة ، بضم فسكون ، وهي انتفاخ الخصيتين وكبرها جدا

(٣) أخرجه البخاري في : ٥ - كتاب الغسل ، ٢٠ - باب من اغتسل عريانا وحده

في الخلوة ، حديث رقم ٢٠١

(٤) [٥ / المائة / ٢٤] . (٥) [٢ / البقرة / ٥٥]

(٦) [٢ / البقرة / ٦١] .

وقال ابن كثير: يحتمل أن يكون كل ما روى مراداً. وأن يكون معه غيره . انتهى . أى لعموم المعمول المحذوف . وما بيناه أولاً ، هو الأقرب . والله أعلم .

تنبيهات :

الأول - (الوجيه) لغة بمعنى السيد ، كالوجه . يقال : هؤلاء وجوه البلد ووجهاؤه . أى أشرفه . وبمعنى ذى الجاه والجاه القدر والمنزلة . مقلوب عن (وجه) فلما أخرجت (الواو) إلى موضع (العين) وصارت جَوَّهاً ، قلبت (الواو) ألفاً . فصارت (جاهاً) . كذا فى القاموس وشرحه .

الثانى - قال الزنجشیرى : (وجيهاً) أى ذا جاه ومنزلة عنده . فذلك كان يميّط عنه التهم ويدفع الأذى ويحافظ عليه لئلا يلحقه وسم ولا يوصف بنقيصة . كما يفعل الملك بمن له عنده قربة ووجاهة . وقال ابن جرير^(١) : أى كان موسى عند الله مشفقاً فيما يسأل ، ذا وجه ومنزلة عنده ، بطاعته إياه . أى مقبولاً ومجاباً فيما يطلب لقومه من الله تعالى ، عناية منه تعالى وتفضيلاً .

الثالث - اتخذ العامة ، وكثير من المتعالمين ، وصف الوجاهة للأنبياء ، ذريعة للطلب والرغبة منهم ، مما لا ينطبق على عقل ولا نقل ، ولا يصدق على المعنى اللغوى بوجهٍ ما . وقد كتب فى ذلك الإمام الشيخ محمد عبده فتياً ، أبان وجه الصواب فيما تشابه من هذه المسألة . وذلك أنه سئل ، رحمه الله ، عن يتوسل بالأنبياء والأولياء ، معتقداً أن النبىّ أو الوليّ يستميل إرادة الله تعالى عما هى عليه ، كما هو المعروف للناس من معنى الشفاعة والجاه عند الحكام . وأن التوسل بهم إلى الله تعالى كالتوسل بأكابر الناس إلى الحكام .

فقال امرؤ: إن هذا مخلّ بالعقيدة وإن قياس التوسل إلى الله تعالى على التوسل بالحكام محال . وإن عقيدة التوحيد أن لا فاعل ولا نافع ولا ضار إلا الله تعالى . وإنه لا يدعى معه

(١) انظر الصفحة رقم ٥٠ من الجزء الثانى والعشرين (طبعة الحلبي الثانية)

أحد سواه . كما قال تعالى ^(١) (فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا) وإن النبي ﷺ ، وإن كان أعظم منزلة عند الله تعالى من جميع البشر ، وأعظم الناس جاها ومحبة ، وأقربهم إليه ، ليس له من الأمر شيء ، ولا يملك للناس ضرراً ولا نفعا ولا رشدا ولا غيره . كما في نص القرآن . وإنما هو مبلّغ عن الله تعالى . ولا يتوسل إليه تعالى إلا بالعمل بما جاء على لسانه ﷺ ، واتباع ما كان عليه الصحابة والتابعون والأئمة المجتهدون من هديه وسنته . وإنه لا سبب لجلب المنافع ودفع المضار إلا ما هدى الله الناس إليه . ولا معنى للتوسل بنبي أو ولي إلا باتباعه والافتداء به . يرشدنا إلى هذا كثير من الآيات الواردة في القرآن العظيم ، كقوله تعالى ^(٢) (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ) (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ) (قُلْ أَتَمَعُوهُ) ^(٣) إلى غير ذلك من الآيات . هذا هو اعتقادي وهو الذي قلته للناس . فإن كنتم ترون فيه خطأ فأرجو بيانه . وإن كان هو الصواب فأرجو إقرارى عليه كتابة ، لأدافع بذلك من أساء بى الظن .

فأجاب رحمه الله ، بعد البسملة والحوالة : اعتقادك هذا هو الاعتقاد الصحيح . ولا يشوبه شوب من الخطأ . وهو ما يجب على كل مسلم يؤمن بما جاء به محمد ﷺ أن يعتقده . فإن الأساس الذى بنيت عليه رسالة النبي محمد ﷺ هو هذا المعنى من التوحيد . كما قال الله تعالى ^(٤) (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ) (وَالصَّمَدُ) هو الذى يقصد فى الحاجات ، ويتوجه إليه المربوبون فى معونتهم على ما يطلبون ، وإمدادهم بالقوة فيما تضعف عنه قواهم . والإتيان بالخبر على هذه الصورة يفيد الحصر . كما هو معروف عند أهل اللغة . فلا صمد إلا هو . وقد أرشدنا إلى وجوب القصد إليه وحده بأصرح عبارة فى قوله ^(٥) (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي

(١) [٧٢ / الجن / ١٨] . (٢) [٣ / آل عمران / ٣١] .

(٣) [٦ / الأنعام / ١٥٣] . (٤) [١١٢ / الإخلاص / ١ و ٢] .

(٥) [٢ / البقرة / ١٨٦] .

قَرِيبٌ، أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ) وقد قال الشيخ محي الدين بن العربي، شيخ الصوفية، في صفحة ٢٢٦ من الجزء الرابع من (فتوحاته) عند الكلام على هذه الآية: إن الله تعالى لم يترك لعبده حجة عليه. بل لله الحجة البالغة. فلا يتوسل إليه بغيره. فإن التوسل إنما هو طلب القرب منه. وقد أخبرنا الله أنه قريب. وخبره صدق. انتهى ملخصاً.

على أن الذين يزعمون جواز شيء مما عليه العامة اليوم في هذا الشأن، إنما يتكلمون فيه بالمبهمات، ويسلكون طرقاً من التأويل لا تنطبق على ما في نقوس الناس. ويفسرون الجاه والواسطة بما لا أثر له في تخيلات المعتقدين. فأى حالة تدعوهم إلى ذلك؟ وبين أيديهم القرون الثلاثة الأولى، ولم يكن فيها شيء من هذا التوسل ولا ما يشبهه بوجه من الوجوه، وكتب السنة والسير بين أيدينا شاهدة بذلك، فكل ما حدث بعد ذلك فأقل أوصافه أنه (بدعة) في الدين وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار. وأسوأ البدع ما كان فيه شبهة الإشراف بالله تعالى وسوء الظن به. كهذه البدع التي نحن بصدد الكلام فيها، وكأن هؤلاء الزاعمين يظنون أن في ذلك تعظيماً لقدرة النبي ﷺ، أو الأنبياء والأولياء. مع أن أفضل التعظيم للأنبياء هو الوقوف عند ما جاءوا به، واتقاء الزيادة عليهم فيما شرعوه بإذن ربهم. وتعظيم الأولياء يكون باختيار ما اختاروه لأنفسهم. وظن هؤلاء الزاعمين أن الأنبياء والأولياء يفرحون بإطرائهم وتنظيم المداخل وعزوها إليهم، وتفضيم الألفاظ عند ذكرهم، واختراع شئون لهم مع الله، لم ترد في كتاب الله ولا في سنة رسوله ولا رضىها السلف الصالح. هذا الظن بالأنبياء والأولياء هو أسوأ الظن. لأنهم شبهوهم في ذلك بالجبارين من أهل الدنيا، الذين غشيت أبصارهم ظلمات الجهل قبل لقاء الموت، وليس يخطر بالبال أن جباراً لقي الموت وانكشف له الغطاء عن أمر ربه فيه، يرضى أن يفخمه الناس بما لم يشرعه الله. فكيف بالأنبياء والصديقين؟ إن لفظ (الجاه) الذي يضيفونه إلى الأنبياء والأولياء عند التوسل، مفهومه العرفي هو السلطة. وإن شئت قلت نفاذ الكلمة عند من يستعمل عليه أو لديه، فيقال فلان اغتصب مال فلان بجاهه، ويقال فلان خلص فلانا

من عقوبة الذنب بجاهه، لدى الأمير أو الوزير مثلاً. فزعمُ زاعم أن لفلان جاها عند الله بهذا المعنى ، إشراكٌ جليّ لاخفى . وقلنا يخطر ببال أحد من المتوسلين معنى اللفظ اللغويّ ، وهو المنزلة والقدر . على أنه لا معنى للتوسل بالقدر والمنزلة في نفسها. لأنها ليست شيئاً ينفع. وإنما يكون لذلك معنى ، لو أوّلتُ بصفة من صفات الله، كالاكتباء والاصطفاء، ولا علاقة لها بالدعاء ولا يمكن لتوسل أن يقصدها في دعائه . وإن كان (الآلوسيّ) بنى تجويز التوسل بجاء النبيّ خاصة على ذلك التأويل . وما حمله على هذا إلا خوفه من ألسنة العامة وسباب الجهّال . وهو مما لا قيمة له عند العارفين . فالتوسل بلفظ الجاء مبتدع بعد القرون الثلاثة . وفيه شبهة الشرك والعياذ بالله ، وشبهة العدول عما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم . فلم الإصرار على تحسين هذه البدعة ؟

يقول بعض الناس : إن لنا على ذلك حجة لا أبلغ منها . وهي ما رواه الترمذيّ^(١) بسنده إلى عثمان بن حنيف رضي الله عنه قال : إن رجلاً ضرير البصر أتى النبيّ ﷺ فقال : ادع الله أن يمافيني . فقال : إن شئت دعوت وإن شئت صبرت فهو خير لك . قال : فادع . قال فأمره أن يتوضأ فيحسن الوضوء ، ويدعو بهذا الدعاء : اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبيّ الرحمة . يا محمد ! إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضي لي . اللهم فشفعه في . قال الترمذيّ : وهو حديث حسن صحيح غريب ، ونقول أولاً : قد وصف الحديث بالغريب ، وهو ما رواه واحد . ثم يكفي في لزوم التحرز عن الأخذ به ، أن أهل القرون الثلاثة لم يقع منهم مثله ، وهم أعلم مناجيا يجب الأخذ به من ذلك . ولا وجه لابتعادهم عن العمل به ، إلا علمهم بأن ذلك من باب طلب الاشتراك في الدعاء من الحى . كما قال عمر^(٢) رضي الله عنه ، في حديث الاستسقاء : إنا كنا نتوسل

(١) أخرجه في : ٤٥ - كتاب الدعوات ، ١١٨ - باب حدثنا محمود بن غيلان

(٢) أخرجه البخاريّ في : ١٥٠ - كتاب الاستسقاء ، ٣ - باب سؤال الناس الإمام

الاستسقاء ، إذا قحطوا ، حديث ٥٧٢

إليك بنينا ﷺ فقسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبيك العباس فاسقنا ، قال ذلك ، رضى الله عنه ، والعباس بجانبه يدعو الله تعالى ، ولو كان التوسل ما زعم هؤلاء الزاعمون ، لكان عمر يستسقى ويتوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم ، ولا يقول (كنانستسقى بنبيك) وطلب الاشتراك في الدعاء مشروع حتى من الأخ لأخيه ، بل ويكون من الأعلى للأدنى ، كما ورد في الحديث . وليس فيه ما يخشى منه ، فإن الداعي ومن يشركه في الدعاء وهو حي ، كلاهما عبد يسأل الله تعالى ، والشريك في الدعاء شريك في العبودية ، لا وزير يتصرف في إرادة الأمير كما يظنون ^(١) (سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبَّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ) ثم المسألة داخلية في باب العقائد ، لا في باب الأعمال . ذلك أن الأمر فيها يرجع إلى هذا السؤال (هل يجوز أن نعتقد بأن واحدا سوى الله يكون واسطة بيننا وبين الله في قضاء حاجتنا أولا يجوز) ؟ أما الكتاب فصرح في أن تلك العقيدة من عقائد المشركين ، وقد ناعاها عليهم في قوله ^(٢) (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ يَقُولُونَ هَـؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ) سورة يونس ، وقد جاء في السورة التي نقرأها كل يوم في الصلاة (وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) فلا استعانة إلا به ، وقد صرح الكتاب بأن أحدا لا يملك للناس من الله نفعا ولا ضرا ، وهذا هو التوحيد الذي كان أساس الرسالة المصطفوية كما بينا . ثم البرهان العقلي يرشد إلى أن الله تعالى في أعماله لا يقاس بالحكام وأمثالهم في التحول عن إرادتهم ، بما يتخذها أهل الجاه عندهم ، لتزده جل شأنه عن ذلك . ولو أراد مبتدع أن يدعو إلى هذه العقيدة ، فعليه أن يقيم عليها الدليل الموصول إلى اليقين ، إما بالمقدمات العقلية البرهانية أو بالأدلة السمعية المتواترة . ولا يمكنه أن يتخذ حديثا من حديث الآحاد دليلا على العقيدة مهما قوى سنده . فإن المعروف عند الأئمة قاطبة أن أحاديث الآحاد لا تفيد إلا الظن . (وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا) ^(٣) انتهى كلامه رحمه الله .

(١) [٣٧ / الصافات / ١٨٠] . (٢) [١٠ / يونس / ١٨] .

(٣) [٥٣ / النجم / ٢٨] .

ثم راجعت (اقتضاء الصراط المستقيم) للإمام العلم تقى الدين ابن تيمية رضى الله عنه . فرأيت أنه ذكر نحواً من ذلك ، وعبارته : فالوسيلة التي أمر الله بابتغائها ، نعم الوسيلة في عبادته وفي مسألته . فالتوسل إليه بالأعمال الصالحة التي أمر بها ، وبدعاء الأنبياء والصالحين وشفاعتهم ، ليس هو من باب الإقسام عليه بمخلوقاته . ومن هذا الباب استشفاع الناس بالنبي ﷺ يوم القيامة ، فإنهم يطلبون منه أن يشفع لهم إلى الله ، كما كانوا في الدنيا يطلبون منه أن يدعو لهم في الاستسقاء وغيره ، وقول عمر رضى الله عنه (إنا كنا ، إذا أجدبنا ، توسلنا إليك بنبينا ففسقنا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا) معناه نتوسل بدعائه وشفاعته وسؤاله ، ونحن نتوسل إليك بدعاء عمه وسؤاله وشفاعته . ليس المراد به ، إنا نقسم عليك به . أو ما يجرى هذا المجرى مما يفعل بعد موته وفي مغيبه . كما يقوله بعض الناس : أسألك بجاه فلان عندك . ويقولون : إنا نتوسل إلى الله بأنبيائه وأوليائه ، ويروون حديثاً موضوعاً (إذا سألت الله فأسأله بجاهي ، فإن جاهي عند الله عريض) فإنه لو كان هذا هو التوسل الذي كان الصحابة يفعلونه ، كما ذكر عمر رضى الله عنه ، لفعلوا ذلك بعد موته ، ولم يعدلوا عنه إلى العباس . مع علمهم أن السؤال به والإقسام به ، أعظم من العباس . فعمل أن ذلك التوسل الذي ذكروه ، هو مما يفعل بالأحياء دون الأموات . وهو التوسل بدعائهم وشفاعتهم . فإن الحي يطلب منه ذلك والميت لا يطلب منه شيء ، لا دعاء ولا غيره . وكذلك حديث الأعمى . فإنه طلب من النبي ﷺ أن يدعو له ليرد الله عليه بصره . فعلمه النبي ﷺ دعاء أمره فيه ، أن يسأل الله قبول شفاعته بنبيه فيه . فهذا يدل على أن النبي ﷺ شفع فيه ، وأمره أن يسأل الله قبول شفاعته ، وأن قوله (أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة) أى بدعائه وشفاعته . كما قال عمر : كنا نتوسل إليك بنبينا . فلفظ (التوجه) و (التوسل) في الحديثين بمعنى واحد . ثم قال (يا محمد ! يا رسول الله ! إني أتوجه بك إلى ربى في حاجتى ليقضيها . اللهم ! فشفعه في) فطلب من الله أن يشفع فيه بنبيه . وقوله (يا محمد ! يا نبي الله !) هذا وأمثاله نداء ، يطلب به استحضار المنادى في القلب .

فيخاطب المشهود بالقلب . كما يقول المصلى : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته . والإنسان يفعل مثل هذا كثيرا . يخاطب من يتصوره في نفسه . وإن لم يكن في الخارج من يسمع الخطاب . فلفظ التوسل بالشخص والتوجه به والسؤال به ، فيه إجمال واشتراك . غلط نسبته من لم يفهم مقصد الصحابة ، يراد به التشبث به (في الأصل التسبب به) لكونه داعيا وشافعا مثلا . أو لكون الداعي محببا له ، مطيعا لأمره ، مقتديا به . فيكون التسبب إما بحجة السائل له واتباعه له ، وإما بدعاء الوسيلة وشفاعته ، ويراد به الإقسام به والتوسل بذاته . فلا يكون التوسل ، لاشيء منه ولا شيء من السائل ، بل بذاته أو بمجرد الإقسام به على الله . فهذا الثاني هو الذي كرهوه ونهوا عنه . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ » أى فى كل ماتأتون وماتندرون . لاسيما فى ارتكاب ما يكرهه ، فضلا عما يؤذى رسوله صلى الله عليه وسلم « وَقُولُوا » أى فى كل شأن من الشئون « قَوْلًا سَدِيدًا » أى قويا حقا صوابا . قال القاشانى : (السداد) فى القول ، الذى هو الصدق والصواب ، هو مادة كل سعادة ، وأصل كل كمال . لأنه من صفاء القلب وصفاءه يستدعى جميع الكمالات . وهو وإن كان داخلا فى التقوى المأمور بها ، لأنه اجتناب من رذيلة الكذب ، مندرج تحت التزكية التى عبر عنها بالتقوى . لكنه أفرد بالذكر للفضيلة . كأنه جنس برأسه . كما خص جبريل وميكائيل من الملائكة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧١] (يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

«يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ» أى بإمداد الصلاح والكمالات والفضائل عليكم . لأنه لا يصح عمل ما بدون الصدق أصلاً . وبه يصلح كل عمل « وَیَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ » أى ويجعلها مكفرة باستقامتكم فى القول والعمل . فإن الحسنات يذهبن السيئات « وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ » أى فى الأوامر والنواهي التى من جملتها هذه التشريعات « فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا » أى فى الدارين .

وقال القاشانى : أى فاز بالتحلية والاتصاف بالصفات الإلهية ، وهو الفوز العظيم .

تنبيه :

قال الزمخشريّ : المراد نهيمهم عما خاضوا فيه من حديث زينب من غير قصد وعدل فى القول . والبعثُ على أن يسدّ قلوبهم فى كل باب . لأن حفظ اللسان وسداد القول رأس الخير كله . وهذه الآية مقررة للتي قبلها . بنيت تلك على النهي عما يؤذى رسول الله ﷺ ، وهذه على الأمر باتقاء الله تعالى فى حفظ اللسان ، ليرادف عليهم النهي والأمر ، مع اتباع النهي ما يتضمن الوعيد من قصة موسى عليه السلام . واتباع الأمر الوعد البليغ ، فيقوى الصارف عن الأذى والداعى إلى تركه . انتهى .

ولك أن تضم إلى المراد من الآية الذى ذكره ، مراداً آخر . وهو نهيمهم أيضاً عما خاض فيه المنافقون من التعويق والتثبيط وبث الأراجيف فى غزوة الأحزاب ، المقدمة أوائل السورة وبالجملة ، فالسياق يشمل ذنبك وغيرهما . إلا أن الذى يراعى أولاً ، هو ما كان التنزيل لأجله ، وذلك ما ذكر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ، إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)

« إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ

مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا » قال أبو السعود : لما بين عظم شأن طاعة الله ورسوله ، ببيان مآل الخارجين عنها من العذاب الأليم ، ومثال المراعين لها من الفوز العظيم عقب ذلك ببيان عظم شأن ما يوجبها من التكاليف الشرعية وصعوبة أمرها بطريق التمثيل - مع الإيذان بأن ما صدر عنهم من الطاعة وتركها ، صدر عنهم بعد القبول والالتزام . وعبر عنها بـ (الأمانة) تنبيهاً على أنها حقوق مرعية أودعها الله تعالى المكلفين ، وائتمنهم عليها . وأوجب عليهم تلقاها بحسن الطاعة والانقياد . وأمرهم بمراعاتها والحفاظة عليها وأدائها ، من غير إخلال بشيء من حقوقها . وعبر عن اعتبارها بالنسبة إلى استعداد ما ذكر من السموات وغيرها ، بالعرض عليهن ، لإظهار مزيد الاعتناء بأمرها والرغبة في قبولهن لها - وعن عدم استعدادهن لقبولها ، بالإباء والإشفاق منها ، تهويل أمرها وتربية نخامتها - وعن قبولها بالجلل لتحقيق معنى الصعوبة المعتبرة فيها ، بجعلها من قبيل الأجسام الثقيلة التي يستعمل فيها القوى الجسمانية ، التي أشدها وأعظمها ما فيهن من القوة والشدة . والمعنى : أن تلك الأمانة في عظم الشأن ، بحيث لو كلفت هاتيك الأجرام العظام ، التي هي مثل في القوة والشدة ، مراعاتها ، وكانت ذات شعور وإدراك ، لَأَبَيْنَ قبولها وأشفقن منها . ولكن صرف الكلام عن سننه بتصوير المفروض بصورة المحقق ، رَوْماً لزيادة تحقيق المعنى المقصود بالتمثيل وتوضيحه . وقوله تعالى (وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ) أى عند عرضها عليه . إما باعتبارها بالإضافة إلى استعداده ، أو بتكليفه إياها يوم الميثاق - أى تكليفها والتمها مع ما فيه من ضعف البنية ورخاوة القوة - وهو إما عبارة عن قبوله لها بموجب استعداده الفطري ، أو عن اعترافه بقوله (بلى) . وقوله تعالى (إِنَّهُوَ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا) اعتراض وسط بين الجمل وغايته ، للإيذان من أول الأمر بعدم وفائه بما عهده وتحمله - أى أنه كان مفرطاً في الظلم ، مبالغاً في الجهل . أى بحسب غالب أفراد الذين لم يعملوا بموجب فطرتهم السليمة . أو اعترافهم السابق دون من عداهم من الذين لم يبدلوا فطرة الله تبديلاً . وإلى الفريق الأول أشير بقوله عز وجل :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا)

« لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ » أى حملها الإنسان ليعذب الله بعض أفراد الذين لم يراعوها ولم يقابلوها بالطاعة . على أن اللام للعاقبة . فإن التعذيب وإن لم يكن غرضاً له من الحمل ، لكن لما ترتب عليه بالنسبة إلى بعض أفراد ، ترتب الأغراض على الأفعال المعللة بها ، أبرز في معرض الغرض - أى كان عاقبة حمل الإنسان لها أن يعذب الله تعالى هؤلاء من أفراد خيانتهم الأمانة وخروجهم عن الطاعة بالسكينة . وإلى الفريق الثانى أشير بقوله تعالى « وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ » أى كان عاقبة حملها أن يتوب الله تعالى على هؤلاء من أفراد . أى يقبل توبتهم لعدم خلعهم ربة الطاعة عن رقابهم بالمرة . وتلافيتهم لما فرط منهم من فرطات . فلما يخلو عنها الإنسان بحكم جبلته وتداركهم لها بالتوبة والإنابة . والالتفات إلى الاسم الجليل أولاً ، تهويل الخطب وتربية المهابة . والإظهار في موضع الإضمار ثانياً ، لإبراز مزيد الاعتفاء بأمر المؤمنين توفية لكل من مقامى الوعيد والوعد حقه « وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا » أى مبالغاً في المغفرة والرحمة . حيث تاب عليهم وغفر لهم فرطاتهم وأثاب بالفوز على طاعتهم . انتهى ملخصاً مما حرره أبو السعود . وقد آثرت نقله بحروفه لتجويده الكلام ، وإجادته في المقام . وهكذا عادتنا في كل مجوّد ، أن ننقله ولا نتصرف فيه .

بقى في الآية لطائف نشير إليها :

الأولى - فسر بعض السلف الأمانة بالطاعة ، وبعضهم بالفرائض والحدود والدين . وبعضهم بمعرفته تعالى . قال ابن كثير : وكل هذه الأقوال لاتنفاى بينها ، بل هى متفقة وراجعة

إلى أنها التكليف وقبول الأوامر والنواهي بشرطها . وهو أنه إن قام بذلك أثيب ، وإن تركها عوقب . انتهى .

وقيل : المراد بالأمانة الطاعة التي تعم الطبيعية والاختيارية ، لأنها لازمة الوجود ، كما أن الأمانة لازمة الأداء . وبمرضها ، استدعاؤها الذي يعم طلب الفعل من المختار ، وإرادة صدوره من غيره . وبحملها ، الخيانة فيها والامتناع عن أدائها ، فيكون الإباء امتناعاً عن الخيانة وإتياناً بالمراد . فالعنى أن هذه الأجرام مع عظمها وقوتها ، أُبَيِّنَ الخيانة وانقذن لأمره تعالى انقياد مثلها . حيث لم تمتنع على مشيئته وإرادته إيجاداً وتكويناً وتسوية ، على هيئات مختلفة وأشكال متنوعة . كما قال ^(١) (قَاتَلْنَا أَنْبِيَاءَ طَائِعِينَ) وخانها الإنسان حيث لم يأت - وهو حيوان عاقل صالح للتكليف - بأمرناه به ؛ إنه كان ظالوما جهولاً . وإرادة الخيانة من حملها ، هو بتشبيه الأمانة قبل أدائها بحمل يحمله . كما يقال (ركبته الديون) وقرره الزمخشري بقوله : وأما حمل الأمانة فمن قولك (فلان حامل للأمانة ومحتمل لها) تريد أنه لا يؤديها إلى صاحبها حتى تزول عن ذمته ، ويخرج عن عهدها . لأن الأمانة كأنها رابكة للمؤمن عليها ، وهو حاملها . ألا تراهم يقولون (ركبته الديون) و (لى عليه حق) فإذا أداها لم تبقى رابكة له ولا هو حاملاً لها . ومنه قولهم (أبغض حق أخيك) لأنه إذا أحبه لم يخرج به إلى أخيه ولم يؤده . وإذا أبغضه أخرجه وأداه فعنى (فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان) فأبين إلا أن يؤدينها . وأبى الإنسان إلا أن يكون محتماً لها لا يؤديها . ثم وصفه بالظلم لكونه تاركاً لأداء الأمانة ، وبالجهل لإخطائه ما يسعده مع تمكنه منه . وهو أداؤها . انتهى ملخصاً .

الثانية - نقل ابن كثير آثاراً عن بعض التابعين ؛ أن عرض الأمانة على هذه الأجرام كان حقيقياً . وأنه قيل لها : إن أحسنت جزيت وإن أسأت عوقبت . فقلن : يارب ! إنا لا نستطيع هذا الأمر ، وليس بذا قوة . ولكذا لك مطيعين . قال الشراح : ولا بُد ، أن يخلق الله فيها فهماً لخطابه ، وأنه كان على سبيل التخيير لها . ولذا عبر بالعرض ، لا بتكليف حتى يلزم عصيانها . انتهى .

قال الإمام ابن حزم في (الفِصَل) في الردّ على من جعل للجبهادات تمييزاً، مأمثاله : وأما عرضه تعالى الأمانة على السموات والأرض والجبال ، وإبائة كل واحد منها، فلسنا نعلم نحن ولا أحد من الناس كيفية ذلك. وهذا نص قوله ^(١) (مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ) فمن تسكف أو كلف غيره معرفة ابتداء الخلق ، وأن له مبدأً لا يشبهه البتة ، فأراد معرفة كيف كان ، فقد دخل في قوله تعالى ^(٢) (وَتَقُولُونَ بِأَفْوَهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَخْسَبُونَهُ هَيْمًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ) .
إلا أننا نوقن أنه تعالى لم يعرض على السموات والأرض والجبال الأمانة ، إلا وقد جعل فيها تمييزاً لما عرض عليها . وقوة تفهم بها الأمانة فيما عرض عليها . فلما أبتها وأشفقت منها، سلبها ذلك التمييز وتلك القوة ، وأسقط عنها تسكيف الأمانة .

قال : هذا ما يقتضيه كلامه عز وجل ، ولا مزيد عندنا على ذلك . انتهى .
وذهب جمع إلى أن ذلك من باب المجاز ، كما بينه ابن أبي الحديد في (شرح نهج البلاغة) وسبقه الزمخشري حيث قال : ونحو هذا من الكلام كثير في لسان العرب . وما جاء القرآن إلا على طرقهم وأساليبهم . من ذلك قولهم (لوقيل للشحم أين تذهب ، لقال أسوى العوج) وكم لهم من أمثالٍ على ألسنة البهائم والجمادات . وتصوّرُ مقابلة الشحم محال . ولكن الغرض أن السمن في الحيوان مما يحسن قبيحه . كما أن العجف مما يقبح حسنه . فصور أثر السمن فيه تصويراً هو أوقع في نفس السامع ، وهي به آنس ، وله أقبل ، وعلى حقيقته أوقف . وكذلك تصوير عظم الأمانة ، وصعوبة أمرها وثقل حملها والوفاء بها . انتهى .

الثالثة - قال الرازي : إن قال قائل : لم قدم التعذيب على التوبة - في آخر الآية؟ نقول : لما سمي التكليف أمانة ، والأمانة من حكمها اللزم أن الخائن يضمن ، وليس من حكمها اللزم أن الأمين الباذل جهده يستفيد أجرة ، فكان التعذيب على الخيانة كاللزام ، والأجر على الحفظ إحسان ، والعدل قبل الإحسان .

الخامسة - ورد في تعظيم الأمانة عدة أحاديث . منها عن أبي هريرة مرفوعاً : أدّ الأمانة

(١) [١٨ / الكهف / ٥١] . (٢) [٢٤ / النور / ١٥] .

إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك. رواه أبو داود^(٢) والترمذي^(١). وعن عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعاً: أربع، إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا: حفظ أمانة، وصدق حديث، وحسن خليقة، وعفة في طعمة. رواه الإمام أحمد^(٣) والطبراني. وعن أبي هريرة^(٤) قال: قال رسول الله ﷺ، لمن سأل عن الساعة: إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة. قال: كيف إضاعتها؟ يا رسول الله! قال: إذا وسد الأمر إلى غير أهله، فانتظر الساعة.

السادسة - قال ابن كثير: روى عبد الله بن المبارك في كتاب (الزهد) أن عمر بن الخطاب كان ينهى عن الحلف بالأمانة أشد النهي. وقد ورد في ذلك حديث مرفوع عن بريدة: من حلف بالأمانة فليس منا، تفرد به أبو داود^(٥). أي لأن الحلف لا يكون إلا باسم من أسمائه أو بصفة من صفاته. وأما بغير ذلك فمكروه أو حرام. كما تقرر في موضعه. والله أعلم.

السابعة - سبق لي أن كتبت في الآية شيئاً. في منتصف ربيع الأول سنة ١٣٢٤، في قرية ضمت حفلة من أهل العلم. فسأل بعض الناس عن تفسير الآية. ولم يكن ثمة تفسير. فاستعنت بالله تعالى، وقرأت السورة من أولها إلى آخرها مرات ثم كتبت ما تراه. أردت إثباته هنا تعريزاً للمقام، ونصه: في ختم السورة بهذه الآية من البدائع ما يسميه علماء البديع (ردّ المعجز على الصدر) ذلك أن طليعة هذه السورة كانت في ذم المنافقين وقصّ (١) رواه في: ٢٢ - كتاب البيوع، ٧٩ - باب في الرجل يأخذ حقه من تحت يده،

حديث ٣٥٣٥

(٢) أخرجه في: ١٢ - كتاب البيوع، ٣٨ - باب حدثنا أبو كريب، حديث ١٢٦٤
(٣) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ١٧٧ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٦٦٥٢ (طبعة المعارف)

(٤) أخرجه البخاري في: ٣ - كتاب العلم، ٢ - باب من سئل علماً وهو مشغل في

حديثه، حديث ٥٢

(٥) أخرجه في: ٢١ - كتاب الأيمان، ٥ - باب كراهية الحلف بالأمانة، حديث ٣٢٥٣

مخازيهم ونواياهم السيئة ضد الرسول وأصحابه في غزوة الأحزاب، وهي غزوة الخندق. أبان الحق تعالى أثر ما ذكر من الأمر بالتقوى وعدم إطاعة المنافقين ، وما كانوا يخوضون فيه من قصة التبتى ونحوها، أنهم كانوا أعطوا العهود والمواثيق أنهم إن قاتلوا لا يفرّوا وذلك في قوله تعالى (١) (وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلُّونَ الْأَدْبَرَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا * قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ أَلْفَرَارٌ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذْ لَا تُنْتَعَمُونَ إِلَّا قَلِيلًا) فلما خانوا أمانتهم بالفرار والتعويق لإخوانهم ، والتثبيط لهم ، وما كان من شنائعهم في تلك الغزوة، بين الله تعالى في خاتمة السورة، شأن الأمانة وعظم خطرها ، وأنها عند الله بمكان عظيم. وذلك لأن من أعطى من نفسه موثقا ، عاهد الله عليه فاطمأنت به النفوس ووثقت به وركنت إليه وأدرجته في عداد من يشدّ أزرها ، فإذا هو غادر خائن كاذب متلاعب، يتخذ عهود الله هزوا ولعبا ، فيخذل من وثق به ، ويمالىّ العدو عليه ويثبط من يرجى منه نوع معونة ، ويوقع الأراجيف ليوهى العزائم ويضعف الهمم ، فتكثر القالة وترتبك العامة . فما أسوأ ما يأتى به وما أفضع ما ارتكب وما أعظم جريمته ! وجلّى أن عظم الجريمة بقدر عظم آثارها ، وما ذكر بعض من آثارها . ففي أى مرتبة تكون الخيانة ؟ لا جرم أنها في أحط الماوى الدينية . كما أن مرتكبها في الدرك الأسفل من النار . فالأمانة المذكورة في الآية باعتبار سياقها وسباقها، هي الأمانة التي خان في تحملها المنافقون، ونقضوا بها عهدهم في هذه الواقعة . وكان من أثرها السيئ في المدينة وأهلها ما كان - وإن كان لفظها يعم ما ذكر وغيره، والإنسان هنا ، المعنى به جنس المنافق الذى قص من نبئه ما قص . والقصد لومه على كونه تحمل ما تحمل، ثم نقض ذلك عن عمد وقصد، ظلما لنفسه وجهلا بالعاقبة وباللوم الذى يتبعه، وبالمذاب الذى سيلقاه، ويكون هذا الأمر أمراً ربّانيا وعزيمة إلهية ما هى بالهزل . والمراد بعرض الأمانة على السموات والأرض والجبال، هو ظهور خطرها لهذه المكنونات ، وفضاعة الخيانة فيها، وإشفاق كل من خطر تحملها . وإبائهم ذلك لو كن مما يعقلن . مع أنهم أقوى أجساما وأعظم نباتا وأصبر على

(١) [٣٣ / الأحزاب / ١٥ و ١٦] .

طوارئ الحداث ، تخوفا من أن يطغين في أمرها أو يعصين في شأنها . وإن الإنسان ، مع ضعفه بالنسبة لمن ، حملها وما حفظها ولا رعاها . واجترأ مع ضعفه على ما أشفق منه ما هو أقوى منه . فما أظلمه وما أجهله ! والقصد رميه بالظلم والجهل . وجراءته على الخيانة وعدم مبالاته بما ترهب منه السموات والأرض والجبال . فيالله ما أطفاه ! فذكر هذه الأجرام الكبيرة تهويل لخطر الأمانة ، وأنهم لو عقلن لكان منهن ما كان . ونظير هذه الآية في ذكر هؤلاء الثلاثة قوله تعالى ^(١) (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا)) وحقا أن سبك المعنى المذكور في قالب هذا النظم البديع لمعجزة من معجزات التنزيل ، و خارق من خوارقه في باب البلاغة . فإن أسلوبه في إفراغ المعاني في أرق الألفاظ وأنعم التراكيب ، أسلوب انقرد به عن كل كلام . وبه يعلم أن من بحث في كيفية العرض عليهن ، هل كان بإيداع عقل فيهن أولا ، وفي تعيين زمانه وفي كيفية إباطهن وإشفاقهن ، وفي معنى لوم الإنسان ورميه بالظلم والجهل ، بعد ما عرضت عليه ، وأن ظاهره التخيير إلى غير ذلك - كله فلسفة لفظية ، ولدها عشاق الظواهر والألفاظ ، الولعون في الغلو بمفرداتها ، وصرف الوقت فيها جعل ذلك منتهى قصدهم ومبلغ علمهم . فضاع عليهم المعنى ولم يهتدوا إليه - ولن يجدوا إليه سبيلا ما دام هذا سبيلهم - والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

تم الجزء الثالث عشر . ويليه إن شاء الله الجزء الرابع عشر ، وفيه تفسير : (٣٤ - سورة سبأ ، و ٣٥ - سورة فاطر ، و ٣٦ - سورة يس ، ٣٧ - سورة الصافات ، و ٣٨ - سورة ص ، و ٣٩ - سورة الزمر ، و ٤٠ - سورة غافر ، و ٤١ - سورة فصلت ، و ٤٢ - سورة الشورى ، و ٤٣ - سورة الزخرف ، و ٤٤ - سورة الدخان و ٣٥ - سورة الجاثية)

(١) [١٩ / مريم / ٨٨ - ٩١] .

